محمود الورواري

مَدَد

رواية

الدار المصرية اللبنانية


رواية

الورواري، محمود.
مدد: رواية / محمود الورواري.- ط1.-
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2014.
360 ص؛ 20 سم.
تدمك: 0 - 873 - 427 - 977 - 978
1- القصص العربية.
أ- العنوان 813
رقم الإيداع: 24198 /2013

الدار المصرية اللبنانية
16 عبد الخالق ثروت القاهرة.
تليفون: 23910250 202 +
فاكس: 23909618 202 + - ص. ب 2022
E-mail:info@almasriah.com
www. almasriah.com

الطبعة الأولى: ربيع أول 1435 هـ - يناير 2014م



محمود الورواري

الدار المصرية اللبنانية

(أنـا ضميـرك الـذي خلعته «بقـرف» وكأنـك تخلع فـردة حذاء قديـم، كنـت تنـوي وقتها قتلـي حين ألقيتنـي بعمد وحقد في سـلة القمامـة لتخنقني ببقاياك القذرة، لكنـك كعادتك تركز على الفرعي وتنسى الأساس، تنخطف إلى المتحول وتهمل الثابت، نسيت وقتها الفطرة والسـليقة، نسيت أنني غير قابل للموت وأن غيابي وإقصائي لا يعني بالضرورة موتي.

وبرغـم كل الوهـن والضعـف الـذي ينتابنـي مـن ممارسـاتك وأفعالـك ضـدي إلا أننـي ما زلـت أحيا، وسـأنذر نفسـي منذ الآن لأن أعريـك أمـام فتات ذاتك المتبقي، مسـتغلا مـا وصلت إليه من ضعف ووهن حين سـقطت أنت ونظامك تحت أقدام شعب وأنت الذي بعت نفسـك وكل شـيء من أجل أن تجلس على كرسي برتبة خسيس.

فلتتحملنـي بمحـض إرادتك؛ فليـس لديك وسـيلة لقتلي، إنها فرصتي لأن أسـتعيد قوتي المقتولة على مقصلة شرك، فأنا لصيقك منذ اللحظة).

البَيْـــــنُ

(الجنون هو عدم قدرة الإنسـان على أن يحسـم أمره بين عالَمَين متناقضين)

«ديستوفسكي»

نفس الرؤية التي تطاردك منذ طفولتك تأتيك هذه المرة بشراسة أكثر.

جبال الله تجثم فوق صدرك، تكتم أنفاسك فترى الكون ثقبا يضيق فتضيق روحك، لا تملك إلا أن تنطلق مدفوعا بحلاوة ما بقي من روحك، وبالقليل الذي تبقى من حبك للحياة، تندفع من نافذة ذلك الشباك الذي يطل على صفحة حقول بلدتك، سنابل القمح المتماوج أمام النسمات الهادئات يشكل تضفيرة من ألوان الطيف الإلهي، خليط من صفار نضج السنابل وبقايا من اخضراره، تهرول فوق تلك السنابل وكأنك تهرول فوق الماء، مُحصنا ضد التعثر والبلل، محكوما بكرامات تعجز عن تفسيرها، تهرول أكثر فتقصر المسافات حتى تصل إلى بقعة النور المتجلية بين رؤوس النخيل، تقف عندها، تتسمر رجلاك تحت صوت أجش وكأن الكون يتحدث:

هنا آخر حدودك فالتزمه...

العمامـة المتدلية على الرأس تشـي بالنور الذي أسـفلها، يعتدل الـرأسُ رويـدا رويـدا ليُعطي للوجه مسـاحة الصـدارة، لحية بيضاء مغموسـة بنور ليس كالذي تعرفه، خيوط من أبيض وأخضر وبينهما تداخلات تعجز العين البشرية عن توصيفها.

وجه فـي لون الأرض، عجينة من صفـرة الصحراء و طينة فخار البشـر، عينـان تضيقان، تنعصـران حين تصيـغ لحمة اللسـان لفظة اللللللللله بمددها.

لـم تكن ملامـح ذلك الوجـه غارقة فـي العبـوس والتجهم كما تجلـت لك مرارا في المرات السـابقة، ثمة انفراجة قليلة في الجبين وما بين الحاجبين، استدار إليك الشيخ لأول مرة، ورمقك في عجل ورماك ببنت لسانه:

- حان ميعاد القرب فاقترب...

جـرس الباب يدق رأسـك، يُخرجـك من عالـم شـيخك ويقطع عنك اسـتكمال حـواره، تنتفـض من فراشـك، تُزيح بعـض حبات عرقك، حاولـت ترتيب فرائصك المهتزة، تمنيت أن تجد من ترتمي في صدره وتصرخ:

- دثريني، دثريني.

. تتوكأ على مقاعد فرش شـقتك الفاخرة حتى سلمك إلى الباب، كانـت الجرائد تطل إليك بنظرة ماكرة من أسـفل بابـك، تتنمر بك،

تُخفي مكنونها عنك، وتتركك في لعبة التخمين لبضع دقائق، تحملها وكأنك تحمل عمرك بكل أوزاره، تدخل إلى مطبخك الذي ازداد جفافا وشحوبا واتساخا وهو المرهون بالهجر منذ سقوط عرش نظامك الذي انتميت إليه وتنازلت عن إنسانيتك بمحض إرادتك في الطمع.

أمام فنجان ناصع البياض احتوى بعض قهوة داكنة السواد فرشت جرائدك وأخذتك مسحة من تأمل للونين وكأنك تتأمل ذاتك، عجزت عن تحديد الجزء الأبيض والأسود فيك.

رائحة ورق الجرائد خانقة هذه المرة، كلها عناوين ثورية، كلمات كالخناجر، ومزايدات لا تتوقف، تبحث عما يعنيك في ضجيج هذه العناوين، تبحث عما يتم تحضيره للفلول الذين أنت منهم، المطرودين تحت سنابك خيول الشعب الجامحة..

وضع عدد من رموز النظام السابق على قائمة الممنوعين من السفر.

القبض على.......... والمحاكمات قريبا.

أزحت عينيك سريعا إلى أسفل تلك العناوين، هرولت خلف لهفتك على اسمك في أي خانة وضع؟ لم تبحث كثيرا؛ فقد كان متصدرا قائمة الممنوعين من السفر.

الوزير رياض كامل..

بتعثر الخيبة تتجه إلى مكتبك، لم تكن تدري أنك تحتاج إلى جرأة وجهد وشجاعة لتحريك مقبض غرفة مكتبك بنفس كيف وكم الجرأة التي يحتاجها العرب لفتح القدس.

منذ ثلاثة أشهر فقدت تلك القدرة التي تجعلك تدخل غرفة مكتبك، كنت تهرب من تلك المواجهة التي تعيدك إلى عالمك أو - عفوا - ما كان عالمك، ذلك العالم الذي طردك منه، ألقاك بلا رحمة في مكب نفايات حين أُطيح بك وبوزارتك وبنظام كامل تحت وقع هتافات زلزلتك:

الشعب يريد إسقاط النظام.

أنت الآن بلا وزارة، بلا منصب ولا سلطة ولا جاه، بلا حراس شخصيين وبلا صولجان، أنت الآن بلا نفسك.

ما زلت تذكر صديقك المفكر الكبير الذي أخبرك حين جاء يبارك لك تقلدك الوزارة لأول مرة:

- خلي بالك يا رياض.. الوزارة بتجنن الناس، بتضيع عقولهم بيخسروا نصف عقلهم حتى يتولوا الوزارة، وبيفقدوا النصف الآخر إذا خرجوا منها!

كنت تعلم وقتها مدى دقة صديقك، لكن ما كنت تدري أن خسارتك أكبر، فأنت فقدت ذاتك وروحك كاملة حتى تكون

وزيرا، وحينما طردوك لم يكن لديك شـيء تخسـره، فأنت خسرت كل شـيء، خسـرت إنسـانيتك، ثلاثـة أشـهر الآن وأنـت مرمي في شـقتك، لم يـرن هاتفك ولا جرس شـقتك الفاخرة، لـم تخرج من بيتـك، فقط كنت تنتظـر المجلات والجرائد التـي تأتيك كل صباح مـن أسـفل الباب، وحدهـا الصحف لم تنقطع، ربمـا لم يصل ذلك العامل الذي اعتاد منذ سنين إيصالها. خبرُ طردك. عناوين الصحف تذبحك كل صباح.

عـدت مرة أخرى إلى تحديك الحالـي ورحت تنظر إلى مقبض بـاب غرفة مكتبك، كان ذلـك المقبض يُخرج لك لسـانه، يغيظك، يبصـق عليـك ويتحـداك. جمعـت مـا تبقـى فيـك وأمسـكته، كان يرتجف، كسـمكة خرجت لتوهـا من النهر، جمعـت قوتك، أدرت المقبـض، فانفتح الباب في تعب وبلادة، وهو الذي أغلق منذ ثلاثة أشهر.

حين دخلـت غرفة مكتبك، كانت الرائحة عطنة، كل شـيء بارد وباهت، أشـياؤك كانـت ميتة، نعم هكـذا رأيتها.. البراويـز المعلقة على الجدران، ميدالياتك، شـهادات تقديرك،، صورك مع الرؤسـاء والزعماء والكتاب ومشـاهير العالم. كنت ترى هذه الصور محنطة، أو مشنوقه على الجدران.

وقفت أمام مكتبتك، وحدها الكتب كانت تسـتريح على أرففها، تتنفس ببطء، وكأنها ذلك المستشار الذي تجاهلته، همشته، وتركت

لحيوانيتك العنان، كنت توغل في السياسة بنفس قدر تخليك عن إنسانيتك، أنت لا تحتاج إلى إثبات لذلك، أنت تعرف، ومقتنع بأن السياسة نقيض للإنسانية، بل كنت تحب وتتمنى أن تتخلص من هذه الإنسانية، أو ربما لم يكن لديك ما تتخلص أو تتخلى عنه، كنت بلا إنسانية منذ أن جردتك أمك منها حين تركتك طفلا صغيرا وهربت مع عشيقها كما قال أبوك، وظللت من وقتها لعبة لأولاد القرية، يزفونك في ذهابك وإيابك وهم يرددون: «ابن عزيزة... ابن عزيزة.. ابن عزيزة اللذيذة... ابن عزيزة».

كنت بالنسبة لأبيك صورة مجسدة لذنب أمك التي كرهها، كان يسبك، يلعنك، يضربك بعنف، ينتقم منك وكأنه ينتقم من أمك فيك.

«ما أنت زي امك.. فاجر. وتلاقيك ابن حرام كمان».

إذن من أين تأتيك الإنسانية وأنت ولدت على نفس الصخرة التي تكسرت عليها إنسانية أبيك وأمك، أنت تكرههما، تكره أباك وتكره سيرة أمك و تكره نفسك.

الآن تُقر بأن الخروج من بئرك ليس كما أخرج يوسف من جب خيانة أخوته، وإنما بعكس ذلك تماما، فيوسف أُخرج من الموت للحياة، وأنت تريد السير في عكس رحلة خروج يوسف، تريد الخروج من الحياة إلى الموت!

توقـن أن الموت هو خيارك الأخيـر والوحيد، عليك أن تموت، ولكن كيف؟

هل تملك من الشـجاعة ما يؤهلك لقتل نفسـك، ما يؤهلك لأن تنتحر؟

«أنا أجبن من أن أنتحر».

تكـرر ذلـك دائما، وتعرف السـبب جيـدا، تعـرف أن ثمة علاقة وترابـط بين إنسـانيتك المفقوده وبين خصالـك المُرتجاة، ما تتمنى أن تكون عليه.

كنـت تحدق فـي مقعدك المحتمـي منك خلـف المكتب وكأنه لا يريـدك، أو يخـاف منك، كان مسـند المقعد الوثيـر الأنيق خليطا بين الأحمر والأسـود، وقتها عرفت يقينا أن هذين اللونين هما منك وفيك.

اللـون الأحمـر، هـو يدك التي انغمسـت فـي دماء مَـنْ قتلت أو تآمرت على قتلهم.

أما اللون الأسـود فنفس لون قلبك، لم تكن ترى إشـراقا أو نورا أو راحـة تأتيك مـن داخلك، ولم يكن لديك إحسـاس بحب لأحد حتـى زوجتك التي حاربـت لتفوز بها، تآمرت واسـتحضرت كامل شـرك في التخلص من حبيبها حتى أدخلته السجن، وتزوجتها وهي التي كررت لك كثيرا: «أنا باكرهك، وعمري ما انسى تاري منك».

أنـت على يقين أنـك تزوجتها عنـادا وتحديا ورغبـة في امتلاك شيء ظل عصيا عليك، خصوصا بعد رفضها الصريح والمُحرج لك حين جاءتك ذات سهرة لتقتل فيك طاووسيتك وكبرياءك، وتبلغك برفضها الصريح: «أنا يشـرفني ويسـعدني ويزيدنـي فخرا أن أبلغك رفضي. أنت تقدمت لي وأنا بارفضك؛ لأني أنظف بكتير منك».

تذكـر أنك ضحكـت بصوت مرتفـع محاولا امتصـاص الإهانة بطريقة السياسيين حين يصدرون ردة فعل غير التي يتوقعها الجميع، السخرية من الناس جزء من التعالي عليهم، أنت لم تكن تتعالى على الناس، كنت تدوس عليهم وبأحقر حذاء لديك.

بعد هـذا الموقف سـخّرت جميـع علاقاتك لإيذاء هـذه المرأة حتـى وصلك خبر خطبتها لذلـك الطبيب الذي كانت تحبه وفضلته عليك، لم تمضِ ستة أشهر حتى كان ذلك الطبيب في السجن، وهي في غرفة نومك، وتحمل اسمك.. «حرم رياض كامل».

واجهتـك كثيرا بعـدم احترامها لك، بكرهها لـك، وأنها لم تنسَ حبيبها السـابق، كانت تصـرح لك عن نيتها في الانتقام حين تسـنح الفرصة.

ذات مسـاء وفـي إحـدى الحفـلات العامـة التـي كنـت حريصا علـى حضورها وفي ذراعك زوجتك التـي تتباهى بجمالها وأناقتها

باعتبارها جزءا مكملا «لبرستيجك» العام، في هذه الحفلة قدمتها لأبيك الروحي، مرشدك، أستاذك، كبيرك الذي علمك السحر، الذي تبناك حتى أوصلك إلى الوزارة وهو وصل إلى رئاستها.

تذكر حين رآها، انحنى كثيرا وبالغ في الانحناء وقبّل يدها، وتذكر أيضا أنه زارك أكثر من مرة في بيتك وهو الذي لا يحب زيارة الناس في بيوتهم، وأن وضعك تحسن كثيرا في ظل رضاه عنك، وأنه كان يتدخل في خلافاتك مع زوجتك وكان ينحاز إليها.

ولن تنسى أبدا أنه قبل الإطاحة بنظامكم بشهور وقف معها ضدك حين طلبت منك الطلاق، ولما رفضت رفعت عليك قضية خُلع، وربحتها بدعمه وعلاقاته.

لكنك لم تتوقع أن يصل الأمر إلى أن تتزوجه بعدك مباشرة.

«على فكرة.. أنا هاتزوجه رغم أني لا أحترمه، لكنه الشخص الوحيد في مصر اللي يقدر على مساعدتي وعلى الانتقام منك».

***

لم تقف خسارتك عند حد فقدانك لزوجتك وصدمتك في أبيك الروحي الذي أخذها منك، ولكن اتضح الفرق بين أخذ التلميذ العشوائي والهمجي، أخذُك أنت، وبين ما يفعله الأستاذ، الأخذ بهدوء، هو قالها لك ذات مرة:

- دعِ الأمور تجري وكأنها تحدث من تلقاء نفسها.

- الدوران السريع يثير شك الجميع.

- والانتشار المرضي الخبيث يقتل فرصة التحضير للمقاومة.

كنت تعرف أن خزينة خسائرك فُتحت بعد أن سُرقت مفاتيحها، وأنه لا ضامن بأنها لن تُفتح مرة أخرى، وتُسرق مرة أخرى، وتُستنزف مراتٍ ومرات.

كل الذي راح لم يؤلمك بقدر ألمك من ذلك الخطاب الذي وجدته على وسادتك، نفس مغلف الخطاب الذي كان يصلك من البنك الذي وضعت فيه ثروتك في سويسرا، عليه نفس الختم، ولكن حين فتحته كانت المفاجأة: «أنا عارفه أنت شاطر جدا لكن أنا أشطر.. أنت أخفيت أرقام حساباتك السرية.. لكنني حصلت عليها.. وأعرفك أن حساباتك كاملة تحولت باسمي. إمضاء: التي لم تكن يوما زوجتك».

بدأت تعرف أن صوم الزمن عنك طوال ثلاثين عاما مضت ليس حبا ولا تعاطفا ولا دعما لك، فأنت مُحصن طوال هذه الأعوام من أية كوارث أو أزمات، ولكن بعد هذا السيل من المصائب تُؤكد لك السنوات الماضية أنها كانت الهدنة التي تكفي لأن يتخير القدر الوقت والمكان ليهجم عليك فيترك فيك أثره، وقد حدث، في أقل

من عام تخسـر زوجتك وثروتك ومنصبك، يااااه! حقا، المكاسب المسروقة تزول سريعا!!

عليـك الآن أن تقتـرب من ذلـك المقعد الذي يشـبهك بحمرته وسـواده، بدمـه وشـره، عليـك أن تزيل شـيئا من تخوفـه منك، هو يرتابك، أو ربما يشمت فيك، يُخرج لك لسانه كما فعل مقبض باب غرفـة مكتبك، لتتركه طالما تعمقت حالة عـدم الثقة بينك وبينه، بل وبين جميع أشيائك.

لقـد تأكـد لـك خـلال فتـرة الأشـهر الثلاثـة الماضيـة أن دفتـر صداقاتـك مـا زال فارغا لم تخـط فيه ولو حرفا واحدا يمهد لاسـم قد يكون صديقا، كنت تجتهد وترهق رأسك في استعراض الأسماء التـي دخلت حياتك من رجال ونسـاء لتختار اسـما واحدا تتحدث معه، تفضفض له، تشتكي، تبكي، تنهار، تفعل أي شيء بلا خجل.

تعرف أن غرورك كان غبيا، كنت تردد كثيرا أنك لا تحتاج لأحد والنـاس جميعهم يحتاجون إليـك، حتى الذين أجبرتك الحياة على الاحتياج إليهم اسـتحضرت كامل شرك لسـحقهم، وإذلالهم، وإن صمدوا وقاوموا، كنت لا تتردد في قتلهم.

«الناس في الحياة نوعان: ذئاب وكلاب».

هـذا شـعارك الذي آمنت بـه وعملت من أجله لتكـون ذئبا، وقد كنـت في الفتـرة الماضية، ولكن عليك أن تجهز نفسـك وتحضرها

لتعيش كلبا في السنين القادمة، تعيش كلبا بلا صبر وأمانة بدون إخلاص الكلاب، تعيش ككلب ضال، كلب شوارع، تكرهه الكلابُ، وتفترسه الذئاب.

أنت لست غبيا في إدراكك لذاتك، أنت تعرف مدى وضاعتها ولكن فقط نسيت أن الجميع لايشبهونك، نقيضك موجود وبكثرة، ولكن ليس لك فيهم نصيب؛ لذا عليك أن تحسبها جيدا. أنت بين ألف مطرقة وألف سندان، الشامتون ينظرون إليك من كل حدب وصوب، والمنتقمون يتربصون بك ليتخيروا الوقت الموجع والمكان الذي يؤلمك أكثر.

فكرت في أن تعود إلى قريتك، مسقط رأسك، تفتح بيت أبيك الذي تكرهه، تنزوي في الغرفة ذات النافذتين، تنظر من شباكها الذي يطل على الحقول، وتبتعد عن الآخر المطل على زريبة المواشي، لكنك ما زلت تخاف من عيال القرية المتربصين بك، «كوراس» الأذى الذي احترف معايرتك بأمك، أنت بالنسبة لهم «ابن عزيزة» ولست وزيرا، ولست رياض كامل رمز مرحلة انقضت كاملة وانهارت بك وبرموزها.

ما زلت تخاف أيضا نظرة أهل القرية إليك، وهم الذين لم يسلموا من لسانك حين كانوا يأتون طلبا للمساعدة.

استخدمت جميع أساليبك في إذلالهم وفي الانتقام منهم، عطلت دخول الماء إليهم، ألغيت إنشاء المدارس الابتدائية أو

الإعدادية أكثر من مرة، فقط ساهمت في إنشاء أحد المصانع التي يكفي دخانها لإبادة مدينة كبيرة وليس قرية بحجم قريتك، وسوقت لهم ذلك المشروع في إطار أنه خير، فأبناؤهم سيجدون فرصة عمل، وضعت لهم السم في العسل وأنت الذي احترفت قتل وتدمير الآخرين، الآن وجدت من هو أكثر منك خبرة ودراية، وجدت من يقتلك ببرود وببطء لتعذيبك، حتى تتوسل إلى القدر وإلى الله الذي لم يأتِ في قلبك أو يخطر ببالك أو يجري على لسانك، تتوسل إليه أن يريحك، تتمنى الموت وتستجدي مَنْ يقتلك.

تنتفض محطما تلك «الفاظة» الأنيقة التي انتصبت شامخة في الركن المواجه لمكتبك.

(أعرف أنك تكره ذلك المنولوج، تكره ذلك الحوار الذي يعريك لدرجة القبح، أنت تكرهني وتكره أسلوبي، ولكن هذا ما لم يجرؤ على قوله أحد إليك، أنت عشت الحياة بمنظورك أنت، ونحن سنسردها بمنظورنا نحن، هذا هو العقل السارد غير القابل للشراء ولو بمال الدنيا، هذا هو العقل الذي سيرافق ذاتك من الآن، ينكش ويقلب في عفنها، ويذكرك بين الحين والآخر بما فعلت، ويروي بشفافية ما ستفعل، فتخير موقعك من القادم).

تحدق جيدا في كريستال الفاظة المبعثر على الأرض، ثمة فرق بينها الآن مفتتة، مبعثرة، مهشمة، وبينها حين كانت على حالها تتسربل ببهائها وسطوتها، أنت الآن مثلها تماما، بقايا الوزير رياض

كامـل، أو بقايـا ريـاض، أو بقايا بقايـا الاثنين، أو بقايـا نظام كامل، وربمـا شـرك هو الذي دفعك لتهشـم تلك الفاظة علك تجد شـبيها لك في الدنيا بعد أن عزَّ شبيهُك في السوء وأنت الأسوأ.

إذن إلى أين تتجه الآن؟

وماذا تفعل؟ وأي مكان ذلك الذي سيقبلك بعفنك وبأوزارك؟

استبعدت قريتك لتكون ملجأك الأخير، أو هي التي استبعدتك، لفظتك، طردتك من قاموس بساطتها.

أمـا شـقتك هـذه الفاخـرة فلـن تتحملـك كثيـرا، وكل أعدائك يعرفونهـا جيـدا وربما يجهـزون خطة للهجـوم عليـك للانتقام، أو سـتأتيك مباحـث الأمـوال العامـة لتنزوي فـي قفص بجـوار زبانية نظامك.

تخاف فصلا كاملا ومرعبا من الفضائح، لا تريده أن ينفتح بهذه السرعة لشيء في ذاتك!

حتـى ما كنـت تنتويه من السـفر إلى كندا تعطـل الآن بعد تصدر اسمك قائمة الممنوعين من السفر.

أنـت كالـذي زرع بتعمد جميـع الأرض التي مرَّ بها أسـوأ أنواع الشـوك السـام كرها وحقـدا على الذين سـيمرون بعـده، واهما بأن الظـروف لن تجبره على المرور بها ثانيـة، وفجأة أجبرتك الظروف

وعَدلُ الأقدار على أن تعود إلى نفس الأرض، ونفس الطريق؛ لتمر به حافيا بعد أن جردتك ذنوبك من أحذيتك الأنيقة.

تريد أن تعود إلى دروبك السابقة، وتخاف من الشوك الذي زرعته والذي طالما جرح وأدمى الكثيرين.

تركت ذاتك مهشمة مع فاظتك وغادرت إلى حائط ميدالياتك ونياشينك وصورك، ذكرياتك التي حنطتها بلقطة كاميرا، مصافحة وابتسامة وأنت تحني عنقك أمام رئيس الجمهورية لتتيح له وضع إحدى القلادات حوله، أنت خبير في الانحناء.

وصورة أخرى وأنت تصافح زعماء العالم، وحده «مانديلا» كان ينظر إليك بازدراء، أما «بوش» الابن فكان يحتويك بكلتا يديه وعيونه اتسعت أكثر وكأنه سيدخلك فيهما.

تذكر حين التقيته أثناء زيارته في شرم الشيخ، تلك الزيارة التي جاءت في ختام جولة شرق أوسطية، وحظيت باعتراض وامتعاض جميع المصريين وضيقهم لأن زيارة الساعات الأربع - كما أطلق عليها - لم تكن تليق بسمعة واسم مصر، وحدك كنت سعيدا لا تدري لماذا؟

صافحته بكل هذه الحفاوة ووحدك الذي حظي باهتمامه وحفاوته ونظراته أيضا، احترت كثيرا وقتها في فك شفرة ضغطته

علـى كفـك حين صافحـك أو غمزته لك بطرف عينـه، إذن لا تفكر كثيرا، هناك رضا كامل عنك، فمجهوداتك مع السفارة، وحميميتك مـع بعثتها، ودعواتك، وحديثك، ولغتـك، ومجهوداتك أنت ذاتك تشبههم في كل شيء.

مـررت ببقيـة الصـور المعلقـة فـي نهاية جـدار نياشـينك والتي خصصتهـا للكُتَّاب والأدباء، صورة لك مع نجيب محفوظ وأخرى مـع يوسـف شـاهين، وفـاروق البـاز، والطبيـب مجـدي يعقـوب، وآخريـن، هم نجوم مصـر الحقيقيون، جميعهم كانـوا يصافحونك وعيونهم تنظر في البعيد إلى أي شيء ليس أنت.

أنت اكتسـبت قيمتك من وجودك بجـوار الآخرين، فلما اختفوا اختفت تلك القيمة، ولما أنكرك بعضهم دمرته.

تعثـرت قدمك في حقيبة تحمل بعض ذكريات موغلة في القدم، تناولتهـا، أرحتها علـى رجليك كأنك تريح طفلا صغيرا، وشـققت بطنهـا تـاركا صـوت مـرور «السوسـتة» يتردد فـي غرفتـك كضربة كمنجة خطأ.

أخرجـت بعـض صـورك بالأبيـض والأسـود حين كنـت طفلا صغيـرا في كُتـاب القرية، تذكـرت جلبابك «الكسـتور»، بل عادت إليـك رائحتـه التـي كانـت مزيجـا من عـرق وعطـن وبقايـا رائحة

حمـارك، وصوف الخراف التي كنت ترعاهـا، وحدهما عيناك كانتا بطلتا الصورة، عينان رغم براءة الوجه إلا أنهما تحملان في بياضهما وسوادهما تحديا غريبا، ونظرة في البعيد جامحة.

قلبت مرة أخرى فاسـتوقفتك صورة لك مع أبيك، تقف بجواره وهـو ينظـر بتعمـد بعيـدا عنك، كانـت يده تقبـض بعنف علـى ياقة جلبابـك العطـن، عادت إليـك ذكريـات الصورة حيـن طلب منك المصـور أن تتحـرك بجوار أبيك، فجذبـك أبوك بعنـف غير أبوي ناحيتـة في نفس لحظة التقاطها، وكأن هذه الصورة أرادت أن تخلد تلك العلاقة المتوترة مع أبيك.

لأول مرة بعد كل هذه السـنين تتأمـل وجه أبيك، خطوط جبينه، حواجبه المبعثرة، وأنفه المدبب، وكأنك تحدق في أنفك أنت الآن، هذا الذي أخذته من أبيك، أنف وانكسار وحقد، تذكرت جيدا أنك لم تزره في قبره ولو مرة واحدة منذ أن شـيعته في جنازة مهيبة، لولا «بريسـتيجك» وحرصك على وضعـك الاجتماعي لتركته أمام أحد المساجد ليتولى المحسنون تكفينه ودفنه.

الآن تأتيك تلك الفكرة.. «فلتُعاقَب بوجودك جواره كما عُوقب بغيابك عنه».

***

عبر شـطحة عابرة تأتيك تلك الصورة التي رسـمها «تولستوي» في إحدى قصصه عن شـخص معلق بغصن يتدلى إلى داخل حفرة عميقـة لينجو من وحش مفترس فـي الأعلى فيفاجأ بوحش آخر في الأسـفل بينما يقـرض الغصن فـأران، وبينما هو معلـق هكذا ينتظر المـوت، يلاحظ بعـض قطرات العسـل علـى أوراق الغصن، فيمد لسانه إليها مستمتعا بحلاوتها».

هـي محـض روايـات وحكايات ومواعـظ دينية صـدق بها من صدق واعترض وكذب من كذب.

هـو الموت والفئران رسـله، تلك الأمراض التـي تعجل انقطاع الغصن الذي يتعلق فيه الإنسان فيسقط إلى الوحش الذي ينتظره في الأسفل لتكون نهايته نحو الموت الطبيعي.

تتخيل ذلك الشـخص الذي امتلأ شجاعة، تسلق الغصن وخرج ليواجـه الوحش المتربص في أعلـى الحفرة ليقتل الانتظار وليعجل النهاية التي فُطرنا عليها، مصيرك في النهاية إلى أحد الوحشـين، إما الذي في الأعلى أو الذي في الأسفل.

الآن تقـرر الانتظـار، توافق علـى التعلق بالغصـن دونما إزعاج للفئـران التي تقرضه بغير فرح واسـتمتاع بما يسـيل من عسـل على أوراقـه، ودون انسـياق للكذبة الكبـرى «متعة الحيـاة» بالعكس بل

رحت تمسح ما تبقى من طعمها على شفتيك، تتخلص من مذاقها الذي غرقت فيه لفترة طويلة، متناسيا الوحشين ومقاوما الفئران.

لكنك دائما بعيد عن نقطة الوسط، إما في النقطة الأخيرة، نقطة الدفاع، وإما في المركز الأمامي المخصص للهجوم.

هذه بقايا فلسفتك للحياة، مباراة كرة قدم ولكن بلا ملامح، فقط هناك كرة وملعب وغياب حكم وغياب حدود واضحة لفريقين، إنها مباراة الكل يلعب ضد الكل، الكل يحدد مقاييس هزيمته وانتصاره، هذه الدنيا التي عشتها، هزيمتك تعني انتصار الآخرين والعكس، مع التجربة، صحيح.

***

تحاول أن تسير في عكس اتجاه الماضي الذي كان كله نظامك الخاص، نظامك الذي سوقته ليكون الجميع عبيدا لك وبرضاهم.

الآن تتخلى عن سطوتك، عنك، عن كل شيء إلا تلك الذات المتفتتة، ربما تعيد إحياء بقاياها الميتة، تعيد بعثها.

ولكن كيف وأنت تعرف أن «البعث ينفع فقط مع أولئك الذين لم تمت أرواحهم بعد، حتى لو فنيت الأجساد».

أنت تستطيع أن تثبت وتدلل على أن الأجساد لم تفنَ بعد، لكنك تعجز تماما عن إثبات أن روحك / ذاتك ما زالت حية ولم تمت بعد..

لتكـن وجهتك «الحوشـة» التي تحتضـن قبر أبيـك، ليكن القبر بديل هذه الشقة الفاخرة.

إذن فلتتخير مـن أشـيائك مـا يلائم وجهتـك القادمـة، فقط هذه الحقيبـة بمـا فيهـا من ضروريـات، أدوية السـكر والضغـط وبعض الأوراق / الأسـرار التـي لفـرط خوفـك منهـا سـجنتها فـي أقـرب حقائبـك حتى لا تفـوح روائحها النتنة، هاتفـك المحمول والكتب التي اخترتها.

لا تدري لماذا أخذت من أرفف مكتبتك فقط هذه الكتب، ديوان الحـلاج وكتـاب النفري وابن عربـي ومولانا جـلال الدين الرومي والقرآن، وكأن بقايا ذاتك تخطط لوجهة ما.

لست منخطفا إلى الله!!

لسـت زاهدا في الدنيا كالمتصوف وإنما أنت مجبر على الزهد، زاهـد في الدنيا بدرجة مطرود مع سـبق الضعف، ضعف يجيء من معرفتـك لذنوبك وجرائمك، لا بديل أمام أصحاب الماضي العفن إلا أن يصمتوا لتجنب مزيد من الفضائح.

تهجم عليك إحدى مقولات الفيلسـوف الكبير « نيتشـه»: إرادة الإنسـان وهـم كبير، إنـه كلوحة مفاتيح البيانو خُلقـتْ ليعزف عليها الآخرون لحنَهم الخاص».

أنـت الآن لوحة مفاتيح بيانو، لكنك لا تـدري عن اللحن القادم شيئا؛ لأن الذي يعزفه مجهول.

بجوار أبيك سـيكون عقابك الذي اخترته بمحض إرادتك، كما عوقـب هو بغيابـك عنه بوهم إرادتك وأنت الـذي لـم تزره حتى في لحظاته الأخيرة، كنت مشغولا بتأسيس مملكة الندم التي تتربع على عرشها الآن.

***

لحيتك البيضاء الطويلة، شـعر رأسـك الذي اشتعل شيبا إلا من بقايـا لـون اعتـدت على صبغـه، قامتك التـي انحنت كلهـا، ملامح وفرت عليك عناء اختيار مظهرك الجديد.

اختـرت قميصـا باهتا ليكون قـادرا على مقاومة الوسـخ، تركته خارج البنطال الأسود وارتديت نظارة سميكة ولففت عنقك بكوفية، لـم تدقق في لونها حتـى لا تُعيدك إلى ذكرياتٍ تهرب منها، حملت حقيبتـك، أغلقت أبـواب غرف الشـقة واحدا واحـدا وكأنك تُغلق أفواه وحوش تأتيك من زمن بعيد توغل في كرهك وافتراسك.

غـادرت إلى باب الخروج متراجعـا بظهرك لتترك لعينيك فرصة المتابعة الأخيرة، فتحت الباب، خرجت ورحت تغلقه ببطء تدريجي كأنك تمهد لنزول كلمة النهاية كما في الأفلام العربية القديمة.

كل شـيء لم يكن كما تعودته، الشـارع كنهر جف، والسـيارات والناس كأسماك ميتة، كل شيء كان مهيأ لكارثة كبيرة، هكذا كانت رؤيتك.

بجوار أول سائق تاكسي جلست.

- مقابر الغفير يا أسطى.

جلدك السائق بنظرته وتعليقاته حين سمع منك ذلك:

- صباح النكد، مقابر على طول.. طيب نبدأ بمستشفى الأول.

برغـم كل هـذا الضجيـج الـذي ينضح مـن شـوارع القاهرة إلا أنـك كنت غارقا في صمت مُذل، لم تكن تسـمع إلا ذلك الصوت، صوتك الآتي من أعماقك، يدغدغ ما بقي فيك.

إنهـا المـرة الأولـى التـي تمـر فـي هـذا الشـارع بـدون موكب التشـريفات وبلا حراس، المرة الأولى التي تكون في قلب الشـارع وسط الناس، أنت على الرصيف الآن، على الهامش.

لسـت الوزير رياض كامل، وليسـت هذه الصـور التي احتفظت بنظرتك المتعالية أو ابتسـامة لفقتهـا لتبدو متواضعة فجاءت صفراء خبيثة.

تلك الصـور التي احتلّت واجهة بناية أو الأخرى التي تدلت من رأس عمود للكهرباء كأنها مشـنوقة، صورتـك منفردة تذكرك ببقايا حملاتك الانتخابية وأخرى جماعية تؤرخ لوجودك وسط الوزارة.

كانت جميع هـذه الصور باهتة تآكلت أطرافها، شـاخت، بدأت تضيع ملامحها، تتشوه أو ربما تنحاز للحقيقة التي تعريك.

صعبة هي المواقف التي يُجبر فيها المطرود على المرور وسـط ما كانت ممالكه السابقة!

لـم تكن تدري هل كنت تغادر حي الزمالـك وتخرج منه أم كان هو الذي يغادرك ويخرج منك؟

كانت الأبنية الأنيقة، والفتارين، والأشجار، والباعة، وكل شيء، كل شيء يمر من أمامك يُخرج لك لسانه في شماتة ويختفي.

تقطع أي حوار يحاول سـائق التاكسـي أن يفتحه معك، لم تكن جاهزا لشيء وأنت تتابع، وعلى الهواء مباشرة، جنازتك.

ابتسـمت بمرارة حين مرَّ التاكسي من الأزهر ثم دخل إلى شارع صلاح سـالم، وأنت الذي توقعت يوما أن مصر سـتخلد اسمك في شارع كما خلّدت كثيرين، بل ما زلت تذكر أنك يوما أمرت سائقك بأن يمر بك في معظم الشـوارع لتتخير شارعا يشبهك، يكون جديرا بأن يحمل اسمك كما كنت تتوهم.

لسـت إذن صلاح سالم، أو عبد المنعم رياض، أو طلعت حرب أو مكـرم عبيـد، أنـت أسـأت فهمـك لمصـر حيـن قال لـك كبيرك ومعلمـك إنها تخلـد جلاديها أكثـر مما تخلد مخلصيهـا ومحبيها،

فاختـرت أن تكـون جـلادا وهـي اختـارت ألا تُخلدك بـل تطردك، ترميك خارج ذاكرتها، حتى لو اعترضت على أنها ما زالت تحتفظ بجلاديـن ومجرمين ولصوص، ولكـن تجربتها معك تثبت لك أنها فقط تتخير اللحظة المناسبة لترمي بهم إلى أسفل حضيض الأرض، هي لا تبقيهم حبا بل كرها، وهي التي خُلقت ليمتطيها الأراذل.

توقفت فجأة حين أحسست برأسك يريد أن يغادرك، أن ينفجر، أخرجـت بسـرعة الاعتياد علبـة دوائك، وضعت كبسـولة في فمك لتقلـل مـن وتيرة الضغط، حيـن عاد دوران دمك إلـى طبيعته جاءك هذا السؤال:

- ماذا لو لم تأخذ تلك البرشامة في موعدها؟

مـاذا لو تركـت عجلة دوران دمك تعلو وترتفع كيفما تشـاء؟ قد يكـون ذلـك مخرجا طبيعيـا من وضعيتك هـذه وأنـت الواقف بين عالمين متناقضين!!

راقت لـك الفكرة، أخرجت من جيبك علبة دواء الضغط ومعها دواء السـكر وألقيت بهما من النافذة، وقفت أمام فئران «تولستوي» رمز المرض، وقفت لا لتقاومهم بل لتسـلم نفسـك إليهم، ترجوهم أن ينخروك، يفتتوك بسرعة، ويسلموك إلى رسل الموت.

أنت تتوصل بالتدريج لحلول لا تدري كيف تتحقق:

- اتفضل، وصلنا، آدي مقابر الغفير.

أخرجك سائق التاكسي من نميمتك على ذاتك، نظرت إلى ما ظهر من المكان، اتساع متشابه تشذ منه قبة لمقام أو مئذنة لمسجد، والباقي يتشابه ويتساوى، هكذا المقابر، حوشات تحوي داخلها قبورا، علبٌ متجاورة، مطلية بصفرة الموت.

أعطيت السائق ما طلب، حملت حقيبتك، دفعت نفسك باتجاه المدخل الذي سرت فيه ذات يوم محفوفا بالدنيا كلها حين جاء الجميع يؤازرونك في جنازة أبيك، فرق كبير بين ذلك المكان حين جئته وأنت في كامل عزك وبينه وأنت فيه الآن.

ثمة رائحة عطنة تأتيك من كل اتجاه، وأنت مبتلى برائحتك، غير قادر على التمييز بين الرائحتين، في البعيد بدأت تتضح لك الحركة، كشك صغير يحيطه الناس من جميع جهاته، تأتيك رائحة «الطعمية» والفول حين تقترب، على الجانب الآخر مقهى صغير، ابتسمت حين قرأت لافتته:

«قهوة متصبرنيش».

قلة من الرجال يجلسون على هذا المقهى، برغم حركة المكان إلا أنك كنت ترى كل الأشياء ميتة، مُحنطة، ضاعت منك حاسة الحكم على الأشياء، فقدت قدرتك على التمييز، أيهما الأحياء وأيهما الأموات؟

مَنْ ينتمي إلى مَنْ؟

الجالسون على المقهى والذين تزاحموا على كشك الفول والطعمية هم أحياء بالسلوك، بالتصرف، أم أموات بالمكان؟

لا تجهد نفسك في الحكم الآن لأنك داخل إلى ذلك العالم. الساكنون هنا نصف أحياء ونصف أموات، أخذوا من الأحياء جزءا ومن الأموات جزءا، إذن هم حسب قول الفلاسفة مجانين لأنهم لم يحسموا أمرهم بين عالمين متناقضين، وأي تناقض يمكن أن يتمثل في شيء أوضح من الحياة والموت؟!

ولكن نسي الفلاسفه والمثقفون أن يتحدثوا عن خيارات الحسم والإجبار، نسوا أن يشيروا إلى المجبورين على أن يكونوا هكذا بين الحياة والموت، لقد فشلوا في صناعة مقولة تختزل الحالة كما يقول المصريون في بساطتهم:

«إيه اللي رماك على المر... اللي أمر منه».

المثقفون والفلاسفة طيور تحلق في الفضاء مع أنهم يجب أن يكونوا زواحف تلمس الأرض بكامل جسدها، هكذا يرى «زوربا»، ويرى أيضا أن كلام البسطاء تفوح منه رائحة الطين والأرض وكلام المثقفين تفوح منه رائحة الورق. نعم. أيهم أصدق إذن؟

هنا لا مجال لقراءاتك ولا لفلسفات الآخرين، هنا واقع يُؤسَّس عليه، يُقاس عليه.

مـع اقترابـك كان يأتيك صياح الأطفال مهاجمًـا، لم تكترث في البدايـة ولكن حين تأكدت أنهـم يأتون نحوك، توقفت فجأة وعادت إليـك الصورة القديمة التي لم تفارقـك لحظة، صورة أطفال وعيال قريتـك الذيـن لحنـوا أغانـي معايرتك بأمـك، كنت تراهـم كل مرة وحوشـة تفتح فمها تريـد أن تلتهمك، تنهشـك بأنيابها، وهذه المرة هـم كذلـك، أدرت لهـم ظهـرك ورحت تسـتجير، تسـتغيث، حين أحاطـوا بك كانت أنفاسـك تتلاحق، وأمك تقف في البعيد تبتسـم في بلاهة وهي شبه عارية.

لـم ترفـع رأسـك إلا بعـد أن خـف الضجيـج وهدهدتـك تلك الفتاة:

- حد يخاف من العيال بالشكل دا! دول عاوزين الرحمة.

أردت أن تجيبها بأنك تريد تلك الرحمة أيضا، وأن فاقد الشـيء لايعطيه، الـذي يريده الأطفال واعتادوا عليه من الزوار الذين يأتون إلـى المـكان محملين بما يجـود به الأحيـاء على الأموات أو شـبه الأمـوات، فاكهة، كعك، ورد، حلويات، أشـياء لا يصل إلى الميت شيء منها، الذي يريدونه ليس هو محرك الخوف لديك.

غـادرت مـع تلك الفتـاة إلى الكشـك، جلسـت، أعطتك بعض الماء، وراحت بحنوٍّ تسـألك...؟ لم تُجـب، بل طلبت منها فورا أن تدلَّك على ما ترجوه:

- تعرفي حوشة كامل حسونة؟

تركتها شاردة تستجمع ذاكرتها وانشغلت بوجه أبيك الذي حضر أمامك بكل غموضه وعتبه وغضبه وانتظاره وشحوبه.

- كامل حسونة، حوشة عيلة حسونة؟ طبعا أعرفها، أنا سأوصلك.

سارت أمامك إلى شارع منحدر ضيق يتشابه فيه كل شيء إلا أنت، لم تكن تشبههم، كنت غريبا بين عالمين كل عالم يطردك ناحية الآخر، عالم الأحياء يطردك ناحية الأموات وعالم الأموات الذي أنت فيه الآن كان متوجسا منك يتماهى مع ضميرك وروحك الميتين، وينزوي بعيدا عن ماديتك، جسدك.

أمام أكثر الحوشات شحوبا وتهالكا وقفت بعد أن أشارت لك الفتاة بابتسامة:

- دي حوشة كامل حسونة، ودي حوشتنا، إحنا جيران أنا اسمي «حياة».

صدمتك دلالة الاسم «حياة» مع واقع المكان «الموت»، أنت مرهون بالمتناقضات، الآن حياة في قلب الموت وأمس اتضح لك أنه كان موتا في صورة حياة، وفي الحالتين أنت عاجز عن التمييز بين الموت وبين الحياة، بين ما مات فيك وبين ما بقي حيا.

وقفـت تتأمل ذلك البـاب الذي غطى التـرابُ منتصفه فظهر من قريب كجزع شـجرة ميتة، تأملت مـكان المفتاح الذي أخفاه الصدأ فبدا كجرح اقترب على الالتئام.

حاولت بكل قوة فتح الباب لكنه كان ممانعا متشبثا بموته، كنت تدفـع فتأتيك ذكريات أبيك بنفس قوة رغبتك في الفتح، أبوك الذي أدخلتـه جثـة إلى هـذا المكان وغادرت دون أن تشـارك المشـيعين طقوس الوداع.

ما زال الباب يعاندك ككل الأشـياء التي تسير عكسك، تستجمع صدماتـك وانكسـاراتك وندمـك وذنوبـك وتدفع البـاب فيتحطم سامحا لك بالدخول...

تتوقـف فجأة أمـام كف يـد أبيك شـاهرة أصابعهـا الخمس في وجهك كالخناجر.

تَشـاكل عليـك الأمرُ، فتحت عينيك بكامل اتسـاعهما لتكشـف أكبـر قدر من الصـورة، كان وجه أبيك عابسـا كما كان في شـحوبه الأخير: «ارجع، لا أريدك هنا».

تراجعـت خطوات قليلـة، ألقيـت حقيبتك، أزحـت عينيك إلى زاوية أخرى، اقتحمتك رائحةُ عطن وعفن ورطوبة تكفي لإدخالك في غيبوبة، أغلقت أنفك وتركت صدرك يسـتريح، وتحركت عيناك فـي كل الاتجاهات، القبر يتوسـط المكان، غطاء أسـمنتي يسـد فم

الأرض ويتمدد باستطالة غامضة، مخيفة، و بقايا شجرة صبّار ميتة لم تجد يدا تواري سوأتها أو قبرا يستر جثتها.

الاسم المنقوش على اللافتة تآكلت حروفه فمُحيت الكاف وبقيت آثارها متصلة بالألف والميم واللام، أما «حسونة» فضاعت أسنان السين وذيل الواو والنون، كل شيء هنا بقايا لشيء، القبر والاسم بقايا لأبيك وأوراق الصبار الناشفة بقايا لما كان شجرة، وأنت أيضا بقايا لما كنته.

أرضية الحوشة فُرشت ببقايا أوراق الجرائد التي أكسبها العطنُ والرطوبة صفرةَ الموت، لفتت نظرك بقايا صورتك على صدر صحيفة «الأهرام»، ابتسمت لشيء في داخلك، لتلك الريح الحنون التي ساقت صورتك إلى قبر أبيك ربما أرادت أن تُسعد تلك الروح وقلبَ الأب حين يشاهد ابنه مشهورا يتصدر صفحات الجرائد.

الريح تصنع زيارة مجازية لأبيك بعد أن منعك بخلُك وجحودك من أن تقوم بها في الحقيقة.

أنت الآن بجواره وسط كل هذه البقايا والقمامة، بجوار أبيك، بجوار قبر يتوجس منك خيفة ويشك فيك.

أخرجتك من هذا الغرق طرقاتٌ على بقايا باب الحوشة، دخلت إليك «حياة» ومعها رجل جف عوده وانحنى طوله وغطاه شحوب

مخيـف، فـي فمـه سـيجارة منفوخة تنشـر دخانهـا المعبـق برائحة الحشيش فيُزيل ببطء بعضا من عطن ورطوبة المكان.

كل الذين التقيتهم، وخصوصا الأطفال، لهم نفس الطلة الشاحبة والعيـون الباهتة القلقة، خصوصا الذين أعـادوك إلى أطفال قريتك الشامتين والمعايرين.

- معلـش يا أسـتاذ لو تسـمح لنـا نعلق بعـض لمب النـور على حوشـتك لأن أخويا حسـن طالع النهـارده من السـجن وعاملين له حفلة، لو بقيت يا ريت تشرفني.

هي المرة الثانية التي تقف أمامك هذه الفتاة، ترمقك بنظرة قابلة للتأويـل، وحدهـا حياة كانت بعيدة عن طلة الشـحوب التي كسـت وجـوه الجميع، وحدها عيناها لم يغزهمـا اللون الباهت ولا النظرةُ المنتظـرةُ لفاجعـة محققة، كانت حياة في منظـورك فتاة لا تزيد بأي حـال على السـابعة والعشـرين، وتزيد في كل الأحـوال على جميع مقاييس الفتنة والجمال.

غـادرت وتركت لـك الرجلَ الشـاحب ودخان سـيجارته الذي لَطَّفَ المكان، قدم لك نفسه بلكنة صعيدية:

- درديري.

على بابك راح يعلق ذلك السلك الذي تدلت منه مصابيح كهربائية ملونة، وراح أيضا يمطرك بأسئلته، إذا كنت جئت فقط للزيارة أم أنك ستقيم هنا؟عن عمرك؟ وسر حزنك؟

ولما يئس من صمتك راح يجيب عن أسئلة مفترضة لم تسألها له، عن أمنية يعيش من أجلها، عن تلك العائلة، عائلة الرحايمة التي يتمنى أن يلتقي أحد أفرادها خارج بلدته ليستريح من انتظار الموت.

برغم أن فضولك تزايد حتى وصل حد حنجرتك إلا أنك رفضت أن تسأل، كنت تريد أن تقول له كيف مل انتظار الموت وأنت الداخلُ إلى تلك المرحلة التي شعارها الوحيد: انتظار الموت أو التعجيل به؟

صدمك حين ألقى ببقايا سيجارته المحشوة وكتم دخانها في صدره وأنت تتابع عينيه وكأنهما تريدان أن تغادراه وقال:

- قضيت نصف عمري أهرب من الموت.. ونصف عمري الباقي أبحث عنه.

قالها بلكنته الصعيدية وغادر مؤكدا أنه سيعود ليأخذك إلى تلك الحفلة التي سينظمونها بمناسبة عودة «حسن أبو علي» شقيق حياة، وأنه سيعرّفك على شلة الأنس حسب تعبيره: «الشيخ زوزو، وعلي منولوج، وحودة فنجان، ووحيد، وشطة، وكوكو».

رغم غرابة الأسماء ووضوح الدعوة إلا أنك آليت الصمت، أنت لا تريد الانجرار إلى علاقات تعوق خطتك في التعجيل بالموت، تريد أن تبتر تلك العلاقة بأشخاص فضوليين، لا تريد أسئلة لأنك لا تملك إجابات.

المصابيح التي تدلت على وجه الباب أعطته بعضا من بريق مفقود، بدت كعِقد والباب كعنق جافة ميتة، البابُ مات مرتين، مرة حين جيء به إلى هنا ليكون مدخلا إلى مقبرة، والمرة الثانية حين حطمته، قتلته لتدخل عنوة إلى أبيك الرافض أصلا لمجيئك، أبوك الذي لم تكن تذكره كثيرا أيام عزك وسلطانك والآن يسكنك، يأتيك بذكرياته المؤلمة يدغدغ بقاياك ويغادرك ليعود مرة أخرى، هو لا يكف عن إيلامك كما لم تكن تكف عن إنكاره.

تذكر حين توسل إليك وكاد يقبل يديك لتتركه يموت في بيته بالقرية ورغم ذلك أمرت حراسك بأن يحملوه إلى سيارتك الفارهه ثم إلى أفخم مستشفى لا لتعالجه وإنما ليموت بطريقة تلائم «بريستيجك» العام.

كل سهم يأتيك من الوراء، من الماضي يؤلمك، وكل شيء تراه أمامك في المستقبل يقتلك، يفجرك على وقع عبوة ناسفة.

تسند ظهرك على الحائط، تنزع بملل أوراق الصبارة الميتة، تسحب نفسا محملا ببقايا دخان درديري، وعطن المكان، وتغمض

عينيك بهدوء فترسل ذاكرتُك جميع أشكال وأوصاف العفاريت والجان والمردة التي خزنتها عبر حواديتك منذ الطفولة حتى «ألف ليلة وليلة»، تغمض عينيك وتخاف.

***

- لماذا لـ «درديري» ذلك التأثير الكبير عليك؟

هكذا كنت تسأل نفسك مرارا، فرغم رفضك لدعوة «حياة» حين جاءتك تمشي على استحياء وتطلب منك الخروج معها لحضور فرحة أخيها «حسن»، تذكر أنك لنت وكدت توافق حين سمحت لعينيك المتعبتين بالتعلق على حواف رموشها، سرحت في ذلك الغموض الجاذب لفتاة تحمل هذا الحنو الجميل لكنك استفقت، غيرت اتجاه الرؤية ورفضت بحدة غير مؤدبة.

لكن جاءك «درديري» بهمجيته «الزوربوية».. هكذا رأيته يشبه «زوربا» في حكمته وهمجيته، حين جاء يدعوك، وافقت، خرجت خلفه إلى الساحة التي ازدحمت بالمنتظرين وعلى الجانبين رجال يرتدون جلابيب صعيدية متشابهة ويجربون ما في أيديهم من مزمار وطبل بلدي، الكل كان متحفزا ومنتظرا لحظة الصفر.

بدأت تنخرط رويدا رويدا وبحذر مع ذلك المشهد، عرفت من درديري بعد أسئلتك المترددة أن الكل ينتظر لحظة وصول حسن ليتحرك الموكب تجاه الحوشة، وبعدها ستكون هناك سهرة

«صباحي»، قالها بلهجته الممطوطة وكأنها تشي بأشياء وحده يعلمها.

تذكر أنك حين رأيت حياة أدرت وجهك عنها خجلا وأنت الذي رفضت دعوتها بلا أدب، لكنك استغربت حين أقبلت نحوك باشة ترحب بك، كانت منذ لحظتها الأولى مصدر طاقة إيجابية معك.

وسط هذا الضجيج عاد إليك درديري ليقدم لك علي منولوج بهيئته الغريبة وملابسه ذات الألوان المتخاصمة، كان يحدثك بلغة فصحى حطّم نحوَها وصرفَها، اندهشت حين قال لك إنه مؤلف وله العديد من الكتب.

أوقف درديري اندهاشك حين قرب إليك يد الشيخ «زوزو» بجبته وقفطانه الأزهريين، لحظتها فقط عرفت أنه كفيف، كان عكس «علي» تماما، يتحدث بفصحى سليمة، لكنها خليط غريب يجمع فخامة الشكل وتفاهة الموضوع، كان ساخرا لديه قدرة فائقة على استخراج الضحكة أو سرقتها. حمدت لهم وقتها أنهم لم يسألوك عن اسمك بل استعاضوا عنه «بجارنا الجديد» فقد أخبرت درديري بأنك جئت لتبقى ولست زائرا عجولا، لم تسرف في الإجابة لكنه فهم أنك باقٍ، وعدك بالمساعدة وبأنه سيذهب إلى «العتبة» ليشتري لك ما تحتاجه حوشتك لتحيا وتصبح مقبرة في منزلة بيت!!

انتفض المشهد وراح الجميع يهرول صوب رأس الشارع معلنين وصول «حسن أبو علي» هكذا كان الجميع ينادونه، انتفخت أوداج عازفي المزمار وعلا الطبل البلدي، تفتق المشهد عن راقصة ما كنت تدري من أين جاءت؟ أو أين كانت تختبئ؟وأي قبر كريم لفظها لتقاوم الموت بأنوثتها، كانت ترتدي بدلة رقص كاملة، استوقفك جمالُها الذي لا يتلاءم وطبيعة المكان، ولفتتك أيضا همساتها المفعمة بفرحة لا تنم عن أنها ترقص فقط من أجل المال، بل كانت ابتسامتها وتصفيقها وغناؤها يؤكدون أنها من أقارب «حسن». جميع الحضور كانت ملامحهم تشي بأنهم جميعا أهل «حسن» و«حياة».

انسحبت بهدوء، وانتحيت مكانا يُطلعك على كامل المشهد، ثمة شيء خطأ تشعره لكنك غير قادر على تحديده، مبالغة هؤلاء المحتفلين في فرحهم، قباب المقامات التي ظهرت من بعيد، ورؤوس القبور التي تطل من أبواب الحوشات تتعارض بل تصطدم مع فرحة هؤلاء وأنت بين هذين العالمين المتناقضين خميرة لكل تنقاضات وتشابكات وتعقيدات النفس والكون والحياة.

سمح لك اقتراب الموكب برؤية «حسن» المُحتَفى به ممسكا بالشيخ «زوزو» وبجواره أخته «حياة»، كان ممشوقا بشعر قصير ووجه أسمر وعيون ثابتة سوداء، يبعثر على الجميع ابتساماته وأحيانا قبلاته.

ابتعدت أكثر لتحافظ على تلك المسافة التي تجعل كامل المشهد في مرمى ناظريك، كل شيء ليس في مكانه، الرقص، الغناء، المزمار الفرح، كل شيء كان غريبا، اقتربت حين توقف الموكب والغناء وسرى توتر بين الجميع، اقتربت أكثر ثم وقفت أمام ما رأيت، كان موكب الفرح بالشارع الذي يحتويه يتقاطع مع جنازة مهيبة، عند رأس الشارعين المتقاطعين وقف الموكبان المتعارضان، مشيعو الجنازة وأهل الفرح، كلٌّ يستغرب الآخر، وكلٌّ ينكر الآخر، بعد صمت علا السباب من مشيعي الجنازة:

- غُنا ورقص وزفة في المقابر، دي قلة أدب.. مفيش احترام لمشاعر الناس.

تناثرت بعض الحروف التي عرفت من حدتها أنها سباب وبعد إصرار وتعنت الطرفين سار الموكبان فتقاطعا وتشاكلا فلا الزفة فرح ولا الجنازة موت، ابتعدت أكثر ليتسنى لك قراءة هذا المشهد «الصدفوي» الذي اختزل لك الحياة كلها وصيرورة الدنيا، جنازة/ موت تتعامد وتتقاطع وتبتر موكب فرح/ حياة، وموكب فرح/ حياة يقطع جنازة/ موت، ولكن كلا الموكبين يسيران، هكذا الدنيا!!

انتهت الزفة وانتهى الموكب أمام حوشة «حسن» و«حياة» التي جاورت بالتصاق حوشتك، وأمام إصرار الجميع لم تستطع المغادرة، أجلسك «درديري» بينه وبين «حسن» وغير بعيد عن

الشـيخ «زوزو»، رحت تتابع ما يـدور وكأنك في عالم آخر، كوكب جديـد أو غريـب، كل شـيء كان مسـخا، محـض خيـالات تتحرك بلا أية ملامح، الناس دُمى، والمكان سراب وأشباح.

غلفـك صمت قاتل لم تكن تسـمع أي شـيء ولا حتى نفسـك، وقتها أدركت معنى أن تكون هناك حركة بلا صوت!

شيء غارق في الجنون، مسرحية هزلية.

انسحبت بحذر ناحية حوشـتك، تحركت بين المحتفلين بخيفة وتوجس وكأنك تتحرك بين وحوش توشك على التهامك. لو أقسم لك أحد وقت عزك على أنك ستكون في يوم جزءًا من هذا المشهد لرميته بالجنون.

إلـى حوشـتك انزويت بالقـرب من البـاب الذي زُين بمسـبحة النـور، جمعـت بعضا مـن بقايـا أوراق الصحـف، فردتهـا بالقرب مـن الجدار القريب مـن الباب وفي آخر حدود بقعة نوره جلسـت، سـندت ظهرك بتعـب، تركت رأسـك يرتكن على الجـدار وعينيك تمسحان ببطء المكان من السقف الذي بدا كثوب بالٍ إلى الجدران التي تورمت من الرطوبة، وصلت عيناك إلى رأس أبيك الذي صعد بتدريـج مخيف من القبر واسـتدار نحوك في جمـود، كانت العينان مغلقتيـن في البداية ثم فُتحتا بحذر متدرج في الرعب، كانتا باهتتين كعيون أطفال المكان، ضاقتا واتسعتا بحقد وضيق وكأنهما تسألان عن سبب مجيئك:

- أنا هنا لأموت ببطء.

هكذا بادرت العينان بالإجابة، تذكر أنك حكيت لعيني أبيك حكايتك منذ موته وحتى وصولك إلى هنا، كنت تروي بتأثر كمن يحكي فيلما سينمائيا طويلا لشخص لم يره، كنت تسرد وكأنك تريد أن تقنعه بأن يقبلك في قبره وأنت الذي أنكرته في حياته، تساقطت دموعك دونما إحساس بالبكاء، طيلة أزمتك الماضية كنت تبكي الماضي، الليلة فقط تبكي مستقبلا وآلاما تنتظرك وأنت الداخل إلى مكان لم تكن تتخيل ولا في الأحلام أو الكوابيس أن تعيش فيه، وقتها أدركت أنه ما زال في داخلك شيء عكس الموت الذي ترتجيه، شيء من التعلق بما تكرهه، التعلق بالحياة؛ لذا أعدت طرح السؤال على نفسك: «هل من المهم لطالبي الموت المكان الذي سيموتون فيه أو الطريقة التي يموتون بها لو كانوا حقا طالبي موت؟»

لم يترك لك «درديري» فرصة انتظار ما ستفيض به ذاتك المشتتة تعقيبا وإجابة على هذا السؤال، جاءك بصينية تفوح منها روائح يؤكد هو أنها «ساندويتشات لحمة»، كنت ترى احتفاءً مبالغا فيه حين يتحدث عن «اللحمة»، تذكرت تعليقات عادل إمام ونظرت إلى ما يقول عنه، واعتذرت:

- حياة هي اللي أصرت أجيبلك عشاك.

قالها بضيق منك، وضع الصينية على قبر أبيك، نظر إليك ثم إلى المكان:

- تعال نسهر عند الشيخ زوزو وبعدين تبات عندي حتى نشتري لك غدا ما يلزمك..

لـم يترك «درديـري» فرصة لأن ترفض، أخذك مـن يدك وغادر، وأخذ معه ما جاء به من طعام.

***

فـرق كبيـر بين تلـك الأزقـة والطرقات التي تتسـربل فـي ترابها وقمامتهـا الآن وبينهـا وهي تعـج بزحـام المحتفلين والمسـتقبلين «لحسـن»، صمـت مخيـف، قشـعريرة تسـري فـي جسـدك فترفـع نبضـات قلبك إلى السـماء دون أن تعرف السـبب، القبـور التي في المتسع خرجت لها رؤوس، تطل في ريبة ثم تختفي.

تسـير بجوار «درديـري» متبرمـا، متلفتا، كل الجهـات أحاطتك بأفواه توشك أن تفترسك، كل ما كان يخيفك أحاط بك.. العفاريت، الجن، الشـياطين، المردة، لم تكنْ تسمع كل ما يقوله درديري برغم البريق الجاذب لما يقوله:

- هنـا فيه مظاليم وظالميـن، قتلة ومقتولين. هنا إمـا هربانين أو مطرودين.

كانت تصلك الجمل وسط توترك وتبرمك متقطعة ورغم ذلك توقظك بعمقها وتركيزها، لَكنةٌ صعيدية تفيض بكل هذا العمق، كان يفضفض كثيرا وكانت تساؤلاتك مبررا ليبوح أكثر.

أثبت لك ما قاله بأن هذا المكان يحوي قتلة ومقتولين حين راح يقص حكايته وهو ينفخ في الفضاء الملبد بالأشباح والعفاريت دخان سيجارته المحشوة عن آخرها بالحشيش:

(جئت إلى هنا منذ أكثر من ثلاثين عاما، هاربا من الموت لأختبئ في حضن الموت هنا في المقابر، يقولون إن الموت لا يراك لو كنت قريبا جدا منه. هربت إلى هنا بعد أن قتلت همام ولد الرحايمة بقسوة ما زلت لا أدري من أين جاءتني، ما زالت عيناه المتوسلتان تطاردانـي فـي نومي ويقظتـي: «بلاش تقتلني علشان خاطر ابني، يا دوب عمره خمس شهور، خليني أفرح بيه» رفضت أن أتركه يعيش أو يفرح، قتلته وهربت إلى هنا، وبعد أن أوشك العمر على النفاد، استيقظ الضمير النائم وأمسك كرباجه وراح يجلدني كل لحظة ودقيقة، فقررت الهروب من حضن الموت؛ لأقف في مكان يستطيع أن يراني الموت بوضوح، ومنذ أكثر من عشرة أعوام وأنا أبحث عن أي شخص من عائلة الرحايمة ليريحني من كرباج ضميري؛ ليطهرني، ويَقتص مني، وبعيدا عن الصعيد حتى لا يعرف أهلي فيأخذون بثأري وتدور دائرة الموت).

توقف فجأة أمام باب إحدى الحوشات، طرقه ولم ينتظر أن يفتح أحد بل دعاك بجرأة وكرم صاحب الدار إلى الدخول، حين أزاح الباب قابلتكم سحب الدخان المحمل برائحة الحشيش، وضحكات مصحوبة بسعال، لم تستطع أن تميز تفاصيل المشهد إلا حين جلست، وراح درديري يقدم لك الحضور:

- الشيخ زوزو، علي منولوج، حسن أبو علي، شعبان عازف العود، حودة فنجان صاحب قهوة «متصبرنيش»، والفنان الصغير وحيد..

تذكر وقتها أنك نظرت كثيرا إلى وجه ذلك الفتى وحيد، لا يتخطى خمسة عشر عاما، حسب توقعك، رغم شَبورة الدخان ولم تستغرب سر شحوبه ونحافته ولون عينيه الباهت الذي يتشارك فيه مع جميع أطفال المكان الذين رأيتهم منذ الوصول، كان يحتضن بحب عودا تماهى شحوبه مع شحوب وجهه، وسط النكات والضحك وكركرة الشيشة، ظهر في الخلفية شاهد القبر، ذراعاه المرتفعتان، واحدة عند الرأس وكانت أعلى، والأخرى عند الأرجل وكانت أقصر.

غريبة تلك التوليفة المتناقضة، شيخ بزي أزهري.. جبة وقفطان وعمامة، شيخ يقود حفلة تحشيش، وفتى شاحب يدندن على عود ويغني تواشيح دينية للنقشبندي، وتسابيح، وأسماء الله الحسنى

يختم بها فقرته، وتعليقات لا تخرج إلا من مساطيل، وضحكات، كل هذا في مقبرة!

أعادك حسن من هذا الشرود حين لاحظ تعلق عينيك بالقبر:

- المرحوم محظوظ.. بالنهار بيسمع قرآن لما الشيخ زوزو بيحفظ الأولاد، وبالليل بيعمل دماغ لما الشيخ زوزو بيقلبها غرزة ويحشش!

ازداد الموقف غرابة!! مقبرة تصبح كُتَّابا لتحفيظ القرآن بالنهار وغرزة للتحشيش بالليل.

وأنت عليك أن تكون جزءا من هذه المنظومة أو إن شئت الدقة «جزءا من هذه المعكوسة» عليك أن تتعلم إذن لعبة اللخبطة العظمى كما تفرضها فلسفة المكان، لعبة الفوضى، مكان خُصص وخُلق للموت يعيش فيه أنصاف أحياء وأنصاف أموات، أحياء ينتمون للموت بأنهم يسكنون المقابر، وأموات ينتمون للحياة لأنهم ما زالوا يأكلون ويشربون ويتنفسون.

حين أنهى وحيد وصلته الغنائية بدأ شعبان عازف العود الذي يشبه درديري في طوله ونحافته وشحوبه ويختلف معه بصمته وسكوته وغموضه وغيابه عن المشهد برمته، حتى لم يكن يشارك الحضور بتعابير الوجه أو الضحك، فقط كان منهمكا في قتل نفسه عبر سيجارته المتورمة ومختفيا كما الجميع خلف سحابة الدخان

التي لا تمطر، بدأ شعبان وصلة دندنة على العود غير طويلة أوقفها علي منولوج حين وقف مترنحا وراح يقدم تحية بطريقة تقديم النقطة في الأفراح البلدي:

- تحية لكل المثقفين من كبيرهم الأستاذ علي.. الكاتب والمؤلف والمثقف العضوي.

انقلبت الحوشة بالضحك والسعال والتعليقات:

- تعال هنا يا عضوي..!

- إنت ليه واقف ودا وقته!

- دا بيقف من غير فياجرا!

غرقت مثلهم تماما في ضحكة طويلة حتى امتلأت عيناك بالدموع، وقبلت أن تشد نفسا عميقا حين أعطاك الدرديري الشيشة وعلمك كيف تكتم النفس، سعلت كثيرا لكن الأمر كان مختلفا، أعطاك حسن سيجارة متورمة، وشعرت وقتها بأنك تتفكك، تهدأ، وتندمج في مشهد كامل التناقض.

بلا خجل مددت يدك، قربت الطعام الذي حمله درديري من حوشتك، رحت تأكل بنهم غريب وكأنك جائع منذ ألف عام.

جاءتك فكرة مرضك وموتك، طلبت من درديري «طرشي حار»، أعطاك بكرم وأعطاك قطعة بسبوسة بدت كقطعة فخار لكنك

التهمتهـا، خليط يشـبه الموقف والحالة التي أنـت بها، كلها تناقض «سـمك لبن تمر هندي» كما يقولون، بسبوسـة وطرشـي مشطشـط ولحمة وحشـيش وأسـماء الله الحسـنى في غرزة وفـرح وغناء في مقبرة.

كانـت عيناك تريـدان أن تغـادرا وجهك ورأسـك، أحاطت بك العفاريت ودخلت عبر أنفك وأذنك وراحت تكسـرها بعنف، وجعٌ يتنامى، وجع تعرفه، تكرهه وترحب به الآن باعتباره رسـول الموت الـذي ترتجيه ولا تجرؤ على الذهاب إليه، كان المشـهد والحضور خيالات باهتة، تبتعد، تبتعد.

طـرقٌ على البـاب جعلك تعيد بصعوبة فتـح عينيك، دخل ذلك الفتى الذي كان يساعد حياة:

– يا أبوعلي إيمان في انتظارك.. أيوه ياعم!

غادر حسـن مسـرعا ملهوفا وهو ينفض عنه تعليقات الحضور، آخر ما رأيته خروج حسن وآخر ما فهمته أنها حبيبته أو زوجته.

أغمضت عينيك ببطء، واختفيت.

***

احتار الجميع حين وقعت فجأة، ليست سقطة كسقطة المساطيل أو المخموريـن، حال فعل الحشـيش دون قدرتهـم على التصرف،

لكـن بعـد عناء اتصلوا بالإسـعاف التي تأخرت كثيـرا حتى وصلت ببرود وبلادة المعتادين على المرضى، حملوك إلى سيارة الإسعاف وركـب معك الشـيخ زوزو ودرديـري وعلي منولوج، وظـل البقية مترنحيـن غاضبين لأن الممرض رفض أن تمتلئ سـيارة الإسـعاف بهم.

انطلقـت سـيارة الإسـعاف بكـم إلى ضجيـج الشـوارع وزحمة الفتارين والناس المتسربلين في أناقتهم وعطورهم، لم يكف الشيخ زوزو عن المزاح وإطلاق النكات وعلي لم يكف عن سب الغريب، سبك أنت؛ لأنك أفسـدت عليهم سـهرتهم وفرحتهم بعودة حسن أبو علي، وحده درديري كان قلقا عليك، يحدق في جبهتك الشاحبة وعيونك المغلقة على تعب وأسـرار، ويدقق جيدا في بشـرتك التي تشـي عن قرب ببعض ماضيـك ورفاهيتك، درديري كان يعرف، بل يوقـن أن ثمة سـرا كبيرا خلفك، تسـاءل كثيرا عنـك وعن حكايتك ولكن بينه وبين نفسـه، وصمت وهو العـارف بأن الدنيا مرآة لجملة من الأسـرار أعظمها أن لكل إنسـان سـرٌّ يجهلـه ويتطفل في تعقب أسرار الآخرين.

كنت بالنسبة لدرديري الغريب الذي يعيده إلى الوراء، إلى لحظة مجيئه إلى المقابر ليختبئ، يعيده إلى ما سماه أيام الجاهلية الأولى، إلى وهـم الهروب من الموت والتخفي بيـن أحضانه، إلى الانحياز لزخرف دنيا ظل لوقت كبير وهما.

كان الممرض منشغلا كثيرا بنفخ سيجارته غير عابئ بأصول المهنة ولا بصحة مريض يقف على مقربة من برزخ الموت، اكتفى فقط بالقبض على معصمك والنظر بملل إلى عقارب ساعته الباهتة ثم دحرج نظرة إلى صديقه الصامت محملة بقلق:

- ضغطه انخفض أكثر، الحالة تسوء.

وقتها صاح الشيخ زوزو:

- الراجل هيموت مننا.

حضر وجه درديري الصعيدي، انتفض قابضا على رقبة الممرض وكاد أن يضربه لولا تدخل علي.

- لازم تعملوا شيء، اتصرفوا.

أخرج منولوج رقبته من النافذة الصغيرة لسيارة الإسعاف فوجد الشارع وقد عُبئ بالسيارات وبالمارة الضجرين وكأن سكان القاهرة وسياراتها اجتمعت في شارع صلاح سالم فقط وتركت بقية الشوارع والأزقة خالية، جاءوا ومعهم غبارهم وضجيجهم وضجرهم وصياحهم وسبابهم ورغم ذلك تواطأت إشارة المرور الكبيرة ضد الجميع وظل ضوؤها الأحمر مشتعلا ومصادرا اخضرارها.

ارتفع صوت العراك داخل سيارة الإسعاف، قفز درديري من السيارة يتفقد الوضع، يتلفت ليبحث عن مخرج أو طريقة، المشهد

توقف تماما، لم يلتفت درديري ولا منولوج- الذي لحقه إلى الشارع - إلى صورك التي انتصبت جدارا بطول بناية، ولا إلى الشعارات التي كتبت بجوارها: «نحو التغيير».

حالك الآن وأنت مُلقى هكذا تحت رحمة ممرضَين أحدهما صامت والآخر ضجر وغير مبالٍ، وآخرين رحيمين وجميعهم لا يملك لنفسه مخرجا ولا حيلة، مدجنين بعجز الفقراء والمهمشين ورغم ذلك يحاولون، يهرولون باتجاه الإشارة المتحجرة في أشواط علها تنبت من أسفل أقدام قهرهم زمزما يجعل قلوب الناس تهوي إليهم، تخرجهم إلى أفق أرحب غير ذلك الذي سُجنوا فيه.

عُلقت عينا درديري على ذلك «المتوسيكل» ذي العربة الجانبية النائمة بجواره وكأنها ليست له، اندفع إلى سائقه العجوز، تحدث كثيرا وبانفعال:

- مريض وممكن يموت، لازم يروح المستشفى.

لم ينتظر جواب الرجل بل غادر ومعه علي إلى سيارة الإسعاف. بمساعدة الآخرين حملوك إلى العربة الممددة بجوار المتوسيكل، أراحوك وخراطيمك المعلقة في ذراعك، وركب علي ودرديري مُجبرين العجوز على السير نحو المستشفى الذي لم يكن بعيدا، تاركين خلفهم سباب العجوز الذي لم يعنيهما كثيرا والشيخ زوزو الذي صاح كثيرا بكلمات وداع مؤكدا أنه سيلحق بهما.

حين أوقف العجوز ماكينة المتوسيكل أنزلوك بمساعدة الممرضات الهادئات، أراحوك ثانية على ترولي ودفعوك إلى قسم الطوارئ الذي لم يتردد كثيرا أطباؤه في توصيف حالتك وإدراك خطورتها فأحالوك إلى غرفة العناية المركزة التي بدت بأسلاكها حين دخلتها كبيت العنكبوت، جردوك من ملابسك بلهفة القلق عليك، ثبتوا في جسدك وصدرك أسلاكا وأجهزة ضغط، وراح علي ودرديري يراقبانك من خلف زجاج هذه الغرفة فتزداد وتيرة قلقهما حين يصلهما توتر الأطباء وهم يحدقون في قراءة الأجهزة وضغط الدم.

لم يتردد درديري في أن يقدم بطاقته الورقية المتآكلة حين جاءه إداريو المستشفى ليأخذوا بيانات المريض:

- اسمه درديري، ودي بطاقته.

قدم لهم بطاقته على أنه أنت مستغلا صورته الباهته، ورغم رفضهم في البداية لهذه البطاقة التي أوقفت الدولة العمل بها وحل محلها ما سمي بطاقة الرقم القومي، وقتها صرخ درديري بأنه وأمثاله ليسوا محسوبين على مواطني هذا البلد حتى يكون لهم رقم:

- إحنا مش قومي ولا لينا رقم.. إحنا مش محسوبين عليكوا..

نمت وقتها في المستشفى باسم «درديري» وبذنوب وزير في كامل ضعفه.

***

اللهفة، الشوق، الحرمان محرضاتٌ جعلت حسن يقطع المسافة بين حوشة الشيخ زوزو إلى حوشته في زمن قياسي يُدخله موسوعة جينس للأرقام العاطفية.

دخل مندفعا كسهم، فُزعت حياة، ضربت على صدرها، لاعنة الحب وسنينه، أما إيمان حبيبته فاندفعت إليه، ارتمت في حضنه مغمضة عينيها، منفصلة عما يحيطها، ودخل الاثنان إلى وصلة صمت، وحدها دقات القلوب كانت تعزف لحنها في سيمفونية خافتة، بخجل وضحكة مكتومة خرجت حياة ومعها شطة.

قبل أن تغلق الباب عليهما أطلت برأسها موصية حسن بإيمان خيرا:

- خد بالك من إيمان، حطها في عينيك.

لم يكن حسن يعي ما تقوله أو ترمي إليه، حياة التي تعرف أخاها جيدا رأته على غير ما اعتادت أن تراه، خارجا عن مألوفه؛ لذا غزاها شك وخوف من تهور اللحظة التي تجني إيمان عارها.

حياة كان تدرك أن نصيب حسن مع إيمان مليء بالعثرات والقلاقل، بسبب أخيها حنفي صديق حسن القديم الذي أصبح عدوا له وأقسم ذات خلاف على ألا يكتمل زواج أو حتى خطوبة حسن بأخته؛ لذا خافت أن يؤدي الفيض العاطفي إلى إنهاء فتات

الأمـل المتبقـي في الارتبـاط بين الاثنيـن، وأيضا تعاطفـا مع إيمان وهي التي تشبهها في اليتم وفي الوحدة والقهر.

لم تكن حياة تستطيع أن تبوح بكل ما يخالج صدرها إلى شـطة الفتى الذي يسـاعدها، فقط لبسـت صمتها وسـارت معه إلى «قدرة الفـول» التـي تُركت علـى نارها تغلـي، واكتفت بإيماءة أو ابتسـامة خاطفة من باب مشاركته في ثرثرته وتعليقاته التي رأتها حياة سخيفة هـذه المـرة، وهي التي طالما دمعت عيناها ضحكا بسـبب خفة دمه وسرعة بديهته.

حيـن وصلـت جلسـت علـى مقربة مـن قدرهـا المتلظـي على ناره، معتذرة لشـطة عن عدم مسـاعدتها إياه هـذه الليلة في تحضير مستلزمات الغد، فراح يغسل الأطباق، يقطع الخبز الذي سيستخدم في عمل «السندويتشات» إلى نصفين ويلفه في قماشته البيضاء حتى يظـل طريا لينا حتى الصباح، أما الخبز الذي يسـتخدمه من يأكل في الأطبـاق فتركه دون تقطيع ورصه في رزم فوق بعضها بإحكام ولفه فـي لفافة كسـابقيه، قطع الزائد مـن عروق البصل الأخضر، غسـله ووضعه بجـوار حزم الجرجير الأخضر، عبأ زجاجات الشـطة التي لقبوه بها بسبب ما فعله في أفواههم.

كانت هذه الفترة التي أنهى فيها شـطة تحضيرات الغد كافية لأن تعـود حياة إلى غرفـة ذاكرتها المنغلقة منذ فترة، تنكش أرففها فيطل

وجه أبيها ببهائه ولحيته الخفيفة، يبتسم لها، يقبلها كما اعتادت منذ طفولتها، ويضمها بحنو افتقدته منذ وفاته، لم تكن تفكر منذ كبرت في رجل إلا بمقاييس أبيها، ولم تتخيل نفسها في حضن رجل إلا برائحة ودفء واحتواء حضن أبيها.

- يا ست يابائعة الفول ربنا يخدك ويريحنا منك ومن الفول والطعمية.

هكذا أعادها أحد المساطيل الذين يحين وقت خروجهم من «قهوة متصبرنيش» التي اعتاد صاحبها حودة فنجان أن يقلبها إلى «غرزة» في الليل كما اعتاد أيضا الشيخ زوزو أن يقلب حوشته التي يُحفِّظ فيها الأطفال القرآن بالنهار إلى غرزة أيضا في الليل، كل شيء في هذا المكان له استخدامان، حتى الناس هنا لهم اسمان، اسم حقيقي واسم لبسوه حين جاءوا إلى هنا.

وللناس هنا أيضا حياتان، حياة في المتن وحياة على الهامش، حياة عاشوها خارج جغرافيا هذا المكان، ماضٍ أليم هربوا منه أو ماضٍ غير أليم، مريح طردهم منه، وحياة عاشوها هنا، الناس هنا إما مطرودون، أو هاربون.

الناس هنا موتى وأحياء معا يحملان المتناقضين إذ يشاركون الموتى السكن فهم موتى بالجغرافيا والعنوان، وأحياء بالفسيولوجيا،

يأكلون، ويشربون، ويتحركون كجزوع نخل خاوية، هم أشباه أحياء، أو أشباح أموات.

كان شطة فطنًا برغم صغر سنه وهو الذي لم يتجاوز الخامسة عشر، حين رأى دموع حياة تتساقط في بطء وهي تحملق في اللا شيء، تنظر إلى ما هو غير مدرك، اقترب منها مازحا، محاولا إخراجها من قسوة ذاكرتها، من عتمة ذلك السرداب المخيف الذي اسمه الماضي:

- بلاش دموع!

كان أمام حياة تصرفان، إما أن تملك تلك القدرة التي تجعلها توقف بضغطة زر انهمار دموعها، وإما أن تُخرج ذلك المنولوج إلى العلن وتجعل جلسة التذكر هذه علنية:

- افتكرت أبويا الله يرحمه.. افتكرت عذابنا ومرمطتنا أنا وحسن بعده.

لم يكن شطة يسأل ليدخل في حوار ونقاش؛ لذا لم يعلق. التزم الصمت لأنه كان يدرك أن سؤاله فقط من أجل تغير الموجة والإشارة إلى البوح والفضفضة وهو خير مَنْ يستمع ويشارك بل ويبكي دائما.

المكان يزداد هدوءا بعد أن تسرسب رواد «غرزة»حودة فنجان واحدا خلف الآخر يجرجرون أقدامهم مترنحين يتخبطون غير

عابئيـن بالقبـور التـي أخرجت رؤوسـها المتبرمة بغمـوض صادم، ولا بالأشـباح التي راحت تعبث في الأوراق والقمامة المتكومة في مدخل المقابر، ولا حتى بحياة وشطة.

يمـرون، يدندنـون لحنا لم يُعزف بعد، لحنـا غير متجانس، وإذا انتبه أحد، دحرج إليهما تحية خاصة:

- صباح الزفت والنكد!

شـطة لـم يكن يعلق، كان يسـتمع إلى حياة بـكل جوارحه، ينظر إلى وجهها الذي يكتسـي حَمَارا ورديا حين تحزن أو تخجل، وهي لـم تكن تنظر إليه، كانت تنظر إلى البعيد، وتحكي وكأنها تقرأ لوحة أو كتابا وحدها التي تراه، حين عادت من سـرداب ذاكرتها لـم تغلق باب السـرداب، بل تركته مواربا بما يسـمح لها برؤية ما بداخله، من قراءة العناوين.

غرقت هذه المرة في تفاصيل لم يسـمعها شـطة من قبل، ركزت كثيـرا على بدايـة أزمتها حين جاء أبنـاء عمها من الصعيـد قبل وفاة أبيها، جاءوا ثلاثتهم يلتحفون شرهـم ومكرهـم حاملين ثمن أرضهم التي باعوها فور وفاة أبيهم، طالبين من أبيها أن يساعدهم.

أسـكنهم في السـطوح حتى خلت الشـقة التي في الـدور الأول فأسكنهم فيها، كان يردد دائما:

- هم عزوة لحسن، إخوة وسند له.

كان حسن فرحا كثيرا وسعيدا بهم، حسن الذي يأخذ الدنيا في أحضانه حبا، استطاع أن يتملك ورشته التي أخذها إيجار في سنين قليلة وبمساعدة أبيه، كان لديه بيت ملك من طابقين وورشة وأب عمل وتغرب في الخليج وعاد ببعض مرضه الذي يخبئه دائما، لم يكن يعرف أن عزوته وسنده سيتحولون إلى ذئاب بمجرد وفاة أبيه، ولم يكن يشك لحظة في أن قربهم من أبيه في أيامه الأخيرة ليأخذوا بصمة أصابعه ورعشة توقيعه على عقود بيع البيت وحتى الورشة، وبين يوم وليلة راح كل شيء وبأمر المحكمة أخذوا كل شيء.

وجاءت حياة ومعها حسن إلى هنا ليسكنوا مع أبيهم في قبره، أو أن أباهما أخذهما معه بصورتهما وهما أحياء.

تبكي حياة أكثر وهي تقص تلك اللحظة التي جاء الضابط فيها ليسلمهم ورشته، حين صرخ حسن وضرب أحد أبناء عمه ففقأ إحدى عينيه ودخل بعده السجن ثلاث سنين، عاشت بدون أخيها وبدون أبيها، ولولا عربة الفول ما كانت تدري النهاية.

- شكرا ياحياة نردهالك في الأفراح.

قالها حسن وهو يحتضن إيمان الصامتة، والتي ظهرت مترنحة كالمساطيل الذين ضجّ بهم المكان. حاولت حياة أن تنادي إيمان، تسألها، رفضت في ابتسامة لئيمة:

- مش هاجي ولا ها أقول لك اللي حصل!

ضحك شطة معلقا:

- يا خبر بفلوس بكرا يكون بطبق فول.

غادر حسن ليوصل إيمان إلى بيتها، وفشلت حياة في أن تعود لتفتح باب سرداب ذكرياتها، فصمتت.

***

في أول ميكروباص قفز حسن ومعه إيمان، لم يكن الطريق من أمام مدخل المقابر إلى منطقة القلعة طويلا، ورغم ذلك بكت إيمان كثيرا، حاول حسن أن يطمئنها، أن يؤكد لها أن ما حدث بينهما يؤكد تلك العلاقة، أنها زوجته على فرض الله وسنة رسوله، وحين شعر بفضول بعض الراكبين ونظراتهم صمت، ثم بعد ذلك مازحها كثيرا.

حين ظهرت القلعة من بعيد بأبراجها وأبنيتها وأسوارها العالية سرح قليلا وهو الذي لم يمر يوما من أمامها إلا وطرح على نفسه هذا السؤال:

- هل كان في عهد صلاح الدين الأيوبي الذي بنى هذه القلعة أناس مطحونون ومهمشون أمثال ساكني المقابر اليوم؟ هل كان هناك حسن آخر وإيمان أخرى وحنفي أخو إيمان بكل رزالته وحقده؟

حسن يذكر ذات مساء أنه استمع إلى أحد المتأنقين الذين يُطلون على الناس من التلفزيون يقول: «إن الدنيا دوائر وإن نفس الأحداث بنفس الشخوص تتكرر ولكن بطريقة وكيفية أخرى».

نزل حسن وإيمان عند ذلك المنحدر الذي يوصل إلى امتداد شارع محمد علي، كانت المقاهي قد تخلصت من روادها واستراحت الشوارع من دهس عجلات السيارات وأحذية المارة وتدلت ستارة ناعمة من الهدوء والسكينة المخيفة.

لم تتوقف إيمان عن ترديد خوفها من القادم ومن المستقبل:

- خايفة من بكرا!

جملتها الدائمة وإحساسها المنحوت داخلها منذ أن فقدت أمها وأباها وتولى أمرها أخوها حنفي الذي كان أيام طفولتها الأب والأم، وحينما كبرت وارتبطت بحب حسن تخلى عن حنان الأب والأم، وارتدى قسوة وجفاء مردهما كرهه لحسن.

كانت إيمان كلما أوغلت في ذاكرتها تزداد إمساكا بيد حسن:

- معاك بحس بالأمان.

قالتها وصمتت بعد أن فوجئت بوجه حنفي يطل من زاوية المقهى الذي يتوسط الشارع المؤدي إلى البيت، سقط قلبها في قدميها.

- حمد الله ع السلامة!

قالها حنفي بغلظة وهو ينظر ناحية حسن بحقد شديد، ويعايره بالفترة التي قضاها في السجن، وأنه إن كان قد رفضه زمان مرة فاليوم سيرفضه ألف مرة؛ لأن مستقبل أخته لا يجب أن يرتبط بخريجي السجون والمعتقلات وأصحاب السوابق.

وفي أثناء الحديث ظهر اثنان من البلطجية، اقتربا، وقفا بجوار حنفي، كان أحدهما ممسكا بسكينة كبيرة «سنجة» والآخر بقضيب حديد طويل، أدركت إيمان نية أخيها، فوقفت أمام حسن، لتفصله عن أخيها وبلطجيته:

- ناوي شر يا ابن أمي وأبويا!

اقترب منها حنفي، جذبها ناحيته، وأقسم عليها إن لم تغادر إلى البيت الآن سيمزقها إربا ويرميها للكلاب، وأن حسابها سيكون عسيرا لأنها ذهبت إلى حسن دون إذنه.

طوال النقاش كان حسن متماسكا هادئا، يذكر حنفي بأنه جاء إلى البيت أكثر من مرة ورُفض، ويؤكد إصراره و استعداده لطلب يدها مرة أخرى. يذكر حنفي بالصداقة القديمة، وكيف اشتركا في ورشة واحدة سويا، تعلما المهنة معا وكبرا معا.

أقسم حنفي بعلو صوته على أن إيمان لن تكون من نصيبه، وأن زواجه منها سيكون على جثته، دفع حنفي إيمان بعنف ناحية البيت،

وحينما حاول حسن منعه تقدم أحد البلطجية ملوحا بـ«سنجته» في وجهه، تراجع حسن قليلا وهو يطلب من إيمان أن تغادر، ويطمئنها أن الأمور ستمر كما يريد، مؤكدا لها:

- حسن بتاع زمان تغير.

وأن الذي جرب أنياب السجن وقسوة الأيام لا يثق في أصابعه. أخرج من أسفل ملابسه «جنزيرا» متوسط الطول، لفه حول قبضته بمسافة تجعله متحكما فيه، وأمسك باليد الأخرى ما يشبه الخنجر، وكأنه مستعد لهكذا موقف.

ظلت عينا حسن معلقتين بإيمان حتى اختفت في أزقة الشارع المؤدي إلى بيتها ثم تراجع ليكون جدار المقهى خلف ظهره، تقدم ناحيته البلطجيان، وراحا بعنف يضربان، لكن حسن استطاع أن يصمد وهو يلوح بما في يده، يدافع دائما ويهجم على أحدهما أحيانا، وحنفي يتابع من بعيد، ويحضهما على القتال، ظلت المعركة هكذا بين فر وكر حتى نجح حسن في إصابة أحدهما والانفراد بالآخر وإصابته أيضا، انتهى الأمر بهروبهما، وبقي حسن وحيدا كما كان، فقط كانت كتفه اليمنى تنزف بعنف، وثمة وخز، وخدر يدب فيها.

***

في فهم العزلة

أن تُجرب احتقار ذاتك هذا هو الأصعب والأعظم

في آن واحد!

أنت بقايا رياض كامل...!

تشعر أن ما قرأته في الماضي يساعدك في تدوير وفهم حياتك الآن، ورغم ذلك لم تكن تدري لماذا حين تغلق عينيك وترتد إلى ذاتك يأتيك خيالك بكل ما يعذبك، وأنت بين يقظة ونوم، بين موت وحياة على بياض باهت لسرير عجوز يئن ويصدر أزيزا كلما تحركت.

ترى نفسك صرصارا مريضا منتفخا يعيش في بالوعة مجاري تحت الأرض وسط عالم تأتيك ملامحه العفنة على لسان «ديستوفسكي» هذه المرة عبر روايته «ملاحظات من تحت الأرض» التي كان بطلها صرصار منبوذ.

كنت تتساءل:

- هل ستتغير حياتك كما تغيرت حياة هذا الرجل «ديستوفسكي»؟ بعد أن تعرض لحادثة الإعدام التي نجا منها بأعجوبة ورأى أصدقاءه وقد جُن بعضهم؟ هل ستكتشف المخفي في ذاتك كما اكتشفه هو حين كان في مواجهة مع الموت؟

حين تستحضر مقولات ذلك الأديب الكبير «المعاناة، الشقاء، العذاب، هي المصادر الوحيدة للمعرفة».

ترى أنك تبدأ خطوتك الأولى نحو المعرفة.

وتبدأ في تذوق أعظم وأهم تجربة في حياة أي إنسان حين يجرب احتقار نفسه، كما كان يردد «نيتشه».

أنت عشت في المرحلة السابقة وجوديا كما كان يردد «سارتر». يرى الحل في أن يعرف لماذا لا تجرب من الآن أن يكون الحل أن تؤمن لا أن تعرف، طالما لم تكن ثقافتك الواسعة التي تباهيت بها في جلساتك الخاصة مخرجا لك مما أنت فيه الآن، هذه الثقافة التي كسرت قيود خيالك وخلقت لك أجنحة لطالما كانت كرباجا، مطرقة تطحن بقاياك بقسوة، فحين تغلق عينيك وترتد إلى ذاتك يستدعي لك خيالك ما يعذبك.

يقولون إن الثقافة والمعرفة تؤسسان الخيال لكن النفس هي التي تحركه، والنفس التي قتلت، وسفكت الدماء، هي نفس منقوصة، مريضة لأن الإنسان حينما يَقتل يفقد جوهر إنسانيته، أي قاتل يفقد جزءا من ذاته ووعيه وخيره ونفسه الطيبة، وأنت حسب ذلك فقدت الكثير؛ لذا لا تنتظر أن تحرك هذه الذاتُ المنقوصة خيالك صوب الخير.

لم تكن حجرتك في المستشفى تخلو من الزوار ولا من أكياس الفاكهة التي لم تتذوقها، المسامير التي دُقت في رأسك تفصلك عن محيط هذه الغرفة، تعيدك إلى كوابيسك، ترى دائما أمك بملابس ممزقه تقف في البعيد تلوح لك تريد أن تأتي نحوك لكن ثمة ما يمنعها وأبوك يسبها، يلعنها، وعيال القرية يجرون نحوك، يزفونك بما لا تحب: «ابن عزيزة، ابن عزيزة».

تُخرجك من كوابيسك الحقنةُ التي غرستها الممرضة في ذراعك، وصوت الطبيب يطمئن درديري والشيخ زوزو وعلي منولوج.

حين نجحت في رفع جبل جفونك كنت ترى من حولك خيالات، ما كنت تميز موقعك، وجودك، هل من تراهم خيالات أمك وأبيك؟ أم أن تلك الخيالات زوارك في غرفتك بالمستشفى؟

هي اللحظة التي يختلط فيها الخيال بالواقع، هي اللحظة / البين كما أنت الآن بين الحياة والموت، بين الوزير واللا وزير، بين شرك، وخير المحيطين بك، لا داعي للمقاومة فلتترك جبل جفونك يسقط فتنغلق عيونك على ما أنت فيه الآن غير مدرك ومُفرق بين ما هو خيالي وبين ما هو واقعي، غير أنك انشغلت كثيرا بهيئة وبصورة ذلك الذي حضر أمامك، ذلك الفتى النحيف بجلبابه الرث ولحيته البكر غير المكتملة المبعثرة شعراتها بلا تناسق على حواف الشارب

ومسقط الفكين، بعيونه الغامضة، الثابتة، المحملقة في مجهول ما كنت تدريه.

ذلك الفتى الذي كنته في الماضي بقلقه وبراءته، تذكر أنك لم تقص لحيتك بل فرحت بها كثيرا حين كنت تراقب شعراتها الممزوجة بصفار خجول تتكاثر ببطء لتسد فراغاتها، كانت شبه اللحية ومداومتك على الصلاة في المسجد المبرر لانعزالك عن قريتك التي كرهتها وما زلت، أردت أن تروج عن نفسك صورة الزاهد في الدنيا كلها.

سكنت حجرتك ذات النافذتين، واحدة كبيرة مطلة على حظيرة المواشي وأخرى صغيرة تنفتح على مرمى الحقول؛ لذا كنت دائما محصورا بين رائحتين ومنظرين وشكلين وإحساسين وحالتين وعالمين، إذا جادت الطبيعة أرسلت لك بعض نسائمها عبر نافذتها عليك وإذا شحت وبخلت تركتك لرائحة روث المواشي التي تأتيك بانتظام وديمومة من نافذة الحظيرة / العفن.

كنت تسخر كثيرا من ذلك اللقب الذي ألصقه بك أهل القرية:

«الشيخ رياض»

لأنك لم تكنه، كنت فقط تريد أن تبتعد عنهم بمبرر مقبول لديهم، يقطع عنك سيل التساؤلات والعطف الذي يعيدك إلى ما تحاول الهرب منه، ذكرى أمك، عزيزة:

- يا ولدي لا ذنب لك بما فعلته أمك. من كان منكم بلا خطيئة.

لكنك حتى حينما اخترت ذلك اللقب وتلك الهيئة لم تسلم من المديح المنطوي على سباب وإهانة:

- سبحان الله!! يخرج من رحم عزيزة الشيخ رياض!

- أكيد الواد ابن حلال مفيش ابن حرام تقي وعابد زي الشيخ رياض!

حتى الاستقامة تم تأويلها وإلصاقها بما تكره، ذكرى أمك.

أنت لم تكن تحب الله لتعبده، بل كنت تحمله ذنب ما أنت فيه، أن تجيء إلى الدنيا وأنت لم ترَ فيها ما يفرح أو يُحتفى به، وأن تكون أمك عزيزة بكل عارها وأن يكون أبوك هكذا بكل قسوته وفقره.

كنت تستغرب غباء هؤلاء الناس وهم الذين لو دققوا قليلا لاكتشفوا أنك لست شيخا ولا مبروكا ولا عابدا ولا مطيعا لله، وأنت الذي لم تشاركهم يوما منصة الوضوء، فقد كنت تصلي بلا وضوء، وكنت دائما صامتا في الصلاة لا تقرأ الفاتحة ولا تسبّح في الركوع والسجود، فقط كنت في عتاب كبير مع الله:

- لماذا؟ لماذا أنا بالذات مبتلى هكذا؟

- أين عدلك ورحمتك؟

- وأين المخرج؟

حتى أبناء جيلك من القرية الذين شكلوا في الماضي كابوس معايرتك بأمك حين كانوا يزفونك جماعات: «ابن عزيزة ابن عزيزة».

حتى هؤلاء أصبحت مقسما بينهم أيضا، بين الفريق الذي يقوده عبد الرحمن العوضي، المتعاطف معك، وبين الفريق الآخر الذي يقوده عبد المولى حسين الواقف ضدك باستمرار، ومع الفريقين كان موقفك واحدا، رافضا لعطفهم وحقدهم في آن، تذكر أنك رفضت كثيرا دعوات عبد الرحمن للخروج أو الحديث أو أي شيء، كنت تحلم وتتمنى أن يكون هؤلاء جميعا استثناءً مرحليا في حياتك، ماضيا تمنيت أن يموت بمجرد الخلاص منه.

لم يكن في غرفتك كتاب واحد عن الدين أو مصحف، كلها كانت روايات وقصاصات عن الإلحاد، وأخرى عن الماركسية وكتب لينين، ونيتشه وسارتر وروايات نجيب محفوظ والسباعي وإدريس وجميع الأدباء.

كنت تقرأ لا لتثقف نفسك، بل كنت تبحث عن مخرج ما تقتدي به لينقذك من حجرتك العفنة، ومن قريتك ومن زيفك مع الله، كنت تقرأ سير الناجحين والمجرمين، القديسين واللصوص.

ظللت هكذا تعيش مقسما، مفتتا بين عالمين ووعيين حتى نجحت في الثانوية العامة والتحقت بكلية التجارة وسكنت في المدينة الجامعية في القاهرة.

تذكر أنك غضبت كثيرا حين أخبرك عبد الرحمن ذات صدفة أنه وحسب نتيجة التنسيق سيكون معك في القاهرة في كلية دار العلوم وأن عبد المولى سيذهب إلى كلية الاقتصاد والعلوم السياسية في جامعة القاهرة، أخبرك وقتها عن إمكانية أن تسكن معهما في شقة واحدة بدل المدينة الجامعية وتعبها، لكنك اعتذرت، رفضت بلا أي مبرر وبدون كلمة شكر لعرضه الكريم، تركته مسرعا، منزعجا وأنت الذي عشت تنتظر تلك اللحظة التي تغادرهم ويغادرونك فيها.

لملمت أشياءك القليلة في حقيبتك المرقعة، اشتريت لأول مرة ماكينة حلاقة قلبتها أمام عينيك، ركبت الموسى الذي كان من ماركة «لورد» القديمة، بهرك لمعانه، ثبته أمام عينيك لترى عبر بريقه بريقا آخر أكثر حدة من شفرته، بريق عينيك، فردت على لحيتك رغوة من قطعة الصابون المتآكلة التي طالما كانت شاهدة على مراهقتك وأنت تكتشف عبرها ماءك، هي التي ساعدتك على تفريغ شهوتك وغيظك وكبتك وضيقك عبر تلك العادة السرية التي أدمنتها لتنتقم من نفسك لأنك سمعت كثيرا عن ضررها الصحي وأنها شيء ضد الله كما كنت تظن.

ثبّت مرآتك الصغيرة أو ما بقي منها على خشب النافذة المطلة على مرمى الحقول لتستقبل نور النهار على وجهك ورحت تزيل بفرح شديد رغوة الصابون المعجونة بشعر لحيتك المفتول على بعضه، لم تكن تعبأ بالدم الذي كان ينضح من جلدك ولا بالوجع الذي يشعره من يجرب لأول مرة شفرة الموسى، ترى وجها آخر أمامك وأنت تتدرج في إزالة هذه اللحية حتى انتهيت، وظهرت بشرتك باهتة شاحبة، ظهر أنفك المدبب بلا شارب مختلفا تماما وكأنه أنف شخص آخر.

ألقيت بقاياك من النافذة إلى الحقول وألقيت معها ما بقي من تلك الصابونة، لملمت كتبك تاركا جلبابك القصير ولقبك وذاتك المقسومة على اثنين وغادرت دون أن تسلم على أبيك أو حتى تنظر إلى أصغر تفصيلة لتلك القرية الشاهدة على قهرك.

ألقيت بنفسك في القطار وأنت غير مصدق أنك غادرت بعد ثمانية عشر عاما قضيتها معاقبا، أخرجت رأسك وأنفك وكلك خارج نافذة القطار الذي أطلق لنفسه العنان بعيدا عن قريتك ورحت تُعبئ صدرك بهواء آخر يزداد نقاءً واختلافا كلما ابتعدت.

مع انفلات الأشجار وأعمدة البرق المسرعة إلى الوراء يتطاير شريط حياتك الطويل خلف ظهرك تتحلل منه، تُلقي به بعيدا وكأنك تتخلص من عار أو من جيفة التصقت بك، قررت أن تنساه، أن تبتعد

عن كل من يُذكرك به، ترمي بطول ذراعك ما يتراكم على كتفك من بقايا ذلك الشريط المحمل بذكرياتك / وجعك، ترمي، ترمي وأنت معبأ بانتشاء الفرح، ترمي، ترمي حتى أيقظتك إحدى الممرضات التي كانت تجلس بجوارك على سرير مرضك بالمستشفى، أمسكت ذراعك حتى لا تنزع الخرطوم المعلق في ذراعك، فتحت عينيك لتعود من ماضيك المؤلم إلى حاضرك المعذِب، تأملت الوجوه التي لم تكن قد انطبعت ملامحها جيدا في داخلك وأنت الذي تراهم للمرة الثانية أو الثالثة، لكن ثمة كيمياء للارتياح تشدهم نحوك وأنت تحس فيهم ذلك الحنو والدفء.

***

بينك وبينهم!

(1)
درديري

ما بينك وبين درديري مشتركات كثيرة، فأنتما الاثنان جئتما إلى هنا محفوفين بأزيز ذنوبكما وإن اختلفت طقوس المجيء وطبيعة التعايش مع الذنب.

ربما لم يستطع «درديري» ببساطته أن يصل إلى فحوى هذه المقولة لكن تصرفاته وسلوكه وحتى تعابير وجهه كانت تشي بحالها وتؤكدها، فهو يكره تلك الحياة ويمقتها لدرجة أنه حين يتحدث عنها تنتابه عاصفة سعال حاد ليس مردها إلى الحشيش والتدخين كما كان يعتقد البعض، ولكن إحساسه بالقرف منها، هو يراها هكذا دائما، عجوزا شمطاء قبيحة جدا وماكرة، ويراها أيضا داعرة، الواثق بها جاهل أو مغفل.

كان درديري ينظر إلى وجهك الشاحب وأنت ملقى على سريرك الباهت ومن حولك أولئك المتعاطفين معك، يتذكر اللحظة التي وصل فيها إلى المقابر هاربا متخفيا عن أعين المطاردين له بعدما

ارتكب فعلته وقتل همام، هو لا ينسى تلك الليلة التي قضاها مختبئا في ترعة البلدة، غاطسا في مائها البارد الذي ظل ينهش قدميه بشراسة حتى فقد الإحساس بهما، وقتها كان درديري يرى الدنيا كأجمل امرأة في الكون، يراها تستحق أن يضحي من أجلها، أن يهرب من مخالب الموت ليحيا وقتا إضافيا حتى لو كان دقيقة، فالأمر يستحق، كان يُمني نفسه بالحياة والنجاة حتى لو عاش طريدا جائعا مشردا، المهم أن يظل حيا.

حين تخلص من أنياب ماء الترعة مع الفجر وهرب متسللا إلى محطة القطار كان يشم رائحة الحياة تأتيه من بعيد بعبقها، امتطى ظهر القطار هربا من مفاجأة تعيده إلى خوفه، وقف، فرد ذراعيه وراح يستقبل الهواء، يُدخله إلى مسامه يستمتع بأزيزه وانطلاقته إلى الوراء.

درديري كان يعرف أن أفضل طريقة للهرب من الموت بالاختباء بين ذراعيه، فعين الموت لا ترى القريبين منه.

قادته أفكاره إلى المقابر وحوشته التي اختارها منزوية بأسراره في ركن غير مرئي، لم يعانِ وقتها في الاندماج مع أهل المكان كما عانى في أن يرتدي زي «البين»، النصفين، نصف حي ونصف ميت.

درديري الذي جاء إلى الموت حبا في الحياة وشـوقا لها، تدرج فـي مقتهـا وكرهها، حيـن كان يجلس فـي الليل بجـوار القبر الراقد يفكر في معنى الحياة لشـخص يعيش علـى ذيلها، يفكر في حبه لها الـذي كان حبا من طرف واحد، لم يكن يعينه على الخروج من بئره السـحيقة سوى سيجارة الحشيش التي أدمنها باقتناع وهو يعرف أنه يطفئ ذلك الجزء المشتعل من المخ، ويتلف الجسد / الحبل الذي يربطـه بالحياة علّه ينقطع، يتركه يفنى فيخرج من وضعه المعلق بين عالمين وحالين ووهمين وإحساسين ولغتين.

يـزداد كرهه يوما بعد يوم لتلـك المنطقة العدمية التي لا يُرى مَنْ يقـف فيها؛ لذلك وبوعيه السـاذج قرر أن يخرج منها بشـكل أفضل مـن الطريقة التي دخـل إليها، فـراح يبحث عن عائلة همـام ليقتلوه ولكن شريطة أن يكون القتل بعيدا عن بلدته حتى لا تدور دائرة الثأر من جديد.

تـدرج درديـري، فـي أعمـال كثيـرة، فقـد عمـل حفـارا للقبور ومسـاعدا لحانوتـي ووكيـلا «لتربي» المـكان، جـرب كل طقوس الموت، أن يغسل ميتا وأن يكفنه وأن يدفنه ويهيل عليه التراب ومع كل طقـس مـن هذه الطقوس كان يلبسـه هذا اليقين بـأن الحياة كما قال «زوربا»:

«بف وتنطفئ الشمعة».

أو كما كان يردد دائما الحانوتي والتربي:

«طز، طوووووووووز».

درديري كان يشعر مع كل ميت يكفنه أو يُغسله أو يدفنه أنه يدفن معه شيئا من ذاته، شيئا مما يجعله يشعر بهذه الدنيا، تماما كالذين يعملون في المستشفيات يُخيل إليهم أن الدنيا كلها مرضى وجرحى ومصابين، وأن الذين يعملون في صالات الأفراح يخيل إليهم أن الدنيا كلها غناء وفرح؛ لذا قرر ذات ليلة صافية وبعد سيجارة موفورة الحشيش أن يغير زاوية الرؤيا فقاوم وخرج إلى امتداد شارع صلاح سالم، تشبث بأبواب إحدى الميكروباصات التي ضنت عليه بمقعد كما الدنيا ضنت عليه بكل شيء، ونزل أمام دار القوات الجوية، انبهر بتلألؤ الأضواء التي تجيء من بعيد وبأصوات الغناء والموسيقى والضجيج، وقف، ألقى بقايا سيجارته المتواطئة عليه، داسها بحذائه، عبأ صدره هواءً مشبعا ببهجة مفقودة، دخل عالما هو نقيضه، فعرف وقتها أن الشيء الذي نفتقده حين نعثر عليه يصيبنا بغيبوبة الارتواء، ترنح قليلا، أخرج رأسه إلى الأعلى، أخذ نفسا ثم غطس وسط الأجساد التي تفوح منها رائحة العطور و«البرفانات»، كلما استدار تأتيه رائحة الحياة وطعمها وبهجتها، رقص وغناء، طعام وشراب، أناس فرحون مبتسمون!

هو الآن يعيش في عكسه! يلتقي بنقيضه!

ليلتها تعرّف على الشيف شحاتة، بلدياته من الصعيد، ودامت العلاقة ودام المجيء إلى هذا المكان الذي ظل بالنسبة إليه التوازن الذي يجعله يبقى لا ليحيا وإنما كي لا يموت بالجنون!

في النهار مع الموتى والموت، وفي الليل يجيء إلى هذا المكان ليجرب حياة الفرحين.

يتذكر درديري ذات نهاية ليلة فرحة كتلك، حين جلس مع الشيف شحاتة يتناول ما بقي من طعام الفرحين، ألقى العمال بكوشة العروسين المدججة بالورد إلى جواره فجاءته فكرة أن يأخذ ذلك الورد المحمل ببصمة ونشوة الفرحين ليبيعه إلى زوار المقابر المحملين بشحوب الحزن.

أخذ الورد إلى حوشته وراح يضعه في جرادل مملوءة بالماء، وفي الصباح، خصوصا يوم الجمعة، حيث تمتلئ المقابر بالزائرين المحملين بأحزانهم، يتخير مكانا بين مقهى «متصبرنيش» وعربة فول حياة، يفرش أمامه الورد الذي رغم اهتمام درديري به وعنايته إلا أنه ذبل وغادرته بهجة ولمعان الفرح الذي كان عليها في المساء.

هو نفسه الورد ولكن الحالة تختلف!

وارتاح درديري لمهنته، يبيع ورد الفرحين إلى الحزانى والمكلومين وأصحاب الجراح الكبيرة، هو يغضب دائما حين يقول علي منولوج إنه حرامي، يسرق الورد.

درديـري يردد دائما أنه كالسـقاء، يحضر الماء مـن الذين ارتووا ليبيعـه إلى العطشـى، وفي كل ليلة فرح كان يعيشـها لـم ينسَ أبدا ما يبحـث عنـه، عن عائلة همام، عـن المخلص الذي يطهـره من ذنبه، عن القصاص كما كان يقول ويردد للشـيف شحاتة، لم يُغيره الفرح ولا الضجيـج ولـم يكن يُفـرق بين المؤقـت والدائم، بيـن الطارئ والثابـت، في كل عرس كان يبحث عن أي خيط يوصله إلى فرد من عائلة الرحايمة علّه يأتيه بخلاصه المنشود.

***

(2)
الشيخ زوزو

بينك وبين الشيخ زوزو متناقضاتٌ وبينك وبينه أيضا مشتركات.

فهو يشبهك في المصير الذي جاء بكما إلى حوشة في مقابر الغفير ويختلف معك في السبب، هو من الصنف الثاني الذي يسكن المكان كما قال لك درديري في ليلتك الأولى:

- هذا المكان يحوي قتلة ومقتولين.. هذا المكان يحوي ظلمة ومظلومين.

وإن كنت أنت من الذين جاءوا إلى هذا المكان على مطية الجلاد الظالم والقاتل فهو جاء على مطية الضحية والمظلوم والمقتول.

الشيخ زوزو هو نفسه ذلك الفتى النحيل زاهر الذي حفظ القرآن في قريته، وهو طفل برغم الرمد الذي أكل عينيه ولم يترك سوى جزء من نور صغير بالكاد يجعله يرى حروف القرآن وآياته المباركة، شعاع صغير يكفي فقط لينير له مكان قدميه، ظل يستحضر مغامرة طه حسين.

زاهـر ذلـك الفتـى الـذي ولـد ليكـون منـذ بدايتـه بيـن حالين، لا هو أعمى ولا هو مبصر، وبين أب حنون وأخ امتلك قسـوة الدنيا وعجرفتها.

ظل زاهر بين حنو الأب وقسوة الأخ حتى أكمل دراسته الثانوية وغادر قريته إلى القاهرة ليكمل دراسـته في الأزهر الشريف، الأمل والمرتجى الذي ظل يحلم به ليتحقق له ذلك اللقب الذي التصق به منذ نعومة أظفاره: «الشيخ زاهر».

حيـن غادر البلدة حسـم أمره وحالـه وانحاز إلـى رحمة وحنو أبيـه بعد أن تخلص من قسـوة أخيه الأكبر، هـو يعرف أنه بمجرد أن يختفـي من أمام أخيه فتلك رحمـة، هو يعرف أنه حين يغادر ويبتعد عـن حنو أبيـه، ليس هذا انقطاعا، بل اسـتكمال تواصـل، فأبوه كان يبالـغ كثيـرا في حنـوه على زاهر، يرسـل لـه المال اللازم لدراسـته ولأدويته وقطرته وما يريد.

اختار ذلك الفتى حي الحسـين سـكنا له وهو الذي أُغرم وعشق هذه الأجـواء، الازدحام، أصوات الأذان، المقاهـي، خان الخليلي بمحاله القديمه ومشربياته.

ظـل زاهر يدرس في الأزهر حتى عامـه الثاني، محاطا بحنو أبيه فـي البعـد حين يكون في القاهـرة وحين يعود إلـى قريته يدخل إلى ثـراء القرب، إلى حضن أبيه وأختيه عائشـة وخديجة، اللتين ترددان دائما:

- الضحك بيخاصم البيت لما تسافر.

زاهر كان يمازح أختيه اللتين فاتهما قطار الزواج:

- انتوا عاوزين نبي علشان تتجوزوا.. ولأن مافيش أنبيا انسوا الجواز.

برغم قلة بصره وشح النور الذي يجعل زاهر لا يرى براح الأشياء ووسعها، إلا أن شفقة ورحمة ودفء أبيه وأختيه جعلوه لا يشعر بهذا الضيق أبدا، هو التوازن إذن حين يملك الإنسان النقيضين، قلة في شيء ووفرة في شيء آخر.

لا ينسى زاهر أبدا ذلك الصباح الشتائي الممطر والبارد حين وصله خبر وفاة أبيه، وقتها صرخ بصوت عالٍ غير عابئ بقاعة الدرس ولا بزملائه المحيطين، قال وقتها:

- أهههههه وقعت الواقعة.

ومنذ تلك الصرخة التي كانت رمزا وميقاتا لإزاحته عن توازنه حين أبعدته قسرا وجبرا عن حنو أبيه ووضعته تحت عجلات قسوة أخيه.

غادر زاهر وقتها إلى بلدته، ارتمى فوق جثة أبيه، ترك قلبه الظمآن يشرب من عطفه ويختزن كمًّا من حنو ورحمة كان يشعر أنه سيحتاجهما في سفر طويل بدون حضوره.

كانت أختاه عائشة وخديجة تعرفان أن الذي ينتظره على مقصلة قسوة أخيه عبد الحميد أكبر مما يتصور، وهما اللتان عايشتا معاركه مع أبيه حول إرساله لزاهر ليتعلم في القاهرة.

هما تعرفان أن الإدارة الجديده للبيت في ظل حكم عبد الحميد سيكون أول قراراتها إلغاء مصاريف زاهر.

صمت زاهر كثيرا كثيرا بعدما عاد من دفن أبيه، كانت خديجة القريبة منه دائما تحاول إخراجه من صمته لكنه كان يجهز نفسه للقادم، يعرف جيدا أنه بوفاة أبيه يعود إلى «بين آخر» يعود إلى النقطة الرمادية التي سيكون فيها بَيْنَ بَيْنَ.

لم يبقَ كثيرا في بلدته، بل ألقى بنفسه في ذلك القطار الذي طالما استمتع كثيرا بونس الراكبين معه خلال عامين مرّا عليه وهو يأتي كل أسبوعين محملا بشوقه لأبيه، وحين يعود محملا بما استطاع حمله من خير القرية، هذه المرة يركب ذلك القطار وكأنه يغادر عبره ليموت.

حين وصل إلى حي الحسين انكفأ على ذاته وغادرته الضحكة والبسمة وانحاز إلى صمت مغلف بكآبة وغم كبيرين.

ومع موعد وصول المصاريف أدرك أن ما كان يخافه قد وقع؛ إذ لم يصله شيء.

ظـل أسـبوعين ينفق مما ادخـر حتى عاد إلى قريتـه وهناك التقى بأخيه وبقسوته:

- مفيـش فلـوس وكفايـة اللي درسـته.. ارجع اشـتغل معانا في الأرض أو خليك وأنفق على نفسك.

كيـف ينفـق على نفسـه وهو بين جرحيـن، مصاريفـه التي تزداد يومـا بعـد يوم على عينيـه ليحافظ على ما بقي مـن نورهما، قطرات ومراجعات لأطباء وأشـعات، كل يوم يحتاج مـالًا ليُبقي بعض نور عينيه.

يذكـر ذلك الفتى النحيل زاهر أنـه عمل في دكان عطارة في حي الحسـين، لكن تكـرار أخطائه بسـبب ضعف بصره أفقـده وظيفته، اسـتند كثيـرا علـى مـا كانت تخبئـه له أختـاه خديجة وعائشـة حتى كشفهما عبد الحميد فانقطع الغيث.

سـاعده كثيرا حسـين ابن أخيـه عبد الحميد، لكنه لـم يسـتطع أن يواصل.

ضاقـت الدنيـا ولـم يسـتطع زاهـر أن يوفـر المـال لإيجـار بيته ولا لمصاريف الأزهر ولعلاج عينيه فقرر أن يبحث عن بيت رخيص فلـم يجد سـوى أن يأتي إلى أحد أصدقائـه الواقفين على ذيل الدنيا وهامشها، هنا في مقابر الغفير؛ ليسكن في إحدى الحوشات بجوار

أحد القبور الصامتة المستكينة بسلام، هو كان على يقين أن مجاورة الموتى أفضل وأرحم من مجاورة القساة أمثال أخيه، كان يعرف أن السُّكنى في قبر أفضل من السكنى في بيت أخيه.

وهنـاك راح الفتى يقرأ القرآن للزائريـن مقابل ما يجودون به من أمـوال ورحمـة.. كعك، خبز، طعام، أي شـيء، اعتـاد الوظيفة وما توفـر من مـال كان يكفي بالكاد لشـراء القطـرات والمراهم اللازمة لعينيه، وكان زاهر بين خيارين بسبب ضيق ذات اليد وقلة المال، إما أن ينفق على عينيه وإما أن ينفق على دراسـته، فانحاز إلى نور الدنيا ورؤيتها عسـى أن تريه منها شـيئا يفرحه فترك الدراسـة وتوقف عن الذهاب للأزهر وهو في عامه الدراسي الثالث.

وفي ذات مسـاء صيفي اسـتيقظ زاهر على صداع ينهش رأسـه، يحطمـه، كان يصرخ بألم شـديد يحطم ما يجده حتى تلك الشـمعة التـي نبتـت في ركن الحوشـة، ظل ليلته وسـط الظلام لا يرى شـيئا سـوى خيـالات وكوابيس لا يعـرف إن كانت حقيقـة أو خيالا، ظل هكـذا حتى بدأت تأتيه أصوات المارة فعرف أن الليل قد ولَّى وجاء النهار، خرج مسـرعا من ظلمة حوشـته إلى الشـارع لكـن المفاجأة كانـت كبيـرة، فقد كان نفس الظلام والسـواد يحيطه من كل جانب، كان يصـرخ حتـى وصل إلـى درديري صديقـه الأقدم الـذي تزامن وصولهما سويا، ارتمى في حضنه وهو يبكي بدموع غزيرة.

كان يبكي نور عينيه الذي راح ولن يعود، ذلك النور الذي اشتراه بشهادة الأزهر، اشتراه بدراسته وبأسرته وبالقليل الذي يملكه. ومن وقتها عاش زاهر كفيفا حزينا كئيبا حتى قرر ذات صباح أن يعود لسخريته ويترك زاهر ذلك الفتى النحيل الذي جاء إلى القاهرة محملا بأحلام أبيه فأصبح الشيخ زوزو المحمل بأوزار أخيه.

تلفع بسخريته وراح في كل حركة والتفاتة يخرج لسانه للدنيا، يبصق عليها، يجلس في مدخل المقابر على مقهى «متصبرنيش»، يناكف حودة فنجان، يلقي بقفشاته يمنة ويسرة، يبدأ صباحه على يد حياة بطبق الفول بالزيت الحار والشطة والبصل الأخضر، ويختم على يد حودة فنجان بكوب الشاي وكله على الحساب:

- نظام المكان هنا كله يشكك كله.. وكله يساعد كله. وكله مديون لكله.

يفرح كثيرا لو رُزق بزبون يذكر موتاه بربع قرآن، يرافقه إلى حوشته، يتلو ما تيسر، ويأخذ ما تيسر وهكذا تآلف زاهر مع ظلمة فقد البصر ولم يتآلف مع ظلم أخيه.

كان كلما غزاه الشوق لحضن أبيه ينزوي في ركن الحوشة التي يسكنها وهو لا يعرف ميتها ولا صاحبها، يبكي بلا دموع «على الناشف» كما كان يردد.

«أصل دموعي بتتساقط جوا في الداخل» كما كان يسخر!

كان الفتى زاهر يعرف أن الحياة بين الأموات أرحم من أحياء يشابهون أخاه، ورغم ذلك كان يأخذه الشوق لبيت أبيه وأختيه عائشة وخديجة، وكلما ضعف يبصق على قلبه، يحمل نفسه وظلامه إلى زحام محطة رمسيس ويلقي بنفسه في أول قطار إلى بلده، وفي القطار يتذكر روحاته وعوداته حين كان يدرس في الأزهر، يتذكر أيام أبيه ويكرر بكاءه الناشف.

لم يكن زاهر يشكو حين يصل إلى بيت أبيه، كان يمازح أختيه، ويدير وجهه حين يسمع صوت أخيه عبد الحميد، يرد باقتضاب ويغادر إلى غرفة أختيه، أو يمازح حسين ابن أخيه الذي لا يشبه أباه في شيء سوى في الاسم:

- يا حسين أحلى حاجة فيك أنك لا تشبه أباك.

هكذا كان زاهر يبدأ كلامه مع حسين، ثم يختمه:

- عاوزين نعبأ الشنطة، عاوزين الزوادة.

يأخذ ما استطاع من مشلتت وبط وجبن ولبن وبيض، ومن كل شيء شيئا، وحين يعود إلى المقابر تنتصب المائدة ويلتف الجميع في حوشته، يأكلون ويحششون، يغنون ثم ينامون متجاورين كما يعيشون متجاورين.

وجد زاهر شيئا من روحه حين تعلم العزف على العود وعقد صفقة مع الأسطى شعبان يزوده بالحشيش وشعبان يعلمه العود، يذكر أنه حين قال لشعبان: «أعلمك قرآن وتعلمني عود»، قال له شعبان:

- أعلمك عود وبلاش تعلمني قرآن.

ضحك زاهر وقال له:

- حبيت أدخلك الجنة بلاش، خلينا نساعدك على دخول النار.. سيجارة الحشيش عندي.

بُهر شعبان لسرعة زاهر في تعلم العود، بل إنه تفوق عليه في السماعي وراح في البداية يدندن التواشيح التي كان يحفظها أيام الأزهر ثم النقشبندي، والشيخ إمام إلى أن تمكن من عزف أغاني أم كلثوم بل وتأديتها، وانتهى به الحال يغني كل شيء.. بوس الواوا، وأنا مش خُرنج.

كان العود له ونيسا جديدا وحنونا ومطيعا وقريبا إلى قلبه، هوّن عليه كثيرا، بكى وفرح وحلم واكتأب وتمنى الموت وطار في السماء وعشق وكره، كله عبر أوتاره، كان يقول في سهراته:

- أنا باشوف من خلال أوتار العود.

في ذات فجر، وبعد سـهرة أيقظت الأموات في حوشة درديري، مع نسمات ربيع لم تتلوث بعد بعوادم الأغنياء وأصحاب السيارات الفارهـة، كان يترنح، ينفـض من على أذنيه بقايا لحن ضيعه النشـاز ودخان الحشـيش، وفي الاسـتدارة التي توصله إلى حوشـته سـمع بكاءً مكتوما لطفل، ابتسم:

- يا عفاريت بلاش شغل العيال دا.

واصـل السـير وواصل الصـوتُ البـكاء، توقف واسـتدار ناحية الصوت، تبعه، سـار صوبه، كان الصوت يأتي بوضوح، ظل إلى أن وصل، جلس، تحسس مصدر الصوت، كانت لفافة بها طفل، قطعة لحم بدرجة طفل، حمله واسـتفاق، لعن الصدفة التي أفرغت رأسه من تعميرة ظل ليلة بطولها يدغدغها.

ومـع ذلك الطفل جرب زاهر أن يكـون أما وأبا بعد أن احتفظ به ورفـض أن يتخلى عنه، وبمسـاعدة أمهات المـكان تربى وحيد كما اختار له ذلك الاسـم، وراح يكبر بـدون عيني زاهر، يكبر أمام قلبه، وأصبـح عكازه الذي يتـوكأ عليه، وعينيه اللتين يبصـر بهما، أصبح كل شـيء، وقتها قرر أن يحول حوشته إلى كتاب في الصباح يجمع أطفال المكان الذين في عمر وحيد ليعلمهم قرآنا، وفي المساء يصر أن تظل الطقوس واحدة بلا تغيير، حشـيش لتصبح غرزة، كتاب في النهار وغرزة في الليل.

وأيضا وحيد يتعلم قرآنا في النهار ويتعلم عودا في الليل، وحين يتساءل الناس عن رغبته في التناقض، يقول:

- ما حدش ضامن! بكرا لو الدنيا اتعدلت معاه يقرأ القرآن وهياكل عيش، ولو خربت أكتر ما هي خربانه يمسك عوده ويغني وبرضو هياكل عيش!

ظل زاهر إلى أن التصق به لقب الشيخ زوزو بعد مزاح وإصرار من علي منولوج على الاسم، وقتها نسي الناس زاهر ونسيه هو أيضا، وراحوا يذكرون الشيخ زوزو فقط.

***

(3)
علي منولوج

بينـك وبين علي منولوج مشـتركات قليلة، جُلهـا المكان وقليل مـن محاولة فشـل في أن يبـدأ خطوته الأولى، في ركـوب الموجة، واللعب على كله ومع كله.

المتناقضـات أكثـر، أولها ذلك القلب الذي تمنـى علي مرارا أن يخرجـه ويعصره بأسـنانه غيظـا، قلب يختار المـوت على أن يؤذي أحـدا، ذلك القلب الذي أفسـد عليه فرصة اللعب مع السـلطة حين أُجبر على التجسس على زملائه في الجامعة لصالح الأمن إذ قبل أن يكون مخبرا بدرجة طالب، وقتها قال له الضابط بفظاظة السلطة:

- تقاريرك كلها غلط يا روح أمك.. بتضحك علينا؟

ولا ينسـى علي تلك الصفعة التـي جعلته يرى الدنيا مقلب زبالة كبير تفوح منه رائحة لما تزل تسكنه، بل تعشش فيه.

علي يتشـارك معك في الطفولة البائسة؛ فهو ابن الحرمان واليتم والقهـر، هـو ابن «البين»، ابـن اللون الرمادي الـذي يكرهه، هو ابن

شـاويش في الداخلية شـاءت ظروف عمله أن ينتقل إلى «أسـيوط» في صعيد مصر فعاش هناك وهو غير الصعيدي، وينتمي إلى القاهرة ولا يعيش بها، ظل طفولته حتى صفه الأول في الثانوية فتوفي أبوه، ولا ينسى علي تلك الليلة التي بقي فيها مع أمه يتذكر شخصا واحدا من أقاربه أو من عائلة أبيه فعرف وقتها أن أباه ليس قاهريا بل جاءها كمـا جاء أسـيوط، هو رحال، أو متشـرد، أو باحث عـن لقمة عيش بخلت بها الجغرافيا عليه.

لـم تصمـد أمـه كثيـرا وسـط ضغـط البحـث عـن لقمـة العيش وسـيمفونية الإهانـة ففرحت كثيرا حين جاءها رسـول الموت ذات ليلة شـتائية قاسية، استسلمت سـريعا، ابتسمت لمجهول، وأوصت علي بالرحيل إلى القاهرة، قالت له:

- ارجع إلى القاهرة يا بني أحيانا تكون الزحمة رحمة.

وعـاد إلى القاهرة فـور إعلان نتيجة الثانوية العامـة التي كما في حياته دائما يقف على حافة الأشياء، على ذيلها، بالكاد أعطته ثانويته المجموع الذي يدخله أقل كلية، فكانت الحقوق.

فـي القطار الـذي ركبه جميـع الخارجين من المنطقـة الرمادية، من «البين» غادر علي من أسـيوط إلى القاهـرة، وحين وصل كانت الزحمـة ليسـت كمـا أخبرته أمـه رحيمة بل قاسـية، صيـف القاهرة أحن في شمسـه لكنه أقسـى في الزحام والناس، لا أحد يهتم بأحد،

لا ينسى أبدا ذلك المشهد، المرأة التي سرقها شاب أمام أعين الجميع ولم يساعدها أحد، أو صاحب المتوسيكل الذي صدمته سيارة وظل ينزف ولم يلتفت إليه أحد، وقتها غزاه خوف كبير من قسوة الناس واشتاق إلى أسيوط، وتساءل كثيرا عن تلك الرحمة التي كانت تعنيها أمه؟

لما جاء الليل فنام على مقعد في إحدى الحدائق العامة ولم يسأله أحد، وتحمم وغسل جواربه ونشرها ولم يعبأ به أحد، تحدث كثيرا مع نادل المقهى المواجه للحديقة، ولما قص عليه حكايته عرض عليه النادل أن يتحدث مع صاحب المقهى حين يجيء في الصباح ليعمل معه، وقد كان في الصباح التقى صاحب المقهى ووافق بشرط أن ينسى شغل التلامذة ويركز في شغله.

وعاش علي في حي السيدة عائشة بالقرب من القلعة ومسجد السلطان حسن وشارع محمد علي وغيرها من أماكن القاهرة القديمة وشارك صديقه «شيشة» الذي عرف أن اسمه علي أيضا ولكن لقب المهنة هو الذي يبقى، شاركه السكن في غرفته ذات البابين.

ومع بداية الدراسة ظلت حياته هكذا، عمل في المقهى مساءً، وفي الصباح طالب في الحقوق بنصف تركيز ونصف أمل طالب «بين» بلغة الرواية.

لا يعـرف علـي من أيـن جاءه ذلـك اليقين الذي يجعلـه يرى أن احترام وتقدير الناس لأي شـخص يتأتى من مدى ثقافته، يتأتى مما يعرف؛ لذلك لم يفوت فرصة تمكنه من قراءة كتاب إلا وقرأه ولكن من أين يأتي بالوقت وهو مقسم هكذا بين بين، بين نصف «قهوجي» ونصف طالب.

انتمـى إلى كل الأنشـطة الثقافية في الجامعة، إلى معظم الأسـر، حتـى لسـوء حظـه وبصدفة لم يقصدهـا أو يعيها كانـت إحدى هذه الأسـر للجماعات الإسـلامية التي نشـطت في منتصـف ثمانينيات القـرن الماضـي، في نفـس الوقت كانت هناك أسـرة أخـرى ينتمي إليها أيضا بنفس عدم الوعي والقصد تنتمي للطلبة اليسـاريين، ولما انكشـف أمره لدى مشرفي أسرة الجماعات الإسلامية لا ينسى ذلك الضرب والصفع والإهانة والألم الذي تلقاه على أيديهم.

غـاب فتـرة تمكنه مـن اسـتعادة كرامتـة المفقوده ثم عـاد ليجد الجامعة مشـتعلة على أحداث مظاهرات تعاطفا مع سـليمان خاطر الجندي المصري الذي قتل الإسـرائيليين على الحدود وانتحر كما قيل داخل سـجنه، لم يفوت علي أية تظاهرة، شـارك في جميعها بل اعتصـم داخـل الجامعة مع المعتصمين، ويذكر أنـه مع أول تظاهرة أمـام هذه الصيحـات التي ما كان يعيها، بكى وشـعر أنه يحب مصر كثيـرا، بل يذكر جيدا أنه ترك كل الشـعارات التي كانت تردد، وراح يصرخ بعلو صوته:

- مصر مصر تحيا مصر.

هو يقينا ما كان يدري سبب التظاهرة؟ولماذا خرج هؤلاء الشباب؟ولا ماذا يريدون؟ ولا أي شيء؟ولا كان يدري شيئا عن سليمان خاطر؟ هو فقط كان يريد أن يعيش تجربة التظاهر، كما عاشها عبر أفلام الأبيض والأسود وروايات نجيب محفوظ، القاهرة 30، والثلاثية، كان يتخيل نفسه كمال في الثلاثية، ويتخيل نفسه يتظاهر من أجل استقلال مصر من الاحتلال الإنجليزي.

علي بطيبة أراد أن يطبق نظريا ما قرأه، وما عاشه عبر السينما، فاكتشف حين قبض عليه مع بعض الطلبة، أن التجربة غير مسموح بها، أن حدود المعرفة فقط في أن تشاهد فيلما أو تقرأ كتابا ويجب في الحالتين أن يكونا مسموحا بهما. مع أول صفعة صرخ:

- يا بيه أنا لا ليا في التظاهر ولا اعرف أي شيء.. أنا حبيت أجرب.

ومن خبرة الضابط وبعض الأسئلة الماكرة تيقن من صدق علي، بل وجده صيدا ثمينا، فأكرمه، قدم له طعاما وأعطاه عشرين جنيها، كان أول مرة يمسك بيديه مبلغا كهذا، وحين غادر طلب منه الضابط ذو الملابس المدنية أن يكتب له عن كل تظاهرة أو نشاط أو تحرك يحدث في الجامعة، وفعلا بدأ علي التنفيذ بحجة أن ذلك في مصلحة هؤلاء الطلاب لأن هناك من يغرر بهم، حتى رأى ذات يوم

وجه أحد الطلاب الذين بلغ عنهم بعد خروجه من اعتقال دام ثلاثة أشهر، كان وجهه مشوها وحين تحدث معه عرف كيف يعذبون وعرف إجرامهم، قرر أن يعتذر عن هذه المهمة القذرة ففشل، فراح يقدم تقارير كاذبة من نسج خياله إلى أن اكتشفه الضابط، وصفعه كثيرا، يذكر علي ذات صباح جامعي حين كان في عامه الثاني من الجامعة، حين اعترضه زملاؤه ورفضوا أن يدخل المدرج، بل جرجروه من ملابسه وأوقفوه مكان الدكتور، وأمام أكثر من ألف طالب، وعبر مكبر للصوت أعلنوا حقيقته:

- علي الحقير هو الجاسوس الذي ارتضى أن يكتب عن زملائه تقارير للأمن.

غرق يومها بصقا وسبابا وضربا، وعرف أن هذه الطريقة التي ينتقم بها الأمن من عميل لهم قرر أن يكون نظيفا، غادر الجامعة ولم يعد مرة أخرى، ونسي حلم الليسانس والجامعة، حتى المقهى الذي كان يتردد عليه بعض زملائه في الجامعة تركه ولم يجد غير امتداد شارع صلاح سالم، غير بعيد عن السيدة عائشة، مقابر الغفير، في إحدى الحوشات التي يجهل صاحبها وميتها، سكن بسره الذي لا يعرفه غيره، راح يكتب الأغاني الشعبية لبعض المغنيين الشعبيين الذين يأتون في آخر كل مساء إلى مقهى «متصبرنيش»، يشربون الحشيش، اشتهر أمره إلى أن طُلب منه ذات مساء أن يكتب بعض

المنولوجات لمغنٍّ مشـهور، فراح ينتقد ما يراه من ظواهر، لم يترك علـي أزمة مـن الخبز حتى الماء والزحمة والغش والحشـيش الذي أدمنـه والخصخصـة، كتـب عن كل شـيء، انتقد كل شـيء، سـخر من كل شـيء، حتى نفسـه، فذاع صيته واشـتهر بين مطربي الأفراح الشعبية.

ظـل هكـذا إلـى أن قـرر تكويـن فرقتـه الخاصـة وسـماها تيمنا بمـن أحـب، بحياة التي عشـقها منذ أن جاءت مع أخيها حسـن إلى المكان. فكانت الفرقة، فرقة الحياة التي خرجت من المقابر لتسـعد المنشغلين عن ساكنيها.

وراح علـي يؤلـف مونولوجاتـه ويغنيهـا بنفسـه، فأصبـح علي منولوج.

***

(4)
حسن أبو علي

هو نقيضك، ليس بينك وبينه متشابهات سوى في المكان الذي يحتويكما بأسراركما وأخطائكما، بذنوبكما وحسناتكما.

حسن منذ طفولته عاش عمره من أجل أبيه وأخته، من أجل من أحبهم.

وُلد لأب احترف الغربة من أجل لقمة العيش، صعيدي يحمل حقيبة سفره ويردد كما يردد أمثاله:

- عشانا عليك يارب.

لم يترك بلدا عربيا إلا وسافر إليه، بعثر على أرضه عرقه وعاد بدراهم معدودة تكفي بالكاد لستره وعائلته الصغيرة: زوجته وحسن وحياة.

من العراق إلى ليبيا إلى دول الخليج كافة. تنقل حتى جمع ما يكفي لشراء بيت صغير بطابقين في إحدى حواري مصر القديمة، ولأنه اغترب كثيرا نسي لعبة الزمن الذي تغير في مصر، غابت عنه

معادلـة الفجيعـة الكبرى، حين يأكل الأخ لحـم أخيه، أصر على أن يحضـر أولاد أخيه الثلاثة من الصعيد ليكونوا بجوار حسـن «عزوة وسـندا» لـه ولأخته، وجـاءوا بكامل شـرهم ومكرهم وسـكنوا في الطابق الأول وبعد أن توفيت أم حسن، قرر أبوه أن يستقر ولا يسافر ثانيـة، خصوصـا أن حسـن بدأ يسـاعده مـن عمله في الورشـة التي اشتراها بأقساط هو وصديقه عصام.

كان أبـوه كالسـفينة التـي إن توقفت عن الإبحـار تتعفن وتتلف، مرض أبوه وبلا سـابق وداع رحل صامتا، تاركا حسـن وحياة فريسة لشـر من أراد أن يكونوا سـنده وعونـه فكانوا ابتلاءً، بعـد أن أخذوا بمكـر وبعقدٍ مـزور البيت والورشـة ودخل حسـن السـجن بعد أن ضرب أحدهم فأحدث له عاهة مستديمة حين قلع إحدى عينيه.

حسـن دخل السـجن مدافعا عن حقه وأخته، مدافعـا عن الذين أحبهـم وأنت لم يكن في قاموسـك هذا المصطلـح لأنك لم تحب أحدا أو لم تحب، بل كرهت، وكرهت فقط.

حسـن الـذي أرادت الأقـدار أن يتزامـن خروجـه مـن السـجن ووصوله إلى حوشـته المجاورة لحوشـة أبيك، حوشتك الآن، جاء رافعا شعارا وهدفا واحدا:

- أريد أن أعيش، أن أحيا، أعوض ما فاتني.

أمـا أنت فقد جئـت إلى هذا المـكان رافعا شـعارا تعرفه، كررته كثيرا بينك وبين نفسك:

- أريد أن أموت، هو جاء طالبا للحياة وأنت جئت طالبا للموت، شتان بين الطلبين والرؤيتين.

***

«الإنسان عالم صغير والعالم إنسان كبير»

كيـف لهذين العالَمين الصغيريـن والكبيرين أن يتجاورا دون أن يطغى واحد على الآخر؟

وهل ممكن أن يتصالحا؟

أنت وإنسانيتك.

أنت وذاتك.

أنـت والعالم الذي تعيش فيه، كلها متناقضات مزقتك إلى إرب صغيـرة وبعثرتك علـى أزقة الدنيـا الفارهة الثرية حيـن كنت وزيرا وألقـت بـك إلى مكـب النفايـات الذي أنـت فيه حين جـرت على نفسك ومسختها.

عليك الآن أن تستوعب غيبوبة السكر التي تُعمق فيك حالة البين هـذه أو تهـرب من ارتفاع ضغطك الذي يدفع رأسـك إلى الانفجار وأنت أحوج إليها الآن علها تدلك على مهرب ومخرج.

كنت تشعر بحنو كبير حين كانت حياة تقترب منك وأنت تدرك أنها في عمر ابنتك أو تكبرها بقليل، كانت تعيدك من برزخك الذي يأخذك إلى الناحية الأخرى من الحياة إلى الموت.

ابتسم لك الطبيب:

- ممكن تخرج بعد يوم واحد.

ازداد ضجيج المحيطين بك يباركون لك واقتربت حياة منك، ضغطت على يدك بحنو مبالغ فيه أو هكذا شعرت بها، نظرت إلى عمق عينيك وكأنها تريد قراءة شيء من المخفي لديك، أزحت وجهك بنصف وعي وبنصف ابتسامة.

كان الشيخ زوزو يجلس على غير ما اعتدته، لم يكن يمزح أو يُطلق تعليقاته الساخرة، يعرض وجهه للأعلى بعيدا عن صدى الأصوات مختفيا خلف نظارته السوداء، شاردا في عالمه المظلم، يسند رأسه بيده وكأنه يوشك أن يسقط منه، ازداد فضولك أن تعرف شيئا عن ذلك الرجل لكنك اكتفيت فقط بما فيك من وجع، عدت بوجهك ناحية وجه حياة، وتركت الشيخ زوزو إلى شروده.

لم يسمح لك علي منولوج بمزاحه أن تعيد دوران رأسك، أو السياط التي تحزمك بألمها، جاءك معتذرا طالبا المغادرة؛ فأمامه سفر إلى طنطا لإحياء فرح هناك وعليه أن يجري بروفة مع فرقته قبل المغادرة، استدار الشيخ زوزو إليه سريعا حين سمع كلمة طنطا

وأصـر أن يصحبه إلى هناك لزيارة بيت أبيه وأختيه وإحضار الزوادة وخير البلد، شـجعه الجميع بل طلبوا من علي الذي كان مترددا في البداية الاهتمام بالشـيخ زوزو وعدم تركه، عليهم أن يأخذوه معهم ويعيدوه معهم أيضا.

قاطعهم الشيخ زوزو:

- لو كوكو هتكون معاكو، هاحضر الفرح.

ابتسـم الجميع وغادر الشـيخ زوزو وعلي منولـوج وبقيت حياة بجـوارك يزداد قربها منك، ودرديري الذي سـند ظهره إلى سـريرك وأراح رأسـه بشـيبه ناحيتك وأغمـض عينيه قليلا وأنـت بين الحين والآخـر تسـرق النظـر إلى وجهـه علّك تفهم شـيئا أو تفـك كيمياء الرجل التي تشدك إليه.

لـم يكن أمامك وأنت غيـر القادر على مجاراة حيـاة في حديثها سـوى الصمت والانكفاء على ذاتك تجنبا لسـهام سؤال يأتيك بغتة فيجرك إلى ماضٍ تهرب منه.

عـدت إلـى الجامعة، إلى أيامـك الأولى في القاهـرة التي جئتها كافرا بكل القيم وبكل شـيء، جئتها محملا بحقد يكفي لأن يحرق العالـم، ظللـت كما كنـت صامتا منطويـا، تدرس وتراقـب لتتخير الزمان والمكان اللذين يضمنان لك علاقة تساعدك في التقدم نقطة نحو أهدافـك التي ما كنت تدركها بالتحديـد لكن عنوانها العريض

«عكس الماضي بعيدا عن قريتك وناسك وأبيك وأمك وماضيك، بعيدا عن أي شخص يعرفك بعيدا عن عبد المولى حسين، وعبد الرحمن...».

مرت أيام هادئة في سكنك بالمدينة الجامعية وداخل مدرجات الدراسة حتى وقع يوم الاعتصام الذي رفض فيه طلاب كليتك، كلية التجارة، حضور محاضرات دكتور عبود الذي كان مكروها جدا، وقيل إن صفقة شراكة مع شركات إسرائيلية قد كشفت مؤخرا وهو كان صاحبها فقرر الطلاب مقاطعة محاضراته احتجاجا على سمعته وأفكاره وكتاباته.

وقتها رأيتها فرصتك الكبيرة بأن تقترب من ذلك الدكتور، تذهب إليه في مكتبه، تبرئ نفسك مما يفعله الطلبة بل تراهم مجانين أصحاب شعارات كاذبة وتستعرض أمام دكتورك الذي أصبح فيما بعد أستاذك، كبيرك الذي علمك السحر، تستعرض أمامه بقراءاتك وثقافتك خصوصا الشيوعي منها، وبعضا من لينين وماركس وغيرهما.

ازدادت جلساتك مع أستاذك، وكثرت خدماتك له، قدمت له كشفا بأسماء الطلبة المحرضين وجميعهم رسبوا طبعا في المواد التي كان يُدَرِّسها، وفي يوم طلبت منه المساعدة في إيجاد عمل إضافي لأنك ذلك النموذج المكافح الذي يعمل ليكمل دراسته،

أخـذك إلـى أحـد مكاتبه التـي كانـت تقـدم استشـارات قانونية في أمـور التجـارة والبيزنس ومن وقتهـا أخرجت كامـل طاقتك، كنت تعمـل أربعا وعشـرين سـاعة بـلا توقف، كنـت تتبرع بالقيـام بأقذر الأعمـال حتى كلفك بسـرقة ملـف مهم من مكتب أحـد المحامين الـذي تولى رفع مجموعة دعاوى ضده، لا تنسـى تلـك الليلة حين دخلـت وباغتتـك السـكرتيرة التي لسـوء حظها كانت تـؤدي عملا متأخـرا بمحـض الصدفة فلم تجـد أمامك من طريقة سـوى خنقها بعـد أن عذبتها وهددتها فاعترفت لك بمكان الملف، وقتها أدخلت فـي سـيرتك الذاتية لقـب قاتـل، وبعدها أصبحـت الـذراع اليمنى لأستاذك.

تخرجـت بامتيـاز ورفضت كما نصحك قبـول وظيفة معيد، بل ظللت خادما لسـيدك تقوم بـكل الأعمال القـذرة، وكلما كبر وعلا شـأنه كبرت معه حتى أصبحت من ساكني حي الزمالك ومن راكبي السـيارات الفارهة، وبدأت صـورك تظهر في الصحف وكنت ضيفا فـي برامـج التلفزيون، ورجل مجتمع بامتياز، تلبس تلك الابتسـامة الماكرة التي لا تتغير، ترتدي قناعا يعجز كل فلاسفة الدنيا عن قراءة وتأويل ملامحه.

ظللت هكذا حتى تعثرت ذات لقاء في عبد المولى حسين الذي كان وقتهـا يعمـل صحفيا في أهم صحيفة مصريـة معارضة، ونجح

أيضـا فـي عمل اسـم صحفـي مرمـوق ارتبط بكشـف فسـاد بعض الوزراء.

ليلتهـا اعتـذرت إليـه بقرف شـديد وغادرتـه إلى طاولـة أخرى تحـوي بعضا من الذين يشـبهونك في كل شـيء، لكنـه تبعك وراح يمطرك بأسئلة كثيرة:

- أنا متابعك ومتابع أخبارك وأخبار أستاذك..

قاطعته بفظاظة علّه يغضب ويقاطعك:

- يا ريت تتوقف عن متابعتي، وتنسى.

في اليوم الثاني كنت الموضوع الأهم على صدر صحيفته:

«ابن عزيزة الأرستقراطي».

واستمرت سلسلة المقالات التي عرّتك منذ الطفولة حتى أناقتك الأخيرة، وبعد نصيحة ومشورة أستاذك الذي كان وزيرا وقتها رتبت لعبد المولى جريمة اتجار في الهيروين بعد أن ضحى وزيرك ببعض الـذي يتاجر بـه ووضعه رجاله في سـيارة عبد المولـى وقبض عليه وصُـور في التلفزيـون و الصحف وأخذ «تأبيـدة» وظل صامتا على إثرهـا، يقـول الذيـن رأوه إنه لا يتحـدث، لا يبادل النـاس النظرات ولا يتفاعل مع أي شيء، انطوى على نفسه وانعزل.

خلال أزمته سافرت إلى قريتك، زرت أهله بل أكدت لهم أنك ستساعده وأنك ستوكل إليه أشهر وأكبر محامٍ في البلد، وبرغم نظرة الشك والريبة والكراهية التي رأيتها في عيني أبيه إلا أنك واصلت مسرحيتك الشامتة خصوصا أن أستاذك كان يُعدك ويُحضّرك لترشيح نفسك في انتخابات مجلس الشعب عن الدائرة التي تقع فيها بلدتك التي تكرهها ومن فيها.

كثرت زياراتك إليهم لكنك لم تستطع أن تبيت هناك ولو ليلة واحدة كنت تغادر ولو فجرا، وعدتهم كثيرا وفي كل تجمع شعبي كنت تبصق عليهم داخلك.

لأنك خبير في وضع السم في العسل سَوّقت إليهم ذلك المصنع الكيميائي الذي يحوي أشعة وعوادم تكفي لقتلهم جميعا، سوّقته إليهم على أنه منحة العمر التي سيضمنون من خلالها فرصة عمل لأبنائهم، وأنه سيضعهم على الخريطة وسيجعل جميع المسئولين يهتمون بهم.

أهل هذه البلدة الطيبون الذين ذنبهم الوحيد أنك ولدت ونشأت وسطهم بكل عقدك وحقدك لم يدركوا أن كبيرك الذي علمك الشر هو الشريك الأكبر في هذا المشروع المرفوض من كل دول العالم بسبب ما يحمل من أضرار على البيئة وعلى البشر.

وخلال كل هذه الزيارات واللقاءات الشعبية لم ترَ أباك سوى مرتين، واحدة حين عقدت مؤتمرا شعبيا في بيتك الذي تربيت فيه لتقف أمام الجميع بكذب وتقول:

- أنا ابن هذا المكان، ابنكم.

ويومها لم تذهب إلى بيت أبيك إلا بعد أن اتصلوا بك يخبرونك أن كل شيء جاهز، حين وصلت وقفت بجوار أبيك، وضعت يدك على كتفه كأنك تضعها على حائط أو حافة كرسي، لم تكن تشعر بأبوته ولا به، وحين انتهى المؤتمر واللقاء غادرت فورا دون حتى أن تنظر إلى وجهه.

أما المرة الثانية حين جاءك هو ذات لقاء جماهيري، ولأنك أمام الناس وقفت رحبت به وأجلسته بجوارك، مال عليك هامسا:

- كنت محتاج فلوس.

وقتها شممت رائحة ملابسه القديمة وعرقه الذي كرهته كثيرا حين كان يقبض على عنقك بعنف ناحيته ليضربك على ظهرك ومؤخرتك وأنت صغير.

أمرت أحد رجالك أن يعطيه مبلغا لا يكفي لشيء وغادرته ولم تره.

ورغم أنك على يقين من أنهم لا يحبونك ولن يعطوك أصواتهم إلا أنك نجحت ودخلت البرلمان على أجسادهم لا على أصواتهم وأصبحت عضوا بحصانة تمكنك من إكمال نشر شرّك.

هكذا تعاملت مع أعدائك كالقطار تقش كل من يقف أمامك لا تعترف بإشارات المرور لا حمراء ولا خضراء ولا صفراء، فقط تعترف بإشارتك أنت، تلك الإشارة السوداء التي يتحرك مؤشرها بفعل حقدك وعُقدك.

***

خرجت من المستشفى على يمينك كتف حسن أبو علي نقيضك، وعلى اليسار كتف صديقه عصام الذي قدّمه لك على أنه أخوه الذي لم تلده أمه.

كنت تتأمل الداخلين إلى المستشفى الحكومي بلهفتهم وقلقهم وكأنك في كابوس لم تفق منه بعد.

ما زال رأسك يدور بعكس وعيك وتدور معه الدنيا وأشياؤها، وما زالت عظامك تئن وكأنك قادم لتوك من الموت، ركبت في الخلف وجلس حسن بجوار عصام الذي قاد سيارته وانطلق إلى ضجيج الشوارع ورحت تبحث عن بواقي رياض زمان عبر اللافتات وصورك التي بهتت وتآكلت أركانها، عبر من رموك بعيدا

عنهـم، الذين بالأمس القريب كنت منهـم والآن أنت على هامشـهم في مكب نفاياتهم.

حيـن وصلتـم إلـى مدخـل المقابـر كان كل شـيء مختلفـا عن وصولـك الأول، ثمـة علاقـات وحبـال مُـدت بينك وبيـن المكان وثقت الوشائج وعمقتها.

كل شـيء في المكان به منك شيء، مقهى «متصبرنيش»، كشك حيـاة، وحتى هـؤلاء العيال الذيـن أرهبوك في دخولـك الأول لهم عنـدك شـيء، فقط تلك الرائحـة كانت أقوى من أن تهضم بسـهولة أو تُستساغ.

غريبـة نظـرة أهل المـكان لك وأنت الـذي ما زلت بالنسبة لهم غريبا، الكل يلوح إليك، ينثر عليك ابتسـاماته وجمله التى لم تسمح لك سرعة السيارة أن تلملم حروفها:

- حمد الله ع السلا... مة.

وصلـت إلـى باب حوشـتك الـذي ازداد حيـاة ولمعانـا بعد أن غادرته صفرة وشحوب الموت، خرج درديري مسرعا من الداخل، مغبـرا، وكأنه وصل مـن مارثون للجري، ومن خلفـه خرجت حياة باشة سعيدة، أدخلوك بحنو لم تشعره منذ مجيئك إلى هذه الدنيا.

لم تكن حوشتك كما تركتها يبابا، خربة، بل تأسست بلغة الحياة، سرير في الزاوية فُرش عليه غطاء بوردة حمراء كبيرة في المنتصف ودوائر حمراء وخضراء على الأطراف، طاولة بلاستيكية بيضاء وأربعة كراسي بنفس لونها، دولاب، خزانة ملابس بـ«ضلفتين».

في المكان تفوح رائحة أنثى، نثرتها حياة، بوهجها وحيويتها التي تكفي لإحياء موتاه.

أراحوك، ووضعوا بجوارك كيسا بلاستيكيا يحوي أدويتك، وكرر حسن عليك وصايا الأطباء:

- مفيش سكر ولا ملح ولا توتر، راحة وهدوء فقط.

غادر حسن مع عصام وتركاك لحياة التي وضعت صينيتها أمامك وراحت تضع في فمك طعاما ورحمة وشفقة، أما درديري فانشغل بإكمال ترميم المكان أو قتل موته وإعادة إحيائه من جديد، يرشرش الماء في الأركان التي اهترأ بلاطها وطفح ترابها، ويزيل بمقشته القشر الذي نضح ورشح على جدران الحوائط، الكل كان مشغولا ببث الحياة فيك وفي محيطك وأنت مشغول بمحاولة فهم مَنْ حولك:

- هؤلاء الناس طيبون أم ساذجون؟! لماذا يفعلون معي هكذا رغم أنهم لا يعرفونني؟!

لأنـك لا تحمـل داخلـك القامـوس أو المعادلـة التـي تفك بها شفرة أسألتك، تفشل دائما في الوصول إلى إجابة، وتفشل أيضا في تضبيط علاقتك معهم، بل تعود إلى خطتك القديمة، الموت:

- لـو ظلت هـذه الحميمية وظـل هؤلاء الناس قريبيـن مني فلن أفلح في قتلي!

قررت أن تبحث عن طريقة ومبرر مقنعين لهم أولا في أن تبتعد، تقطـع تلك العلاقـة وتهدم ذلك الحنـو، تقتلع شـجرة الرحمة التي زرعوها بحنانهم في أرضك التي ظلت بورا، يبابا أمام الخير ومليئة بالحنظـل والشـوك الـذي احترفـت زراعته فـي سـنينك الماضية.. ولكن كيف؟

كيف وأنت تشعر أن ثمة لينا ورحمة بدآ يتسربان إليك؟

لأول مرة تشعر بذلك الجفاف الذي داخلك، يجتاحك إحساس بظمأ وكأنك لم تشـرب منذ ميلادك، تشعر بقطرات ذلك الماء، ماء الحياة يبلل طرف لسـانك، هل تكمل؟ وتمد كامل اللسـان والوجه والجسد صوب الماء أم تمتنع، تهرب، تصر على الظمأ؟

وعيك بالتجربة مبتور الآن!

تخاف أن تقل عزيمتك وتفتر، تخاف من آفة التعود التي راهنت عليها في سـنينك الماضية وأنت تتعلم فلسـفة التعامل مع الشعب، مع الغوغاء أو الهمج كما كان يحب أستاذك أن يناديهم.

كنت تعرف أنهم حينما يثورون ويغضبون ويخرجون كأنهم طوفان كفيل بتحطيم كل شيء، كنت تعرف أنهم سيهدأون، ثم يجلسون، يفكرون، فيملون، ومن ثم يتعودون، وهكذا، الصبر وطول البال علاج المرض العضال.

أنت الآن تخاف أن تهدأ، تجلس، تفكر، تشعر بالملل، ثم تصمت وتتعود، تعود الحياة هنا، في المقابر، تصبح واحدا منهم، وربما ينتهي بك الحال حفارا للقبور أو بائعا للورد، أو تتزوج حياة وتفتح بجوار كشك فولها كشكا آخر تبيع فيه الشاي، ثم تموت وتدفن كالكلب لا يعرفك أحد.

تقف مفزوعا، تسير بتعب ناحية الحوض الذي يتدلى منه صنبور ماء وتعلوه مرآة تُطفئ بعض نارك، تنظر إلى ذلك الوجه الذي يقابلك في تلك المرآة، تستغربه كثيرا.. من ذبول العينين اللتين انحاز بياضهما إلى نفس درجة بياض الساكنين في هذا المكان، بياض باهت، بلا لمعة، مخيف، تحدق أكثر، قلّ وصغر سوادُ العينين وانكمش، تراجع لصالح البياض، أنت الآن تفك شفرة تشابه عيون الساكنين في المقابر، ولكن لماذا؟ لماذا يتراجع سواد العينين؟ لماذا ينكمش؟

تذكر كلمة قالها درديري ذات فضفضة:

- إحنا خفنا، خفنا جدا جدا لغاية ما خفنا من الخوف، لغاية ما سرق لمعة عنينا وفرحة قلوبنا.

يااااه! أنت الآن واحد منهم، لك نفس العيون، ولك نفس القلق، تنتفض، تستدير بعيدا، تقرر أن تموت، والموت يعني أن تبتعد عن هـؤلاء الطيبين أو السـاذجين، المهـم أن تبتعد. تبتعد أيضا عن ذلك الدواء، لا تتناوله، فتحطم ذلك الجسـد الذي استقويت به كثيرا في سنينك الماضية.

تذكـر وقتها حين عدت إلى سـريرك، واسـتلقيت بتعب، لـم تدرِ سوى بتلك السحابة السوداء التي تأتيك في حالات الوهن والقلق، تأتيك بغتة، تحط عليك، تجثم فوقك، تكتم أنفاسك، فتُدخلك حالة البين، فلا أنت نائم ولا أنت مسـتيقظ، قدم في ملكوت النوم بخدره ولا زمانيته ولا مكانيته، وأخرى في ملكوت اليقظة والوعي.

تـدري وتعي كل شـيء لكـن غير قادر علـى أن توقـف أو تزيح تلك السـحابة، غيـر قادر على أن تنحـاز لإحدى الحالتيـن، تنام أو تستيقظ.

جربت كثيرا أن تردد بعضا مما تحفظه من آيات القرآن، حاولت وفشـلت، لـم تتذكر شيئا، كانت الأحرف ثقيلة غريبه تأتيك من بعيد وتمـر أمامـك ببطء كالطيـور البيضـاء وحين تحاول أن تمسـك بها تهرب، تتلاشى، تختفي، تعرف أنك لست طيبا بما يكفي.

استسـلمت ورحت تتابع الصور والأشباح التي تتراقص أمامك في بؤرة النوم، اللا وعي، تختبر يقظتك بأنك هنا، في حوشة بجوار قبر أبيك، عاجز عن فعل أي شيء، أي شيء.

***

رفض الشيخ زوزو، صاح وهلل حين عرف أنه سيجلس بجوار علي منولوج، وأصر على الجلوس بجوار كوكو «الرقاصة»:

- لأنها بتقرأ لي اليفط الموجودة على الطريق.

ضحك الجميع، تحرك علي بعيدا وترك له المقعد المجاور لكوكو، انطلقت الميكروباص تعلوها الآلات الموسيقية وبداخلها أعضاء الفرقة.

الفجر في المقابر مخيف، مختلف عما يراه من يعيش خارجها، هدوء مفخخ يشعر من يعيشه أنه واقف على فم بركان أو فوق لغم يريد أن ينفجر، وحده علي انتبه إلى هذه الحالة، أما بقية الفرقة فالكل انشغل بتحضيراته أو نقاشاته باستثناء الأسطى شعبان العواد، الذي ألقى رأسه فوق المقعد، وأسدل على عينيه طاقيته ونام، أما الشيخ زوزو فانكمش بالقرب من كوكو، التصق بها مقربا أذنيه بحجة الرغبة في سماعها، هي كانت تعرف حججه في القرب لكنها تركته مستمتعة بنكاته وقفشاته:

- الشيخ زوزو الوحيد اللي يقدر يضحكني.

هكذا كانت تردد دائما، وهي التي إن جلست وحيدة لنصف دقيقة تنزف آلاف الدمعات، امرأة مريضة بالبكاء، ولأن علي يعرف ذلك ترك الشيخ زوزو يحتل مكانه بالقرب منها، هو يعرف أنها إن جلست بعيدة عن الشيخ زوزو فستبكي، وتصل إلى طنطا حيث

الفـرح بعينيـن منتفختيـن، حمراويـن، ومزاجها مقلـوب على نكد وتضيع الليلة.

كلمـا أوغلـت الميكروباص في السـير هـدأ الضجيج وانشـغل الجميع بنفسـه وارتخت الأجسـاد من رجرجات السيارة، وأُغلقت الجفـون علـى صوت الشـخير، وقلت نـكات الشـيخ زوزو بعد أن أصرت كوكو على الفضفضة، قالت له:

- سيبني أتكلم...

لأول مـرة لا يندفـع الشـيخ زوزو خلـف اشـتعال جسـده حين يجاور كوكو، هي وصوتها وما يتاح من لمسها المحرك والمحرض والمفجر لرغبات الشيخ زوزو، هي مادة الأحلام الجنسية في النوم وفي اليقظة، هي من تشـعله وتطفئه، ورغم ذلك ابتعد بجسده قليلا واقترب برأسه أكثر بعدما فتحت خزان ماضيها:

- وحيـدة أنـا منذ فتحـت عينيّ على هـذه الدنيا، يتيمة بلا سـند ولا حضـن، وحده جلال الذي أدخل في قلبي الونس، وقتل بحنيته وحشة الدنيا وقسـوتها، تجاورت طفولتنا منذ مجيء أسرته لتسكن بالقرب من خالتي حيث كنت أعيش، شـيء ما قربنا، ومع كل ساعة ويوم ينضاف إلى عمرنا كان القرب يزداد، حتى أصبحنا شيئا واحدا، كيانا واحدا، وحين توفيت خالتي، وجارت علينا الدنيا أكثر ازدادت وحدتـي بعدمـا طردني زوج خالتي خوفا مـن أن أرث معه في ذلك البيت فلم يكن لهما أبناء.

هربت إلى جلال الذي كان يكبرني بخمسة أعوام، وقتها كان في العشـرين، اسـتطاع أن يعمل وتزوجنا، وعشـت معه أحلى لحظات عمري، جعنا ولم نشـعر بجوع، تشـردنا في الشـوارع وكنا سـعداء، حتى عمل سـائقا عنـد أحد الأغنياء في الصعيد وأنـا معه ظللنا عدة أعوام لا نصدق سعادتنا، يغيب أسبوعا ويعود ليجدني أشعل شموع الدنيا له.

عدنـا إلـى القاهـرة وراح ينتقـل من عمـل إلى آخـر، وذات ليلة جاءني الخبر الشـؤم أن السيارة التي كان يعمل عليها انقلبت ونقلوه إلى المستشفى، حين وصلت إلى المستشفى كانت روحه تنتظرني، ابتسم لي، وقال:

- سامحيني.. تركتك لوحدك، ماتنسينيش، تبقي تزوريني.

قالهـا ومـات، وأخذ روحي وعمـري وفرحي وعـزي، أخذ كل شيء معه.

دفناه في مقبرة أبيه في مقابر الغفير، وظللت يوميا آتي في الصباح أجلس بجواره، فوق قبره، حتى المساء، ثم أتركه وأغادر، في إحدى المرات لحقني الزفت علي وراح يعرض المساعدة، ويكذب، حتى سـمعت كلامه، وسـكنت فـي المكان، ثـم أطعته وعملـت معه في الفرقة أسـاعدهم، أطبخ لهم، أسـافر معهم، ثم طلب مني أن أغني، رفضت فأصـر وهددني بقطع المبلغ الذي آخذه فوافقت، ثم فرض

علـيّ الرقص وأجبرني فرقصت بفسـتان أسـود طويـل ومع الوقت تحول الفسـتان إلى بدلة رقص مسـتورة ثم بدلـة عارية، حتى انتهى بي الحال من كريمة، إلى كوكو الرقاصة.

أنهت الكلمة بحزمة دموع كانت مدخرة خلف قصتها، فخرجت مرة واحدة أغرقت وجهها، ابتسم الشيخ زوزو:

- معلش ماعدش عندي دموع كنت اعيط معاكي!

ضمها ناحيته، وراح يهدهدها بحنو ولهفة.

مـع نهايـة القصة كانـت طنطا بـكل ضجيجها وزوارهـا وباعتها ومريدي السـيد البدوي، الكل حاضر أمامهم، اسـتداروا ناحية بلدة الشـيخ زوزو ليوصلوه، ثـم ينطلقوا صوب البلـدة الأخرى التي بها الفرح والعرس، على أن يلتحق بهم الشـيخ زوزو وحسين ابن أخيه في المساء ومعهما «الزوادة» ليعودوا سويا في نفس الميكروباص.

***

الأرض أم تلد وتأكل أبناءها!

هذا ما أراد كل الساكنين في مقابر الغفير أن يقولوه.. لكن اللغة ووسائل التعبير خانتهم، الأرض أم لأنها تلد وتبتلع بلا أية شفقة كل يوم أبناءها الواحد تلو الآخر، القبور أفواه الأرض الجائعة، الجشعة، وحركة القبور تسير بعكس أرحام النساء، القبور حين تفتح تبتلع، تأخذ، والأرحام حين تُفتح تُخرج وتعطي.

بهذا الفهم والرؤية تتضح بداية الكون وتتضح أيضا نهايته برغم الصعوبة التي قالها المفكرون حول دائرية الكون التي لا يمكن تحديد نقطة بدايته ونهايته.

الحياة بين فمين، فم يلد ويعطي وفم يبتلع ويدفن، هذه أشياء أحسها حسن أبو علي، سرح كثيرا وهو ينفخ دخان سيجارته محاولا أن يعبر أو يترجم هذا الفهم لكنه فشل، انتهت سيجارته ولم يصل إلى ترجمة لما يشعره في جملة لغوية تختزل ما يريده، لكنه ولطاقة في داخله تدفعه صوب الحياة لا يعرف إلا شيئا واحدا وهو أنه يريد أن يحيا، يعيش، يريد أن يعوض أيام السجن، وسنين العقاب.

كان يعمل في ورشة عصام صديقه ورفيق دربه ومهنته الذي صان العيش والملح كما كان يردد دائما، تزاملا في صباهما وتشاركا في شبابهما في تلك الورشة التي سُرقت تحت ستار صلة الدم والقرابة، ورغم أنه كان لحسن النصيب الأكبر إلا أن عصام لا يذكر يوما أنهما جلسا ليتحاسبا أو ليكتبا ورقة أو عقدا يفصل بينهما، بل ظلت أوراق الورشة كاملة باسم حسن، ولو كانت عقودها مشاركة بين حسن وعصام ما نجح أبناء عمومة حسن في السيطرة عليها وسرقتها.

بعد دخول حسن إلى السجن لم يكن أمام عصام سوى البحث عن مكان آخر حتى نجح في هذه الورشة التي بعد عناء ومجهود كبير أصبحت ملكا له.

- يا أبو علي أنت تيجي هنا صاحب مال، معلم كبير وكلنا صبيانك.

هكذا كان عصام يقول لحسن ليشجعه على المجيء رغم انشغاله بالبحث عن ورشة تكون البداية التي ينطلق منها ليعوض الأيام السابقة.

فجأة سمعا جلبة وهتافات، سباب وصياح في خارج الورشة.

خرج عصام ومن خلفه حسن، كان حنفي أخو إيمان ومعه بعض رجاله يسبون حسن قائلين:

- حسن خطف إيمان، ولازم نقتله.

صمت حسـن، لم يستطع تكوين أي رد فعل، فقط كانت مخيلته تمتلـئ عن آخرها بكيان اسـمه إيمان، تحرك ترمومتر رأسـه صوب الشك فيما يمكن أن يكيده حنفي:

ربمـا قتلهـا، أو أرسـلها عنوة إلـى أقاربه في الصعيـد وهو الذي طالما هددها بذلك.

كل ما مر أمامه لم يكن محرضا سوى على القلق والخوف.

قفـز فجأة كمن صعقه ماس كهربائي، قبض على رقبة حنفي غير عابئ بالبلطجية المحيطين به:

- تعرف لو إيمان حصلها شيء أقسم بالله لأقطعك قطعا صغيرة وأرميها للكلاب.

اندفـع بلطجيـة حنفي صوب حسـن رافعين ما فـي أيديهم لكن عصـام والعامليـن معه في الورشـة كانوا أسـرع فوقفـوا حائلا دون الوصول إلى حسن.

دارت معركة وسباب وتشابك بالأيدي حتى نجح عصام بهدوئه المعتـاد في تهدئة الوضع؛ ليعرفا في النهاية أن حنفي حين اسـتيقظ لـم يجدها في البيت ووجـد خطابا تقول له فيه إنهـا هربت لأن بيته أصبح سجنا كبيرا!

***

شـوارع القاهرة غابة كبيـرة مملوءة بالوحوش التي كشـرت عن أنيابهـا، ترى في كل مار وسـائر فريسـة، الكل يريـد أن يلتهم الكل، بحر أسماكه الكبيرة تأكل أسماكه الصغيرة.

هكذا أحسـت إيمان وهي تتعثر فـي الخطى على أرصفة متآكلة صـوب اللا شـيء واللا هدف، رغم أن حقيبتها لـم تكن ثقيلة؛ فهي لم تأخذ معها كامل ملابسها إلا أن كتفها أرادت أن تغادرها وتسقط بما عليها، أنزلت الحقيبة لتترك كتفها تسـتريح، وقفت أمامها سيارة فارهة، أطل منها أحد الوحوش، أخرج وجهه وكشر عن أسنانه:

- الحلو تعبان؟! اركب أوصلك!

أدارت له ظهرها، كرر رزالته ثم غادر.

شـنقت حقيبتها فوق كتفها وغادرت، كانت تسـير بلا أي هدف في الشـارع الذي لا تتضح نهايته، لم يكن في رأسـها سـوى حسـن وطيـف حسـن، بعد وفـاة أبيها لـم تشـعر بخميرة الأمان هذه سـوى بجواره:

- إنت فين يا حسن؟!

جملـة خرجت من فمهـا معجونة بدموعهـا، تلفتت حولها لعل الصدفـة تفعل فعلتهـا، وحدها الوحـوش التي تسـرح كالدود على أرصفة الطريق.

ألـم وخـدر كتفها انتقل إلـى قدميها، راحت تهـدئ الخطو نحو بطء مريض، وبعكس كم وكيف التدرج نحو البطء في السير كانت الذاكرة تهرول مسرعة إلى الوراء، إلى طفولة مبتورة!

إلى أم توفيت بعد بضع سنين من ولادتها، وأب مات فجأة ذات صباح ليتركها مع أختها التي آنسـت وحدتها حتى تزوجت وبعدها لم تجد ملجأ ولا مخرجا سـوى أخيها حنفـي، جاءت إلى القاهرة، شـاركته بيته الضيـق وقلبه الأضيـق ورزقه الأكثر ضيقـا، وتحملت تأففـه، وضجـره من الدنيا ومنها، صمتت كثيـرا إلى أن تعرفت على حسن أبو علي ذات يوم حين كان أخوها حنفي يعمل معه في ورشته القديمة، كانت وقتها تحتفي بأنوثتها في أول إشراقة لها، تتذكر أول لقاء بحسـن حين نظر إليها كثيرا وأحضر كرسـيا، أجلسها حتى جاء أخوها، مازحها ومازحه:

- خلاص يا حنفي لازم نكون نسايب.

ضحك حنفي، خجلت إيمان، واسـتدار حسن إلى أحد الزبائن، مـا كان يـدري أبو علي أن النكتة سـتصبح حقيقة ذات يـوم، ما كان يـدري أن حنفـي الصديق سـيتحول إلـى عدو بعد أن شـارك عصام في الورشـة، اعتبر حنفي أن حسن فضّل عليه عصام لذا تشاجر معه وغـادر، رفض أن يعـود، ازداد العداء مع العنـد ووصل مرات كثيرة إلى شجار على أي مقهى يجمعهما صدفة.

مرت السنون والتقى حسن إيمان ذات صدفة، تحدثا كثيرا، كانت أكبر وأجمل وأنضج مما رآها أول مرة، تواعدا على اللقيا، وتكرر الحديث إلى أن وصل إلى شوق وحب معلن، فقرر حسن أن يدخل البيت من بابه، لكن حنفي أغلقه في وجهه، وما زال الباب مغلقا.

استفاقت إيمان على سيارة بها وجه قرد، يراودها:

- تعالَ يا جميل، إوعي تكوني غبية عاوزه تتجوزي؟!

لأول مرة كانت إيمان ترى الدنيا بهذا الضيق، هي رأتها كثيرا ضيقة، لكنها المرة الأولى التي تراها بهذا الكم من الضيق، فعلا كثقب إبرة كما يقولون، قفز إلى ذهنها وجه صديقة عمرها آمال التي تزوجت مَنْ أحبت منذ سنين وسكنت في غرفة صغيرة في شبرا، مدت يدها في حقيبتها، تحققت من أن ما تملكه من مال يكفي لأجرة تاكسي، ركبته، غادرت إليها، حين وصلت أرادت أن تعود فجأة بعدما رأت الحجرة الضيقة التي تعيش فيها هي وزوجها وولداها، ورأت بؤس الحال ورائحة الفقر التي تنتج عصبية لا تنتهي، جلست، حكت لها عن الوضع وأنها تركت البيت وهربت:

- أنا آسفة.. المكان يادوب مكفينا.

اعتذرت إيمان وغادرت، عادت إلى الشارع، وحوشه، سياراته، عادت إلـى تناقضاته، أغنيائه وفقرائه، إلـى المعبئين في علب كبيرة اسمها أتوبيسات القاهرة تفوح منهم رائحة عرق العمال والموظفين المطحونيـن الذيـن يلقـون بعيونهـم خارج نوافـذ الأتوبيـس علها تصطـدم بمطعم أنيق أو بسـيارة فارهة، أو محل ملابـس، نعم قالها حنفي ذات يوم وهي تغسل له بدلته الزرقاء الملطخة بالشحم وزيت السيارات:

- معلش ريحتها عرق فقراء محرومين.

وقتهـا شـرح لها أن أجسـاد الأغنياء تفـوح منها رائحـة غير التي تفـوح من أجسـاد الفقراء، أكد لها أن للفقـراء رائحة وللأثرياء أيضا رائحة، عرق مشبع بالامتلاء والامتلاك والشبع.

لـم تتوقـف وجـوه الحيوانـات التـي تطل مـن نوافذ السـيارات تلقـي بعروضهـا وتغـادر، يكـررون جمـلا واحـدة وكأنهـم جميعا اتفقوا عليها، أحسـت بخوف يعتريهـا بعد أن تدرجت العروض من الاسـتظراف إلى التلويح بتهديد، ازدادت شراسـةُ العيون حين حل الظلام وراحت المدينة تتسربل في بريق فتارينها:

- الناس وحوش تزداد شراستهـم في الليل.

هكـذا أوصاهـا أبوهـا قبل وفاتـه، وأخوها قبل قسـوته، لم تجد مخرجا حين فكرت كثيرا سـوى وجه حياة بحنيته، ألقت بنفسها في أقرب ميكروباص، وارتخى جسدها من التعب.

***

فرح حسن كثيرا حين أخبرته حياة أن إيمان موجودة، انطلق مع عصام إلى حنفي.

- وجدناها... هي مع حياة الآن.

قالها حسن بلهفة أسقطت بعض حروف كلماته فالتقف عصام ما سقط من حروف، وأكمل الجملة، لم يتوقعا أن تكون ردة فعل حنفي بسوء نية كما ظهر من رده:

- دي مسرحية رتبتوها سوا.

خرج عصام عن هدوئه المعتاد، قبض على عنق حنفي وكاد يضربه، صرخ حنفي في وجه عصام:

- ابعد أنت يا وش الفقر.

ما زال حنفي يعتقد أن عصام هو سبب توتر العداء والكراهية بينه وبين حسن، بل ويؤكد للجميع أن خبث عصام أبعده حتى لا يدخل في شراكة الورشة القديمة مع حسن.

تدخل حسن ليهدئ الموقف رغم حنقه وضيقه.

عادوا مسرعين إلى تلك الحوشة التي تحوي حياة وبقايا إيمان التي انكمشت على نفسها، مكسورة، تكورت على ذاتها، تحملق في البعيد وكأنها تقرأ شيئا مكتوبا على سبورة وهمية وحدها كانت تراها.

تجتر تجربة الهرب، تحاول أن تهضم شراسة الشارع ووقاحة الوحوش التي تطل دائما من نوافذ سيارات كلما ازدادت رفاهية ازداد مَنْ بداخلها شراسة.

حين وقعت عينا حنفي عليها انفلت ناحيتها كثور هائج لا يخفي رغبته في قتلها بل أعلنها صراحة:

- هاقتلك واشرب من دمك.

هكذا يهدد الناس وهكذا يتوعدون، ميراث من الدموية لجهل فيهم لا يخفونه!

وقفت حياة أمام شرّه، مكشرة عن أنيابها، متخلية عن طيبتها وسكينتها وحين تمادى في اندفاعه وتهوره جذبه حسن من ملابسه، أجلسه عنوة.

الكل لفه الصمت، وحدها إيمان كانت لما تزل تقرأ على سبورتها ترانيم التعب.

قطع عصام الصمت بتكرار طلب يد إيمان لحسن، ذكّره بالعشرة والعيش والملح، أقسم عليه بكل مقدس أن يُنحي العند جانبا.

قاطعه حنفي بكراهية:

- إيمان ليها بيت تتخطب منه.

ذكره حسن بأن البيت أُغلق بابه مرات عدة في وجهه.

بتر حنفي بضيق الحوار وطلب أن يأخذ أخته ويغادر، حذره حسن من أن يصيبها بمكروه، وهكذا حياة وعصام.

وقفت إيمان تصرخ:

- أرفض البيت اللي يكون فيه أخويا هو سجاني.

وبعد توسلات وسباب ووعود غادرت إيمان مع أخيها صامتة، يائسة من ذلك الوعد الذي قطعه حنفي على نفسه بأنه لن يؤذيها، وأنه سينتظر حسن الأسبوع المقبل لطلب يد إيمان من جديد، والرد سيكون في وقته، إيمان لم تعول كثيرا على أخيها لأنها الأعلم بنفسيته.

***

الأفراح في الريف زوبعة تُخرج المكان من طقسه الهادئ والرتيب، تعيد للناس حيويتهم المفقودة فينتشون بها كثيرا وتجري الدماء في عروقهم اليباب، يتجمعون في تكتلات أمام المسرح الذي أُقيم في أوسع ساحة تتوسط البلدة، مسابح النور تحف المكان فيزداد وهجا، حين تحلق كوكو ببدلتها في فضاء المسرح تعلو صيحات الرجال:

- قشطة!!

النساء يطابقن أنوثتهن على رجرجات جسد كوكو، يمتعضن إذ يدركن أن مؤشر الأنوثة لا ينحاز إليهن، حين وصل الشيخ زوزو في سيارة حسين ابن أخيه، لم ينتظر أن تقف السيارة، قفز مسرعا تجاه الجلبة والضجيج وصوت الموسيقى الذي يرشرشه مكبر الصوت على الناس، لحقه حسين مسرعا بعد أن اطمأن على أنه أغلق أبواب سيارته «البيكب» جيدا على روائح المشلتت والبط والقشدة، لحق بالشيخ زوزو مسرعا وهو يضحك:

- وكأنك بتشوف يا عمي!

كان شكل الشيخ زوزو بجبته وقفطانه وعمامته وملابسه الأزهرية نشازا وسط الحضور الذين يرفعون زجاجات «البيرة»، وتعلوهم سحابات دخان الحشيش والبانجو، الكل راح ينظر إلى الشيخ الأزهري يترنح على دقات الطبل البلدي ويحدق في الراقصة، وهو لم يكن يعرف كمّ سهام العيون المسلطة عليه، أكمل هرولته حتى وصل إلى المسرح، وراح يتمايل، تعجب الحضور أكثر حين ابتسمت له كوكو الرقاصة، بل استدارت ناحيته وكأنها ترقص له فقط، أما هو فبدا أنه لا يرى أي شيء سواها، أغرقته تعليقات الناس حتى انتهت فقرتها وبدأ علي منولوج يبعثر جمله غير المفهومة على الناس:

- الحياة لحظة والأذكياء وحدهم قادرون على إدراكها كما قال ماركوس.

علي كان يقصد «ماركس» رغم يقينه أن ماركس لم يقل هذه الجملة، بل لا يعرف مطلقا ما الذي تعنيه رغم أنه سمعها ذات جلسة من مذياع عابر، لكنه يصر بلا وعي على أن يسوق نفسه للناس كمثقف، والمثقف بالنسبة له ذلك القادر على ترديد أسماء الكبار، علي لا ينسى اللحظة التي ظل فيها يحفظ أسماء أشهر المفكرين الذين كتبهم له صديقه الشاعر والمثقف في الجامعة: ماركس، نيتشه، لينين، ميكافيللي، جان جاك روسو، شكسبير، تولستوي، تي إس إليوت، وغيرهم، رغم ذلك لم يذكر يوما أيا من هذه الأسماء وغيرها بشكل صحيح، فماركس أصبح مرقس.

حين يكرر علي ذكر هذه الأسماء على خشبة المسرح، كانت وشوش المتفرجين تكسوها مسحة من تعجب وغباء، صمت ليس مقصودا لذاته، بل صمت لأن الناس لا تعرف ماذا تقول.

ارتفع صوت الموسيقى إيذانا ببدء فقرته، تمايل وراح يغني منولوجه الأشهر:

«بالعند في الفلول والحب للطعمية

وصابون للدقون وكلونيا للداخلية»

أصوات زجاجات البيرة ودخان الحشيش والبانجو وضحكات الذين تخدرت رؤوسهم لم تجعل كلمات منولوجه تصل إلى الحضور، بالغ في الرقص، وفي الغناء وفي الضحك، حتى انتهى.

كـرر علي مقولاته ذاكرا أسـماء مـن يختفي وراءهـم أو يحتمي بقدرهم وبشـهرتهم أو من يريد أن يشـاركهم أهميتهـم، ثم بدأ يتلو نكاتـه بتمثيـل وبكاريكاتورية مبالغ فيها، لـم يضحك أحد بل هتفوا فجأة باسم الراقصة:

- الرقاصة فين؟!

لـم يكـن يعنيهم الاسـم ولا الصفة بل يعنيهم فقط ذلك الجسـد والحالة التي يتحرك عبرها، هم يرون أجسـاد نسـائهم ولكن يرونها سرا؛ لذا يبقى مشـاع الرؤية هو المحرض، يرون جسدا عاريا وسط طوابير العيون المسلطة عليه.

أمـام هتـاف الجميع تراجع علـي تاركا المسـرح بكامله لكوكو التي دخلت تجرجر خلفها وشاحا طويلا من الدانتيل وكأنها أجنحة لتنين خرج من وكر أسطوري.

اقتـرب علـي من الشـيخ زوزو وحسـين ابن أخيه بعد أن جلسـا خلف الفرقة الموسيقية، مازحهما:

- أخبار المشلتت أيه؟!

طمأنه الشيخ زوزو وكرر عليه:

- خليك حلو وبلاش ثقافة، سيب الناس تفرح وتتفرج يا مثقف ياعضوي!

علا الضجيج والمزاح والرقص والغناء، تحوّل الوضع إلى دوامة أو عاصفة أو تسونامي، الكل يدور في نفس الحالة، الصياح والهتاف إلى أن دارت كوكو حول نفسها كثيرا ثم توقفت فجأة لتُنهي فقرتها، ويدخل علي مرة أخرى. راح يكرر بعمد مقولات وأسماء الفلاسفة والمشاهير إلى أن وصل إلى «نيتشه» قفز الشيخ زوزو:

- بلاش دا!

لكن علي استمر وكأن الأسماء علقت في لسانه، هاج المكان على صوت ابن صاحب الفرح، ارتفعت العصي وطارت المقاعد في السماء، لم يكن علي يعرف أن ساكني المكان ينطقون الشين كافا «ش...ك»، يعني نيتشه بالنسبة لهم تنطق: «نيـ...هـا» إذا تصورنا الكاف مكان الشين.

***

رفض حسن هذه الليلة أن يشارك درديري صحبته إلى دار القوات الجوية لحضور فرح، ثم الإتيان بورد «الكوشة»، ورد الفرحين ليبيعه في الصباح بقروش للحزانى:

- فُرجة وأكل عيش.

كما كان يحب درديري أن يقول، شعر حسن أنه أمام تحدٍّ آخر وهو الذي عاش بقلق وخوف من ضياع ما يحبه، بعد أن راحت

ورشته أمام عينيه وقبلها راح أبوه وراحت أيام عمره في السجن يعدها يوما يوما خطوطا على جدار زنزانته.

دار في الطرقات، دخن ثلاث سجائر حشيش، لم يهدأ حتى وصل إلى حوشة رياض، ظهر رياض صامتا حزينا وكأنه لا يرغب في وجود حسن، كان يرد باقتضاب، بضيق، وهو الذي قرر أن يقطع علاقته بهؤلاء الطيبين حتى يتفرغ لقتل نفسه.

دوخة الحشيش وسكرته جعلتا حسن رغم تأفف رياض يكمل، بل يحكي عما حدث لحبيبته إيمان، طلب منه النصيحة باعتباره الأكثر خبرة:

- إذا سقطت المرأة نامت لرجل وإذا سقط الرجل تزوجها!

لم يفهم حسن هذه اللغة الزورباوية، فكرر رياض جملته بفجاجة أكثر طالبا منه ألا يتزوجها، وأنه عمل ما عليه، ذهب إلى أخيها وطلب يدها ورُفض.

- اهرب، لا تتورط، من الغباء أن تشتري سيارة ملاكي وتاكسي الأجرة في كل مكان، اركب وادفع، اركب ما تشاء، تاكسي، ميكروباص، تُكتُك، بيسكلتا!

رد حسن بطيبة:

- والحلال؟!

بسرعة دون تفكير وكأن هناك مَنْ يجيب عنه، بصق رياض جملته:

- الحلال.. حجة الضعفاء، والمرضى والمكبوتين.

كانت لغة رياض تصل إلى حسن كطعنة خنجر، يسبقها ألمٌ، ودهشة، يشعر أن رياض يفتح له نافذة جديدة ويقول له: «طُل، انظر، هذه الدنيا التي يجب أن تراها، دنيا غير التي تعرفها، شم رائحتها، دنيا تُختزل في كومة زبالة، أو مصرف مجاري».

- وعهدي وحبي لها؟!

قالها بعفوية مَنْ يبوح بسر..

بلا أي اكتراث، ببرود المعتاد على الشر:

- نام معاها كما تشاء ثم بقروش قليلة نزله..

- ولو ماتت؟

- لو ماتت خير وبركة، قضاء وقدر!

انتفض حسن راميا كوب الشاي ناحية القبر، خاف إن أكمل احتساءه يتسرب إلى جوفه عطن تلك الأفكار.

انتفض بعيدا عن تلك اللغة و رائحة الشر التي تفوح من فم رياض، اجتاحه خوف خفي من رياض لم يستطع تفسيره، فقط

شـعر كأنـه نحلة خلقها اللـه لتخرج للناس عسـلا، ورياض بأفكاره يريدها أن تخرج سُمًّا.

خرج حسـن غاضبا من حوشـة رياض مبتعدا عن ملكوت شره، يمسك برأسه المتعب أصلا، يسنده كي لا يسقط منه، يجلس، يروح في سـكرة جديدة أو يخرج من سكرة قديمة، شيء ما بين الحالتين، بَيْـنٌ آخر، وأسـئلة أخرى أطلقها حسـن وغادر بسـذاجة أو برقي أو بهبل كما شعر رياض.

كيف لتلك الأسـئلة أن تحلق هكذا بأجنحة الشـك في ذاته التي تربى عليها أو رباها لا يدري؟

ولا يدري إن كان هو صنيعة نفسه أم صنيعة الآخرين؟

هل هو سبب أو نتيجة؟

الأسـئلة التي تركها حسن وغادر، أسئلة بأجنحة، أسئلة كالنسور الجارحـة قـادرة على حمل فريسـتها أو الانقضـاض المفاجئ على مـا تريـد وخطفه والتحليق به بعيدا بعيـدا، التحليق به في عالم آخر، جديد، مختلف.

ريـاض فـي كل مـرة كان يدخل في نقـاش مع واحـد من هؤلاء «الهُبل» أو السـاذجين، السـاكنين هذا المكان. يشعر أنه يرتاد كوكبا جديـدا، دنيـا أخرى، عالـمـا مختلفـا بملامح وتضاريـس وجغرافيا

يراهـا لأول مرة، تختلف عن تلك التي تربى عليها، لم تكن جغرافيا القسـوة والجـدب والتصحر بل كانت جغرافيـا الخصب والخضار والسهول والأنهار والطيور المغردة.

ولـم تكن ناموسـا لمكان يقوم على الفريسـة والصيـاد، لم يكن القوة والافتراس هو ما يحكم المكان كما عاش سـابقا: «إن لم تكن ذئبا أكلتك الكلاب».

لا، بل السائد هنا لا ذئاب ولا كلاب، الكل حملان تعيش بمبدأ الحب والستر وليس الكره والفضح.

ريـاض كان كفرس النهـر الذي أحب الطين إلـى درجة لا يحلو لـه أن يغفو إلا داخله، لم يكـن الطين دليل خير كما كان عند زوربا، ولا دليـل تصالح مع الواقع كما تعامل معه المتصوفة، بل دليل شـر وانحطـاط كما فسـره أهل الصعيد في مصر.. «الطين شـر وفضيحة وعار!».

رياض شـعر بغيبوبة كالتـي تُفضي إلى المـوت، غيبوبته الحالية أو سـكرته أوصلته إلى بَيْنٍ جديد، برزخ يفضي إلى اللا شيء، لكن اللا شـيء هـذا أفضـل بكثير من ذلك الشـيء الشـرير الذي عاشـه سابقا، فلو خرج ذلك الشر فتلك خطوة مهمة حتى لو لم يدخل إلى عكسها أو نقيضها:

- الخروج من الشر دون الدخول إلى الخير خير.

***

الإيـاب ليس كالذهـاب، والميلاد ليس كالمـوت، ولا الصعود كالهبـوط، كل نقيـض الآخر، وكل مقدمة للآخـر ومحصلة ونتيجة فـي آن واحد، بهذا شـعر علي بالرغم من عـدم قدرته على الوصول إلى هـذا التفسير، كانت تلـك المعانـي خلجات وهواجـس مفتتة تبحث عن صياد ماهر يجمع خيوطها.

علـي الصامت الذي يتحسـس رأسـه الملفوف في شـاش، كان عَليًّا آخر غير ذلك الذي كان يبعثر نكاته وضحكاته المصطنعة على أهـل الفرح الـذي انقلب عراكا وضربا على رأســه بعد تعمده ترديد أسماء فلاسـفته ومثقفيه، لم يتعلم علي أن الاحتماء خلف الأسماء حتـى لو كانت مشـهورة وفي قيمة تولسـتوي ونيتشـه وماركس هي وهـم وخيبة، هي كالسـيف في معركة تدار بأسـلحة نووية، سـلاح ليس في مكانه.

لـم يتعلـم رغـم تعـدد الصفـع والضـرب ورغـم الشـحوب والعلامـات التي ارتسـمت على وجهـه، لم يدرك حقيقـة أن الذين يستمدون قيمتهم وقدرهم من خلال الاحتماء في الآخرين واهمون مخدوعون وطيبون أيضا وساذجون.

علـي أدار ظهـره ناحية أعضـاء الفرقة، انكمش، تضـاءل، صغر حتى دخل إلى ذاته، إلى حجرته الضيقة المظلمة التي لا يدخلها إلا وهو في هذه الحالة، طرق الباب حتى فتح له علي الداخل، الساكن فـي هـذه الغرفـة المظلمـة، المعتكف بعيـدا عن ضجيـج الخارج، المتصالح مع نفسه والخائف أيضا.

كان «علـي الداخل» صامتا، حزينا ومتأملا كصوفي أتعبه الوجد وخاصمه القرب، حدق ناحيته، رمقه بشماتة:

– غادرتنـي وتمردت فانكسـرت وانهزمت وعـدت، تعلم مني، جاورني ولا تعد إلى عالمك، إلى الوهم!

لـم ينصـت «علي الخـارج» إليه، تركـه وراح يتجول فـي أركان تلـك الغرفة المظلمة، التراب يغطي كل شـيء، العنكبوت عشـش فـي كل زاويـة وركن، نفض ما اسـتطاع من التـراب، أزاح بعضا من العنكبـوت، رأى أشـياءه القديمـة، «مريلـة» المقهـى البيضـاء ذات الجيوب الكبيرة المليئة ببقع الشـاي والمعسل والكركديه، حملها، قربهـا مـن عينيه المتعبتيـن، عاد إلى أيامـه الأولى فـي القاهرة، إلى براءتـه، قلقه، ضجيج الناس وصياح المعلم صاحب المقهى، تذكر كـم الحكايات التي تطايرت إليه صدفـة، تذكر صديقه الذي جاوره في العمل والسكن، تنهد كثيرا:

– يا ريتها دامت.

باغته «علي الداخل» المتربص به:

- قلت لك كثيرا إن التطلع إلى أعلى يفضي إلى السقوط وإن الطموح وهم الفقراء والضعفاء!

كرهت المقهى ورواده ورائحته، تعاليت عليهم بكونك طالبا جامعيا، حلقت كثيرا في سماء ليست سماءك، وانتميت إلى أناس توهمت أنهم منك فطردوك ورموك عند أول فرصة.

تركه «علي الخارج» وغادر ناحية ركن آخر، مذكراته، كتبه، كراريسه، ذكرياته الجامعية، استوقفه خطاب نام بين صفحات أحد دفاتره وبجواره تمددت وردة محنطة، عاد إلى تلك التي أحبها، إلى «مريم» خميرة الرقة والأنوثة، صاحبة الصوت الجميل.

تعرف عليها ذات نشاط جامعي، يكبرها بعام وتكبره بألف عام في الجمال، تمنى أن يهز نخلتها لتساقط عليه رطبها، تمنى أن تجاوره علّه يسعد بحظها وبرزقها الذي يأتيها من عند الله، تمنى أن يعاضدها إن ظلمها أهلها ورموها بالعصيان، لكن لم يفز سوى بخطاب يحوي قليلا من كلمات رقيقة تقول له: إنها قد تكون أحبته لكن الواقع يحول دون القرب فهي ستغادر فور الانتهاء من دراستها إلى كندا مع أسرتها التي ستنهي خلال أعوامها المتبقية إجراءات الهجرة، وإنها لا تريد أن تزرع في أرض هي تعرف أنها ستغادرها.

تلبســه تعب خانق من أشـيائه التي تُخبئ له فـي كل زاوية وركن لغما وقنبلة ومفخخة تلقيه مرة أخرى أسفل عجلات قطاره القديم، ذلك القطار الذي طالما سحقه، سوّاه بالأرض، لكن لشيء لا يُدركه في ذاته يُبعث من جديد كطائر الفينيق!

نظر إلى «علي الداخــل»، نقيضه، وهَمَّ ليغادر لكن علي الداخل تشبث به، أمسك بملابسه صارخا بعلو صوته:

لن تغادر، سـتبقى معي، لقد تعبت من الوحدة والبُعد، أنت مني وأنا منك، نحن روحان حللنا جســدا، وأنت بغبائك جعلتنا جسدين وروحين، جعلتنا نقيضين، لن تغادر..

زجـره علي الخــارج، دفعه كثيـرا، حاول أن يتخلـص منه، لكن «علي الداخل» كان قويا هذه المرة ومصرا أن يبقيه، واستمرت تلك المعركة.

يذكر الشيخ زوزو، وكامل أعضاء الفرقة أنهم حين وصلوا تعبوا وهــم يحاولون إيقاظ علـي، لدرجة أنهم أيقنوا أنــه دخل في غيبوبة المــوت، ما كانوا يدرون بطبيعة تلـك المعركة التي تدور رحاها في خارج جسده، ولا بأنه يقاتل من أجل أن يعود مرة أخرى.

***

ما وقفت حياة يوما أمام حوشــة رياض وهي تحمل هذه الصينية التي امتلأت بما جادت به قدرتها إلا وارتعدت فرائصها وتسارعت

دقـات قلبها، شـيء خفي غامـض يجذبها ناحية هذا الرجل، شـيء يذكرها بأبيها، بشـعره المخلوط بالشـيب، برغم فظاظته أحيانا لكنّ به دفئا غريبا.

اقتربـت، طرقت البـاب، ارتجفـت أكثر وترجرج كوب الشـاي المغطـى فـوق الصينية الذي تفوح منه رائحـة النعناع الأخضر، فتح رياض الباب بوجه عصي على الفهم، دخلت كعادتها، باشة سعيدة، تمـلأ الدنيـا طاقة وحيويـة، أزاحـت غطاء صينيتهـا، قربتهـا أمامه، أسرعت، أحضرت كيس دوائه، شمرت عن ذراعيها وراحت تقرب من فمه لقيماتها، لكنه أدار وجهه بعيدا عنها وانشغل بما في داخله، أقسمت وألحت، فانفجر غاضبا:

- أرجوكي اتركيني في حالي.. أنا لا أصلح لأي شـيء، لا حب ولا زواج ولا حتى جنس!

صمتـت، غطتها دهشـة المفاجأة وهي التـي ذهبت بمزاج جاهز للبهجـة فدلـق عليها فجاجته، ازدادت دهشـتها حيـن طلب منها أن تغادر، طردها.

خرجت بكسل الصدمة تاركة له دموعها وطعامها، وفي نيتها ألا تعود.

حيـن نظر إليها وهـي تغادر ألصق بظهرها ملاييـن الاعتذارات، أغلـق خلفهـا باب حوشـته، اسـتدار بكامـل إرادته للمـوت، أطاح

بكيس دوائه من فتحة سقفه، وقف أمام مرآته المشوشة، حدق كثيرا، حدق، حدق حتى اقترب من كوة صغيرة، فوجد ابنته بكامل قلقها ونحافتها غارقة في سحابة من دخان سجائرها، تحدق في شاشة كمبيوتر تطفح عليها عريا وعهرا، ناداها بعلو صوته، تجاهلت الصوت، تجاهلته، ولما ألح التفتت إليه، رمقته بنظرة أردته صغيرا حقيرا نادما، نظرة تقول الكثير، أبسطها أنها صنيعته، ضحيته، وضحية ما صنع.

تذكر عراكه مع أمها حين اكتشف صدفة أنها حامل، قالت له بغيظ إن المجاهرة بالخطأ غباء وإن حملها وارتباطها ووجودها معه في قارب واحد خطيئة.

تذكر لحظة مغادرتها إلى كندا لتلد هناك وتحصل طفلتها على الجنسية، تذكر أيضا أنه حينما وصله خبر ولادة ابنته غمره إحساس صعب أن يفسر، غامض، خليط من الفرحة والقلق والحزن، ولما عادت بها تردد كثيرا في رؤيتها، ذات ليلة كشف عن وجهها، رفض أن ينظر إلى عينيها، لم يستطع أن يحدد ملامحها، تذكر أمه وما فعلته به وبأبيه، تذكر أباه بقسوته وبجحوده، وصلته للحظة رسائل تأتيه من عالم بعيد بأن هذه الابنة ستكون عمله الذي سيعذب به وتتم بها إدانته ويكتال له بها كما كال هو للآخرين.

عاد إلى عينيه في المرآة وابتسم بحزن عميق:

- أنا من سلالة الكل فيها مُعذب بأبيه.

استدار بعيدا عن مرآته التي طالما أطلعته على سيئه، تمدد على سريره، أغمض عينيه وبعلو صوته الداخلي صرخ مناديا الموت أن يجيء سريعا وألا يتأخر.

***

على ظهر القبر المستلقي جلس الجميع في دائرة وراحت الأيادي تتسابق في نهش «الفطير المشلتت» والبطة التي تناقصت من أطرافها في غمضة عين.

- ريحة المشلتت هتصحي الميتين.

قالها درديري بتعثر وفمه ممتلئ، أما الشيخ زوزو، صاحب الوليمة، فلم يعلق سوى بسؤال عن «أبو الروض» كما يحب أن يناديه، انتفض وحيد ناحية حوشته، طرق كثيرا لكن لا مجيب، عاد ليلحق بما بقي. وحدها حياة كانت صامتة تحاول أن تهضم إهانته وفجاجته التي أغرقها بها في حوشته، أما حسن فلم يتمالك نفسه بعد أن ابتلع ما في فمه من أن يعلق:

- الراجل دا إما وراه سر كبير وإما إنه مجنون.

لملمت كوكو وحياة ما بقي من وليمة الشيخ زوزو، وبدأتا في تحضير الشاي، أما الشيخ زوزو فراح يروي بكاريكاتورية ما حدث

لعلي منولوج حين ردد أسماء فلاسفته خصوصا نيتشه، وأوضح لهم بلا خجل كيف ينطقها أهل المكان حين يخلطون الكاف بالشين، غرق الجميع في موجة ضحك حتى دمعت العيون.

- إنه يحبس نفسه، من يومها لم يخرج.

صمت الجميع لبرهة وخجلوا من أنفسهم؛ فلم يفكر أحد منهم في الذهاب إليه يدعوه لوليمتهم، تداركت كوكو كاسرة هذا الصمت:

- يومين ويطلع زي القرد.

ضجت الحوشة بضحكهم، علت وارتفعت قهقهاتهم حتى وصلتك فتساقطت عليك من فتحات سقفك، نفضتها بعيدا، استكنت مستسلما لوهنك الذي انتشر ببطء ينخر في عظامك، يفرغها ويُبقي رأسك بخيالاته مترجرجا، تنظر تارة لأمك بملابسها الممزقة تأتيك من بعيد، تناديك، تترجاك أن تذهب معها، تزجرها بقرف، تستدير بوجهك فيأتيك أبوك بعصبية يسبك بأمك:

- انت ابن حرام!!

تستدير بكامل وجهك بعيدا عن الاثنين فتظهر تلك الوشوش التي تترصدك، وشوش الضحايا، المقتولون على مقصلة شرك والمعذبون بها، هم كثر متنوعون ورغم كثرتهم لم تنسَ أسماءهم

ولا أدق ملامحهم، تعجبت كثيرا لذاكرة الشر التي تبقى رغم وهن الجسد، تبقى قوية حادة محتفظه بأرشيفها منظما، هي إرادة الله التي تُبقي الأشرار معذبين بشرهم حين يجافيهم النسيان.

تتذكر تلك الجلسة التاريخية التي انتصب فيها أستاذك رئيس وزرائك كديك ممتلئ بزهو فارغ وأمسك بعصاه الصغيرة المدببة من أطرافها، وحين انخفض الضوء أو خجل لم يخجل هو وبدأ يفند خطته الاقتصادية المقبلة، كانت عيناه مثبتتين تجاه الكرسي الساكن في رأس الجلسة حيث الرئيس بحرسه وحاشيته وكامل الوزراء والنواب.

تذكر أن أستاذك قدمك إلى الرئيس بأنك رجل المرحلة، خبير الاقتصاد والعائد من الغرب بكل تجاربه عبر جولة ومعايشة استمرت ستة أشهر، ابتسم لك الرئيس ابتسامة تحتمل كل التأويلات، فهمتها أولا أنها مشجعة وفهمتها ثانية على أن أمرك مفضوح لديه ويعرف خباياك، وفهمتها ثالثة على أنك قريب من هؤلاء الناس، قال لك بعينيه:

- أنت منا.

بدأ أستاذك يؤرخ لمرحلة البيع بلغتك أنت، ومرحلة النهضة الاقتصادية بلغتهم، كل شيء له وجهان، واحد مظلم والآخر منير،

حتى الشـر يستطيع المنافقون أن يصنعوا من وجهيه المظلمين بريقا ونورا، إنها ثقافة التسويق، «الماركتنج» كما اعتدت أن تردد:

- ليس المهم أن تصنع بقدر ما تجيد التسويق أو البيع.

الـكل ابتسـم، صفـق وفرحت أنت أكثـر حين غمز لك أسـتاذك بطرف عينه بأنك ستسمع أخبارا حلوة عن قريب.

لم يمضِ وقت طويل حتى أصبحت وزيرا برتبة بائع، وأصبحت فعلا رجل المرحلة.

الآن يتأكـد لك وأنت في وضعـك الحالي بأنك فعلا كنت رجل هـذه المرحلة فقط وبقية المراحل لم تكـن رجلا، لا بفتح الراء، بل بكسرها (رِجلا) أي قدما أو حذاء في رجل أستاذك خلعه لما انتهت موضته ولبس غيرك ليكون (رِجل) مرحلة أخرى، وهكذا.

اقتحمتك أفكار كثيـرة وأنت الحويط والحريص دائما و في كل شـيء، تذكرت أنـك ما زلـت تحتفظ بكامـل الوثائق التي تكشـف تفاصيل عمليات البيع وأرقامها وجداول التقسيمة.

فكـرت للحظـة أن تُخـرج هـذه الأوراق، تسـلمها لصحـف المعارضـة وتصبح أنت بطلا قوميا، لكنك تراجعت، انكمشـت في ذاتك حين استحضرت صور كبارك وهم في داخل قفص مذلولين يحاكمهم شعبهم بعد أن أسقطهم وأذلهم.

***

تشعر حين تختلي بنفسك كأنك تسقط من علو شاهق وكلما أمعنت في السقوط تأتيك من بعيد أصوات ناعمة هادئة غامضة لا تستطيع أن تجد لها مثيلا، شيء هائل في الانتظام والديمومة يتآلف مع ما بداخلك، إنها أصوات الصمت التي تأكل توترك، تنهيه، إنها أصوات الذات العصية على الفهم والإدراك.

هذا الإحساس لا يتأتى سوى للقليلين، إما للمتعبين المطحونيين أمثالك، وإما لأولئك الذين دربوا ذواتهم على الاسترخاء والسكينة، صوفيون كانوا أم شعراء.

في هذه الحالة تدور بكرة الخيط العكسي ويدور شريط العقل إلى الوراء، تظهر الأشياء التي سقطت منك حين كان وعيك بالأشياء كشبكة صياد واسعة الثقوب، تفلت الأسماك الصغيرة منها.

أنت الآن تعود إلى ما كان بالأمس طريق صيدك، تلملم ما سقط من شبكتك هذه، تلملم الساقط من دائرة وعيك وإدراكك غير المهضوم في وقتها، في الطريق تأتيك تلك الحكاية التي قرأتها وأنت تستلقي على البحر وبجوارك حراسك، حكاية الدلافين أو نداء الدلافين في جزيرة «جيلبرت» جنوبي المحيط الهادئ حيث قبيلة «بوتارياتري وماكين مينج» الذين توارث رؤساؤهم سر نداء الدلافين، حيث ينعزل منادي الدلافين في كوخه القريب من الشاطئ بعد أن يكون أهل المكان قد جهزوا حفلتهم وأطباقهم، وبعد فترة

قـد تطول أو تقصـر يندفع المنـادي خارجا من كوخه، يسـقط على وجهه ثم ينهض ملوحا بيديه في الهواء وهو يصرخ:

- تيريك، تيريك.

أي انهضوا انهضوا، بلغة هذه الجزر، يندفع السـكان المنتظرون ناحيـة الماء يسـتقبلون الدلافين التي تأتي زرافات إلى الشـاطئ في بطء شـديد وكأنها غارقة في تهويمة من النعاس، تسـتمر في سيرها حتى تلمس وجوهها تراب الشـاطئ، ينقض الناسُ عليها يذبحونها ثم يأكلونها في حفلة كبيرة.

تعيـدك هـذه القصـة إلـى ذاتك التـي يتأكـد لك خلال سـنوات عمرك الماضية أنها كانت منومة مغناطيسيا، كنت دولفينا من أولئك الذين جاءوا إلى الشـاطئ منومين ولكن لم يذبحك سـكان الجزر، بـل تركوك على الشـاطئ تصارع المـوت بعيدا عن المـاء الذي هو حياتـك، تركـوك وحدك لدرجـة أن الموت يسـتعصي عليك الآن، لا يريد أن يأتيك.

أي سر وأي سحر ذلك الذي يكمن في تلك التعويذه التي يرددها منادي الدلافين لتأتيه هكذا جماعات لتموت؟

وأي قـدرة خارقـة غائبـة يملكها ذلـك المنادي السـمين تجعله يستطيع أن يسيطر على مخلوقات في عمق البحر؟

لكن لماذا تستغرب؟

لماذا تستنكر وأنت كان لديك منادٍ، يملك تعويذة مسيطرة ممسوسة إذا تلاها تصبح مشلولا، لا تملك إلا أن تقول: نعم، كم مرة قلت لأستاذك الذي علمك السحر والشر لا؟

ولا مرة واحدة، كنت دائما عبدا مطيعا تؤمر فتنفذ وبلا جدل ولا تدري لماذا؟

في أحايين كثيرة كنت تنفذ بلا مقابل، فقط تنفذ لتنفذ.

لم يكن يعنيك الحصول على مكسب مقابل تلك الطاعة، لا من باب النبل وإنما من باب المفطور على الشر.

تلملم مقولة أخرى مما سقط من ثقوب شبكتك: «حين تكون نصف مستيقظ فإن إحساسك بالواقع يكون مقصورا على نفسك مقيدا بها وكلما ازدادت يقظتك يمتد وعيك إلى محيطك الخارجي، وقتها تخرج من الوعي نصف النائم إلى الوعي المستيقظ».

أنت عجزت عن تفسير الحالة التي كنت عليها قياسا على هذه المقولة، هل كنت في الوعي نصف النائم وأنت ترتكب كل موبقاتك وجرائمك؟

وهل وعيك بذاتك أكبر من وعيك بمحيطك؟

وهل ما كنت فيه يمكن أن نسميه وعيا بمعناه الخير أم وعيا للشر؟

وهل مررت بحالة الوعي المستيقظ الذي يتماهى معي أنا ضميرك الذي مارست عليه تعاويذك فنومته، غيبته، دون أن تحاول ولو لمرة واحدة أن تجعله يفيق؟

أنت أقرب إلى مقولة أخرى: «الإنسان مثل سيارة لها سائقان، الوعي، واللا وعي»، ولكن الذين ذكروا هذه المقولة كانوا يقصدون باللا وعي أي السليقة الخيرة التي تفسد إذا تدخل فيها الوعي المفسد الشرير.

هم أيضا قالوا اللا وعي أنثى والوعي ذكر، وتبعا لذلك طردت «لا وعيك» الخير أو أجبرته على الاستقالة وأعطيت مهمة قيادتك إلى وعيك الشرير وحده وبراتبين؛ لذا سيارتك ازدادت حوادثها ومخالفاتها وهي الآن محجوزة على ذمة تخريدها وإتلافها لأنها غير صالحة.

تتجلى أمامك مقولة لأحد الكونفوشيوسيين: «الذين يتبعون الجانب العظيم في أنفسهم سيكونون عظماء والذين يتبعون الجانب الضئيل والتافه سيكونون ضئالا تافهين» طالما الأمر هكذا إذن في كل نفس شيء عظيم وشيء ضئيل.

وبما أنك لم تجادلني منذ بداية جلدي لك فأنت معترف ومُقِر بأنك كنت شريرا وضئيلا وتافها، وطالما أنني أشم فيك رائحة ندم ولو قليل، فلتبحث عن ذلك العظيم الكامن فيك، حاول أن تُوقظه، تُنعشه.

أعرف أنـك تُقر في ذاتك بأنه غير موجود لكن إحساسـك بعدم وجـوده لا يعني أنه غيـر موجود تماما، كقدمك حيـن تجلس عليها كثيرا فتتخدر لدرجة أنك لا تشعر بها فتصدمها بالأرض لتتحقق من وجودهـا، تُعيد إليها حركة الدم الذي هرب فأفقدك إحساسـك بها، أنت لا تشـعر بالجزء العظيم فيك لكنه موجود، فقط حاول أن تُعيد إليه دورته الدموية المتوقفة.

اللـه عادل، خلق النفس وخلق بها فجورها وتقواها، وكما يقول زوربا: «الإنسان مقسم بين الرحمن والشيطان».

أي إن لك حرية الانحياز والاختيار في أن تكون شيطانا أو تكون رحمانا ورحيما.

***

مُتعب أنت، تجلى ذلك التعب على وجهك الذي أعياه إضرابك عن الطعام والشراب، وأذبله رميُك الدواء، هذا الوجه الذي تكسوه مسـحة من نـور غريب متداخـل الدرجات من الأخضـر والأبيض، ذلـك النورالـذي يكسـوك حيـن تبتعد عـن الضئيل والحقيـر فيك، تبتعد ولو قليلا وابتعادك هذا لا يعني سوى أنك تقترب من شاطئك الآخر، شاطئ الخير فيك.

يجـف حلقـك، تنزل أمام عينيك سـتائر متتاليـة تجعلك لا ترى أبعـد من مسـاحة رموشـك، فلا تجـد أمامك ملاذا سـوى داخلك،

تستدير مرغما، تدخل إلى ذلك الفراغ الكبير الخالي من ملامح، ترى تلك الصورة التي طالما وجدتها حين كنت تختلي بنفسك في غرفتك ذات النافذتين ببيت أبيك، حين كانت تضيق عليك الدنيا فتدور وتدور ولا مخرج سوى ذاتك.

لم تكن تدرك وقتها معنى الذات أو معنى قوى الإنسان الخفية أو طاقته كما عرفت وتثقفت كثيرا لكنك بفطرة غريبة كنت تشعر أن فيك شيئا خارقا، غامضا، قويا وساحرا.

لا تنسى تلك الليلة التي تلبسك فيها كآبة وأرق وضيق لدرجة أنك فكرت كثيرا في الانتحار وحين وقفت وجها لوجه مع عينيك في بقايا مرآتك، توهتك نظرتك الحادة وعيناك العميقتان وكأنك تنظر لعيني شخص غيرك، وقتها هدأت، وجهت نظرك ناحية النافذة المطلة على الحقول، ولجت إلى ذاتك فرأيت تلك الصورة التي تراها الآن، ذلك الفضاء الذي لا يشبه شيئا لكنه محرض على السير، على البحث عن شيء لا تعيه، فقط قوى خفية تدفعك.

ثمة رائحة للصحراء وصوت لصفير رياح يأتيك من بعيد، وإحساس بظمأ يجتاحك، تسير في ذلك المتسع المتساوي والمترامي الأطراف حتى تصل إلى كوخ متآكل، تستجير به فورا، يطل عليك شيخك العجوز الذي تماهت ملامحه مع لون كوخه

وتدلت لحيته، طلبت، توسلت كي يعطيك جرعة ماء، ابتسم: «الماء الذي هنا لا يرويك».

تذكر أنك سألته كثيرا عن ذلك المكان، وعن أنك جئته مرات ومرات فلم تجده، عن سر وجوده هنا، سألت، سألت وهو يحدق في البعيد، ثم تكلم دون أن ينظر إليك: «أنا موجود لم أبرح مكاني لكنك لم ترني في كل مرّاتك السابقة؛ لأنك لم تَرَك، ولم تَرَ ملامحك، عينيك الحقيقيتين، في تلك العيون الضيقة كل الأبواب، باب للروح وآخر للسحر وللطاقة وللنفس، والناس جاهلون مشغولون بالتافه.

الدنيا سجن الإنسان جاءه معاقبا فنسي أنه معاقب فأحبه، وحين يجيء الإفراج والخروج من مادية الجسد يبكون، هل تذكر في أية جنازة سوى البكاء، لماذا البكاء؟ ألم تتحرر الروح والنفس من سجنيها».

قاطعته:

- كيف سجناها؟

بحدة ناعمة:

- نعم سجنان، سجن الجسد، زنزانة الروح الانفرادية، وسجن الدنيا.. المقر الكبير للمعتقلات والذي يحوي آلاف المساجين أمثالك.

كان ثمة خدر يسـري في أوصالـك وفي كريات دمك وخلاياك، يدغـدغ فيـك قلقـك ويطلـق ثلجا فـي شـرايينك فتهـدأ، تتخلص ببـطء مـن ذلك الإحسـاس الذي تشـعره وكأنك تصعد في السـماء أو تتخطفـك الطيـر، قلـت وأنـت تحدق في بيـاض لحيتـه الطويلة والمتدلية بعد تنهيدة معقدة:

- أنا تعبان جدا...

وصلته بكل معانيها والمخفي منها إذ تكرمش جبينه حين قلتها،

اسـتدار إليـك: «مرضك أنـك عجول وفاقـد لليقيـن، يا ولدي المعـادن الثمينة والأحجار الكريمة تحتاج نارا أقوى بكثير من تلك التـي يحتاجهـا المعـدن الرخيص لكـي يصهر، ومـن يتحمل صهد نـار الصهر يسـتمتع بختـام المنتهى والمـآل، يا ولـدي أنت تحوي العظيمين...».

حـدق فيك وكررهـا مرارا وكأنه يريد أن يغـرس فيك الجملة أو يطعنك بها: «أنت تحوي العظيمين، عظيم الشر وعظيم الخير، أنت لا تعرف البين والوسـطية، إما سـيد في الشـر وإما سـيد في الخير، ومشكلتك في الاختيار لأنك بلا يقين.

يا ولدي قوتك في عينيك، فكن كالفارس الذي لا يشهر سيفه إلا في المعارك الكبيرة، ولا تكن كالطفل الذي يلهو بسـيف الأشـراف

فيلـوح به فـي كل صغيـرة وكبيـرة، يا ولـدي، المخفي فيـك أقوى وأعظم، فتحسسه وتعرف عليه.

الخلوة زيت الفكر ومصباح الرؤى والوصل.

والإنسـان الاجتماعي تافه ومتشتت، انشغل بالآخرين عن نفسه فتاهت منه نفسه.

احذر يا ولدي أن تفقد بوصلة روحك، فهي طامة كبرى؛ فالروح كالقطار لا تسـير إلا في خطوط مسـتقيمة ولا تعـود أبدا إن فقدتها، فكـن راصدا لهـا ولا تتركها تضيـع فتضيع.. أما بوصلة الجسـد إن تاهت فسـيكون من السـهل أن تسـتعيدها؛ فالمادة لا تسـير في خط مسـتقيم، بل تتحرك في دوائر، فلو ضاعت منك حتما سـتعثر عليها ذات طريق».

تذكـر أنـك لوهلة لـم تَرَ ذلـك الشـيخ الحكيم، لكنك سـمعت عاصفـة قوية أثارت عليـك ترابا غير خانق، بل أشـبه بحصى صغير لسـعك في وجهك فانتفضت بعيـدا، أغمضت عينيـك ثم فتحتهما بسـرعة حتى لا تتوه منك التفاصيل فوجدت نفسك كما كنت سابقا فـي غرفتك أمام النافذة التي تطل على الحقول، تأتي إليك نسـمات خاليات من روائح العطن وروث المواشـي، انتفضت وقد تلبسـتك قوة وعنفوان لم تشـعرهما من قبل، تناولت بقايا مرآتك المكسورة، حدقت في تلك العيون / السـيف كما قال الحكيم، أحسسـت أنك

اكتشـفت شيئا خفيا فيك، كلما تحدق تشـعر بذلك السيف المهول ذي المقبض المصقول بالذهب والموشى بالأحجار الكريمة، تشعر بذلـك السـيف ينمو داخلـك، يخرج من عمقك، مـن قلبك وكبدك وأمعائك ثم ينتصب كتنين أسطوري رهيب.

تشعر أن جسدك قد تعملق وبتّ ترى جميع الأشياء صغيرة، كل شيء أمامك وفي عينيك ضئيل، ثقة، قوة خفية، جسارة، شجاعة قُل ما تشاء، سمها ما شئت، هو شيء أسطوري غامض.

خرجت بنفس حالتك هذه إلى الحقول في عمق الليل، كل شيء ساكن، هادئ، راضخ، وكأنه ينتظرك أو ينتظر الموت، كل شيء كان يحتفي بك، الأشجار رأيتها تنحني لك، متسع القمح الأصفر يموج كالبحـر، يتخبط حين تسـتدير عيناك نحوه، جربـت ليلتها أن تكون سيدا للمكان وللدنيا.

ومنذ تلك الليلة ولم تفارقك تلك الطاقة التي تسـخر لك كل ما تريد.

من وقتها رحت تقرأ كل ما ينشر ويكتب عن المنجمين والعارفين بعلـم الطاقـة، تذكـر أنـك فرحـت كثيـرا حينمـا وصلتـك تنبـؤات «نوسـترادامـوس» التي كانت بعنوان «قرون» على شـكل رباعيات، بهـرك ما قرأته عن الذي تحقق من هذه النبـوءات لدرجة أنك كنت

مـن الفريق المؤيد لنبوءته بأن عام 1999 هـو نهاية الكون لأنه العام الذي سيهبط فيه ملك الفزع العظيم من السماء إلى الأرض.

منذ ذلك الفتح الروحي وأنت تستخدم عينيك مع سكان بلدتك الذين لا تحبهم، كنت تراهن على أنك تسـتطيع إخافتهم، إسكاتهم إذا ما سـألوك كثيرا بعد خروجك من المسـجد، وحدث أن حدقت بعمـق وبحدة في عينـي الإمام بعد صلاة عشـاء مرتبكة حين جاءك ينتقـد سـجودك، حقنته بنظـرة رعب خفـي جعلته ينتفـض مرتبكا، مسـرعا، تاركا فـردة حذائه ومو ليا الأدبار بعيدا عنـك، من يومها لم يقتـرب منـك لا هـو ولا أي من سـكان بلدتـك، وأشـيع عنك أنك بلغتهم «مخاوي».

وحـده أسـتاذك كان يجيـد التعامل مـع عينيك حين كان يبتسـم بسـخرية مسـتديرا عنهما فتتلخبط جميـع إشـعاعاتك الخفية، كان يقول لك:

- أنـا أعـرف قدرك ومواهبـك لكن إيـاك أن تسـتعملها معي أو ضدي.

حتـى تلك البنت التـي أحببتها كثيرا أيـام الجامعة وهي كرهتك كثيـرا، ظللـت تتقرب منها حتى تخيرت فرصـة الاقتراب من عينيها وظللت أكثر من ساعة تجلدها بسهام عينيك، تكهربها بشعاع طاقتك السحرية، تصب في أذنيها أفكارك الشاذة وهي مستسلمة منومة أمام

عينيك حتى غادرت المكان وهي معلقة في ذراعك كشــيء اشتريته للتـو من أرخص ســوبرماركت، مشـيت بها وسـط الجامعـة لتعلن للجميـع أنها لك، أخذتها إلى السـينما وعلى ضوء الشاشـة الكبيرة كدت تفقدها عذريتها لولا أن تنبه أحد الجالسين بقربك.

عريتهــا، قبلتهــا، أغرقتها بمائك، ســحبتها منكمشــة في شــوارع القاهــرة حتــى أوصلتها إلى بيتها في حي الزمالــك الذي تمنيت منذ تلك الليلة أن تكون من سكانه.

أنت إذن الآن بدون ذلك الســيف، جردوك منه، جردوك من قوة عينيك الخفية، ضاعت منك بوصلتا روحك وجسدك اللتين أوصاك بهما حكيمك، بت هكذا كســيارة تعطل فيها كل شــيء، توقفت في منتصــف الطريق، تنتظر يدا رحيمــة تزيحها بعيدا إلى أقرب رصيف أو تنتظــر شــاحنة عملاقة تطحنهــا وتخرجها من حالــة «البين» التي فيها.

***

براح الــــروح

لم يستيقظ درديري يوما بلا تعب وكأن قطارا داسه، هرسه تحت عجلاتـه لدرجـة أنه بات يكـره تلك اللحظـة التي ينهار في جسـده ويستسـلم للنوم الذي كان حصة مفتوحة من التعذيب الروحي على وقع مسلسل الكوابيس التي لا تنتهي.

في هذه المرة لم يسـتطع أن يستسـلم للكسـل أو التعب فلم يبقَ معـه سـوى جنيه واحـد لا يكفي لأي شـيء، قـاوم، انتفض صوب الجردل البلاسـتيكي الذي شـحب لونه مثل كل شـيء في المكان، أخـرج الورد الـذي بات ليلته به، رمى الماء بعطنه أمام حوشـته عله يأخذ ما بقي من الأرواح الشـريرة بعيدا، وضع ماءً جديدا ورشرش بعضه الآخر على الورد.

حمل الورد المسـتيقظ بكسل أيضا وخرج إلى الطرقات الضيقة بـكل أشـباحها وقلقها مارًّا بحوشـة رياض، وقف أمامهـا، تذكر أنه لم يره منذ أيام، اسـتدار ناحية بابه الذي ازداد شحوبا، طرق، طرق، طـرق كثيـرا لكن لم يرد أحـد، توقع أن يكون قد سـافر أو غادر إلى الأبـد، فهـذا المكان كمـا كان يقول «ترانزيت»، مؤقـت لا يدوم إلا لأصحابه الموتى الذين يأتون للراحة الأبدية.

سـار بتكاسـل حتى وصـل إلى مقهـى «متصبرنيـش» كان حودة فنجان قد أنهى لتوه وصلة من السعال.

- صباح الخير.

- ....

طلب كوب شـاي وجلس يحدق في مدخل المقابر، يُمني نفسه بيـوم كثيـرة زبائنـه، وحدها حياة وشـطة لا يقلقـان كثيـرا فزبائنهما لا يتغيرون وسلعتهما دائما رائجة، الفول والطعمية.

حاول أن يشاكس حودة فنجان لكنه فشل، إذ إنه كان يكمل نومه أو لعله لم يفق بعد من سكرته التي تنتهي مع الصباح، بدا وجهه أكثر شحوبا هذه المرة.

كل شـيء شـاحب، وحده ورد درديري يانع مبتهج، اقترب منه، جلـس بجواره وراح يرشـرش عليـه ماءً بين الحيـن والآخر، جرب أن يحـدق كثيـرا في نضارة أوراق الورد هذه، ثمة ترمومتر خفي في داخل الروح يتحرك مؤشـره إلى أعلى، شـعر أن أغلالا كثيرة تُكبل الروح، تسجنها فتتكسر.

شـعر أن ثمة علاقة سـرية مبهمة بين الجمال فـي الكون وتحرر الأرواح مـن سـجنها، غرق فـي تحديقه لدرجـة أن زبونا ظل ينادي طالبـا أن يبيعه بعضا مـن ورده فلم يُعره درديري أي انتباه، لم يرد أن

يُفرط في مكنون تلك اللحظة أو أن يترك رأس الفكرة، أراد أن يتتبع فهما يساعده على تحرر روحه.

حدق أكثر، كثف نظرته في حدود تلك الأوراق الحمراء للوردة البلدي، الملتفة حول نفسها والتي تستمد بهاءها من غموضها!!

التباعد والذبول هو ما يشعره الآن بل ويعيشه منذ أن ارتكب خطيئته، قتل وابتعد، هو يرى نفسه آدم جديدا، آدم بلا توبة، آدم بلا جنة، مطرودا بفعل خطيئة واحدة حين أكل من تلك الشجرة الملعونة فقط!

هو يقف بين الشيطان وبين الإنسان، في المنطقة البَيْن مرة أخرى، لا هو إنسان كامل ولا هو شيطان كامل!

يعرف أن الشيطان لا يملك ذلك الضمير الذي يعذبه، وتمنى كثيرا لو استطاع قتله كي يستريح، لكنه فشل، حاول وفشل، ثم الآن يحاول.

عاد إلى ورده، راح يقارن بين تلك الحالة التي يكون عليها الورد في «كوشة» عرس، خلف قلبين عصفورين، وبين الورد الآن في «جردل» بلاستيكي شاحب، على مدخل مقابر، ينتظر زوارا عجولين، يشترونه بقروش ليقتلوه أو يصلبوه على ظهر قبر، يتركونه يذبل، يموت، يجف، تذروه الرياح، فتسحقه الأحذية !

حين وصل إلى ذلك الاستنتاج كان يرى ورده يذبل، يتغير لونُه، ينحني فوق عوده، وكأن الورد تنصت على بوح النهاية فتعجل الموت.

يااااااه! حزن درديري كثيرا وهو الذي راح يحدق في الورد ليمتص منه بعضا من بريق، فسرب خلسة إلى الورد انكساره ورغبته في الموت، فاستعد الورد للموت.

أخرجته حياة من تأزمه، سألته كثيرا عن «أبو الروض» الذي لم تره منذ وقت طويل، نقلت إليه قلقها.

- أعتقد انه مسافر لأني منذ قليل طرقت الباب كثيرا ولم يرد.

طمأنها درديري وأخذ طبقا امتلأ عن آخره بالفول المُحلّى بالزيت والليمون، شكرها بكسل.

طلبت منه أن يذهب معها ليتأكدا أن رياض ليس في حوشته، تردد، صمت، ثم غادر معها تاركا ورده المصلوب.

بجوار درديري كانت حياة شاردة تهاجمها تلك الخواطر التي سبقت اكتشاف موت أبيها، هي هكذا تخاف من المجهول، تخاف من أن تقع على اكتشاف يسحقها، يضيف إلى معاناتها فصلا جديدا، تساءلت كثيرا عن ذلك السر الذي جعل رياض يغيب عنها كل هذا الوقت؟

هل جحوده؟

أم أن ثمة خطبا ألمّ به؟

تمنت كثيرا أن يكون قد سافر، غادرها دون وداع، لكن في النهاية كل الخيارات مقلقة ومكروهة!

أنا لا أصدق أني وجدته!

بصوت لم تفلح في كتمانه رددتها بلهجتها.

كيف؟ بعد كل هذا الجفاف الذي عاشته بقلب ينتظر مَنْ يحرك تروسه ليدور، ينبض، بدلا من أن يبقى هكذا مركونا فيصدأ.

حين وصلا تقدم درديري ناحية باب الحوشة، راح بهدوء يطرق الباب الذي ازداد غموضا ليشي بما انغلق عليه، بكارثة، بسر كبير، طرق أكثر، اقتربت حياة وشاركته في الطرق وفي النداء.

- أبو الروض.

- أبو الروض.

كانت دقات قلبها تزداد مع ازدياد الطرق والقلق يسري ببطء في كامل جسد درديري إلى أن وصل إلى وجهه فتكرمش، ألقى بسيجارته التي لم يكملها، لعن بإخلاص تلك الدنيا التي لا يحبها وقرر أن يكسر الباب:

- لازم نكسر الباب، لازم نطّمن.

ابتعد إلى مسافة تكسب جسده النحيل قوة تمكنه من كسر ذلك الباب المنهار أصلا والمكسور قبل أن يُكسر.

دحرج درديري جسده ناحية الباب فتمزق كثوب قديم بالٍ تاركا درديري يهوي على الأرض داخل حوشة رياض.

إنه السقوط الذي يعقب عنف الدخول إلى الأشياء بقهر.

لم يكد درديري يعتدل من سقطته تلك إلا وعلا صوت حياة تصرخ بكامل وعيها:

- مات، أبو الروض مات!

انتفض درديري ناحيته، كان رياض مستلقيا على سريره، رأسه يتدلى كأنه لشخص آخر غيره، يسيل من فمه لعاب كرغوة الصابون، انتكشت لحيته، أما عيناه فكانتا في حالة «بَيْن»، توارى سوادهما تاركا بياضا شاحبا وكأنهما كانا يتابعان مشهدا لم يكتمل، أو يلاحقان صورة اختفت فجأة.

أما الوجه فكان بلون الأرض، أصفر، جافا، عليه غبرة.

حمله درديري، حاول أن يعدله، يجس نبضه، يتأكد إن كان حيا أو ميتا، كان الجسد متخشبا!

احتضنت رأسه، لم تتوقف عن البكاء والعويل الذي استمر طيلة الطريق المؤدي إلى المستشفى، حتى أن أهل المكان يذكرون جيدا تلك العدودة الطويلة التي راحت ترددها، قصيدة كانت من ألف بيت ملحنة ومغناة، كلها على ترانيم الحسرة والفقد، على ذلك الغريب الذي جاء بغموضه، أحياها فأحبته، ثم صدمها بقسوة، فغضبت منه بعتب.

تأكدت حياة أنه أراد أن يموت وحيدا في صمت، لامت نفسها كثيرا ولامت جحود الباقين، الكل في قانونها مذنب، مدان.

ظلت تراقبه حين استلمه الأطباء فعجلوا بدفعه إلى العناية المركزة، تاركين قلقهم يتساقط، فتتلقفه، تضيفه على قلقها، تصرخ صرخة مكبوتة كتلك التي أطلقتها لحظة إنزال أبيها في القبر.

تلك اللحظة التي انغرست في فضاء روحها شجرة للحزن التي ما كلت يوما عن طرح ثمار المُر فعكرت أي طعم للفرح وعطلت دوران القلب صوب الانفراج.

عاد درديري منكسرا ناحيتها، لم ينتظر الوصول إلى أقرب مقعد، فجلس على الأرض ساندا ظهره لشيخوخة حائط المستشفى، غير عابئ بتلك العيون المُستغربة.

أخرج علبة سجائره المهترأة، عدل اعوجاج واحدة منها، أشعلها وراح يحدق في الدخان هامسا إلى حياة بجملة خرجت مبتورة:

- مفيش أمل!

تهاوت حياة، أمسكت بالجدار وسقطت في شبه جلوس بطيء بجوار درديري وبدا الاثنان لمن يراهما من بعيد تجسيدا حيا لقصيدة ت.إس إليوت «الفارغون».

نحن الفارغين.

نحن المنخورين، المختنقين.

يتكئ أحدُنا على الآخر.

درديري وحياة عالمان متجاوران ومتناقضان في كل شيء!

درديري الذي يحلم بتلك اللحظة التي يفارق فيها هذه الدنيا بعد أن أحبها لدرجة جعلته يسرقها من الآخرين حين قتل قناوي!

وحياة التي تماهت، ذابت، اندمجت، توحدت مع الدنيا لدرجة أنها أخذت منها توكيلا عاما في التحدث باسمها، توكيلا في الإدارة والبيع والشراء، هكذا كان يشعر سكان المقابر حين كانوا يلتقون بها، يتحدثون معها، كانوا يقولون في السر كيف لهذه البنت أن تقرب المسافات بين المحبطين واليائسين وبين الحياة؟

كيف تُزيل سوءَ الفهم بين الناس والدنيا؟

حياة الآن، مختلفة، تشعر أن أدوات حبها للدنيا تعطلت، تشعر أنها تريد أن تتنازل عن تلك الوكالة مع الحياة، تريد أن تنحاز إلى عالم درديري وعالم المحبطين واليائسين.

شعرت بذلك الإحساس حين غادرها أبوها ومات، وحين غادرها أخوها وسُجن، والآن حين يريد أن يغادرها رياض.

رياض الآن في حالة بين أخرى، ليس كما كان دائما بين الحياة والموت، وإنما بين الموت والموت، هو الآن في برزخ آخر، فيصل آخر ومنفذ حدودي آخر، يقف عليه رجال غلاظ يفتشون في أوراقه الثبوتية، إما يختمون ويسمحون له بالعبور فيموت، وإما يردونه بوجوه عابسة غير مستبشرة فيعود ليقف مثل الملايين هنا بين الحياة والموت.

***

حوشة الشيخ زوزو معترك من المتناقضات، فهي في الليل غرزة «مَحشَشَة»، وفي النهار «كُتاب لتحفيظ القرآن»، يُعلم فيه أطفال المكان الخائفين دائما، باهتي العيون والوجوه.

وحيد تعلم أن يتعايش مع متناقضات المكان، يدندن على أوتار عوده، لكن ذلك التعايش شذ وتعذر هذه المرة حين صاح فيه الشيخ زوزو وهو يجلس أمام الأطفال الذين شكلوا نصف دائرة أمامه:

- ارحمنا يا عم وحيد، كفاية عزف.

كان وحيد يعارك لحنا لصباح فخري «إن تجودي فصليني».

استطاع بعد ليلتين أن يركب المقام، يسوقه كما أراد إلا من نغمة كانت عصيةً، متمردة، دندن كثيرا، جرب أن يدخل لها عبر أكثر من مقام لكنها تهرب إلى مقام آخر، لم يكترث كثيرا بصوت الأطفال وهم يرددون خلف الشيخ زوزو: «أبي لهب وتب».

تذكر وقتها أنه منذ قرابة الشهر لم يسمع من الأطفال سوى هذه السورة، وأدرك بقليل من التأمل أن الشيخ زوزو كان يسرح كثيرا وهو يحفظهم، ولأنه يعرفه جيدا أدرك أن تلك الحالة إذا تلبست الشيخ يصبح غير موجود، يترك جسده ويحلق في عوالم أخرى:

- الهم أكبر وأقوى أعداء الإنسان.

هكذا كان يقول لوحيد حينما يُلح في سؤاله.

غادر وحيد، تاركا الحوشة للشيخ زوزو وتلاميذه، جلس على مصطبة تتوسط المكان، احتضن عوده، ضمه كثيرا إلى صدره وراح يداعب أوتاره بحنو مبالغ فيه علها تساعده في الإمساك بتلك النغمة المراوغة:

«إن تجودي فصليني..».

كان ثمة شيء يأتيه من بعيد، حنو، اشتياق مكتوم لشيء لا يدركه، تماما كذلك الحلم أو الكابوس الذي يتكرر في نومه، حين يشعر أنه ظمآن، يجري في صحراء قاسية، يجري، يجري، حتى تتراءى له بحيرة عامرة بمائها الأزرق، يرتمي بها ويشرب يشرب، يشرب، حتى يمتلئ لكن إحساس الظمأ لا يغادره، يعاود الشرب حتى ينتفخ ويبدو كبالونة من ماء ولا يرتوي، يااه إحساس فظيع، قاتل، يخافه وحيد ويجهله، لا يستطيع أن يفك طلاسمه.

هو يشعر الآن بذلك الشوق لشيء لا يعرفه، يقرب العود إلى قلبه علّه يخفف غموض ذلك الشوق، لكن لا فائدة، تذكر ما كان يقوله الشيخ زوزو في جلسات الصفا: «الذين اقتُلعت شجرةُ رحمتهم لا يمكن أن تعوضها غاباتُ الدنيا».

كان الشيخ يتحدث وقتها عن أبيه، وكان وحيد يغرق في دموع مكتومة، بكاء بلا صوت، كان يتذكر أمه التي لا يعرفها.

تساءل كثيرا لِمَ لا يأتيه الشوق لأهل حُرم منهم سوى لأمه فقط؟

لم لا يتمثل له ذلك الشوق في صورة أبيه ولا لمرة واحدة؟

هل الشوق والحنية والرحمة أُم فقط؟

ربما لأنه يشعر أن أمه كانت أفضل بكثير من أبيه؟

هو يدرك أنها وساوس، فكيف لأم أكثر فضلا أو أب أقل فضلا أن يتركا لحمتهما الضعيفة في العراء ويفرا هاربين؟

هما من تلك النوعية من البشر الذين يتخلصون من إنسانيتهم مقابل أن يظلا في عيون الناس بلا خطيئة.

هو يشتاق لحضن أم لم يجربه ولو لمرة واحدة!

هو يشتاق لحضن أب لم يجربه ولو لمرة واحدة!

كيف لذلك المحروم أن يجرب ولو بخياله متعة الارتواء؟

كيف لمن لم يجرب ولو صدفة أو حتى في الحلم طعم التفاح أن نطالبه بأن يتخيله، أو يصف لنا طعمه ومذاقه.

الخيال مهما شذ وكان مبالغا فيه وغرائبيا هو ابن الواقع، هو كتلك الغابة الكبيرة التي أصلها بذرة صغيرة، هو كذلك البحر والمحيطات، أصلها قطرة ماء صغيرة.

عاد إلى لحنه وراح يزداد جسارة في التعامل مع تلك الجملة العصية حتى ركبها، روضها، إذا علت علا.. وإذا قفزت به إلى أعلى قفز.. حتى ارتضته فارسا ورمحت به في فضاء لحنها الوسيع، ضرب على أوتاره بعنف ضربة المنتصر الذي يعلن ختام جولة، وبدأ بتمهيد مغرٍ يعيد لحنه المراوغ من الأول:

«إن تجودي فصليني...».

وقتها جرب وحيد، الفتى الصغير، متعة أن ينال شيئا كان عصيا عليه، وقبل أن ينهي لحنه استفاق على صرخة غبية ليس أوانها.

- إنت يا ولد، أسكت..

نظر بكسل الغاضبين، كان عجوزا متأنقا يمسك بذراع زوجته الأكثر تأنقا، تأملهما بهدوء أو ربما استسلم لرائحة عطرهما، حدق أكثر:

- إنت بتعزف موسيقى وسط المقابر، مفيش احترام للأموات؟!

قالها الرجل بعصبية أقل من التي بدأ بها:

- أنا ساكن هنا.

قالها ببراءة ربما يفهم العجوز.

- يا ابني المكان له احترامه ووقاره، ليس مكانا للفرح والغنا.

أجابه وحيد بلا تفكير:

- إذن لا يجب أن أفرح أو أغني أو أضحك، ولأن الأموات لا يأكلون لا يجب أن آكل أو أشرب، أنت عاوزني أموت؟!

أكمل جملته بضربة عود قوية، دون أن ينظر إلى الرجل العجوز ولا إلى زوجته الأنيقه، وعاد إلى لحنه من تلك النقطة عالية التون:

«صليني.. صليني».

حينما علا اللحن علا معه وحيد حتى طار في السماء وغادر ماديته، تمايل ورقص، ضرب برجله وقفز، دار كالمولوية والمتصوفة، هز أكتافه كما يفعل صباح فخري، كان مغمضا عينيه، أدرك حينها أن الفرق بين عالم تعيشه بشكل حقيقي وآخر تتمناه هي فقط إغماضة عين!

أغمض عينيك وتخيل ما تريد شرط أن يكون له بذرة في الحقيقة!

ظل وحيد في عالمه، يطير عبر ألحانه إلى أن شعر أن شيئا ما يهتز، يترنح به، لم تكن أصابعه التي تراقص الأوتار ولم تكن ذراعاه اللتين تحيطان بجسد العود كعاشق، ولا أي شيء سوى ذلك القلب الذي تلاحقت دقاته، وعلت واحدة وانخفضت أخرى، كان بهدوء يعلن استسلامه مذكرا بثقبه الذي ولد به، لم يستطع وحيد أن يعود من تحليقه ببطء فسقط فجأة، ولم يشعر بشيء.

***

غير بعيد من تلك الغرفة التي احتوت رياض تمدد وحيد على سرير يتشابه في كل شيء مع سرير رياض، يئن ويتألم إذا ما ارتكن عليه أحد، يصدر أزيزا يشي بشيخوخته، حتى بياضه المفروش عليه بدا باهتا شاحبا تكسوه صفرة تجعله خليطا بين الأصفر والأبيض،

هو ذلك اللون إذن الذي يلتصق بأولئك المهمشين الواقفين في منطقة «البين»، هؤلاء لهم أسماؤهم ولهم أيضا لونهم ومستشفياتهم ولهم طعامهم وشرابهم، هؤلاء لهم حياتهم أو إن شئت الدقة لهم شبه الحياة.

امتلأت طرقات وممرات المستشفى بأهل مقابر الغفير حتى بدا الأمر لمن يعرفهم أن المقابر خلت تماما من سكانها وأفرغتهم هنا في هذا المستشفى.

هي محطة ليست بعيدة ولا غريبة عنهم، من المقابر إلى المستشفى أو العكس، ترتيب منطقي حسب ديمومة الحياة، فقط الترتيب هو الذي شذ هذه المرة.

تماما كما قال سائق التاكسي الذي أراد أن يمازح رياض حين جاء به من الزمالك إلى المقابر.

- طيب نروح مستشفى الأول وبعدين المقابر!

لم يستطع الشيخ زوزو أن «يصلب» طوله فافترش الأرض بجوار سرير وحيد قابضا على يده وهو محملق في البعيد وكأنه ينهي معادلة حسابية، يضرب أخماسا بأسداس علها تعطيه واحدا صحيحا، رقما لا يؤدي به إلى صفر الفراغ الكبير والفجيعة العظمى، ذلك الصفر الذي تلبسه حين انتهت معادلته الحسابية مع أبيه وجاءه خبر وفاته في بداية يوم في مرحلة البين.

«بين» آخر في الوقت حين يسلم الليل مهامه إلى النهار، فلا الليل ليل ولا النهار نهار، ليست هناك ظلمة واضحة وليس هناك نور واضح، هي مرحلة البين بين، لا الشمس أتت ولا الليل باقٍ، في هذه المرحلة رُمي بالشيخ زوزو إلى مرحلة البين التي ما زال غارقا فيها.

هو يمسك بوحيد لا يريد أن يغادره أو يهرب منه خلسة كما فعل أبوه، وحيد هو ذلك المُسكن الذي يخفف وطأة حالة البين التي يعيشها الشيخ زوزو، هو ذلك الابن الذي لم ينجبه كما هو أيضا الأخ الذي مات على مقصلة القسوة، هو حاج عبد الحميد آخر، حنون، غير ذلك الذي احترف قتل الأخوة بطمعه.

وحيد بالنسبة له الخيط الرفيع الذي يربطه بتلك الستارة البيضاء المتدلية على استحياء والتي اسمها الحياة.

- أرجوكم المغادرة.. لازم المريض يرتاح.

الكل خرج إلا الشيخ زوزو، ظل ممسكا بوحيد، هو لم يتعمد مخالفة أوامر الأطباء لكنه لم يسمع؛ لأنه ببساطة لم يكن موجودا معهم، كان في عالم آخر، عالمه هو، عالم الحسابات والأرقام والمعادلات التي تنتهي دائما برقم واحد مخيف هو الصفر.

اقترب حسن أبو علي، أخذه إلى الخارج وترك ثلاثة أطباء وممرضتين يفحصون وحيد الذي ازداد شحوبه بكمامته المتصلة

بذلـك الخرطـوم المعلق في أسـطوانة أكسـجين كبيـرة، يفحصون مدى اتساع ذلك الثقب الذي وُلد به وحيد.

يذكر الشيخ زوزو أول مرة عرف بذلك الثقب حين مرض وحيد لأول مرة وهو رضيع، قال له الأطباء:

- لديـه ثقب في القلب، يصيب الأطفال الذين تعرضوا لظروف قاسية أثناء ولادتهم.

وقتها ابتسم الشيخ زوزو:

- ظروف قاسية أثناء ولادتهم فقط؟! ظروف قاسية أثناء ولادتهم ورضاعتهم وزحفهم ومشيهم.. ظروف صعبة في كامل حياتهم.

كان يمـزح بمـرارة لكنه ما كان يدري أن الثقـب في القلب يعني كل هـذا الخطـر على الحياة، وقتها لـم يكن قـد تعلق كل هذا التعلق بوحيد، فقط يذكر معاناته في رضاعته حين كان يحمله إلى كل امرأة أنجبـت حديثا في المكان لتتصدق برضعة لوحيد بجوار ابنها، حتى أن وحيـد أصبح ابن الجميع وأخا للجميع أيضا، فلا غرابة أن ينتقل أهل المقابر إلى المستشـفى، وأن تبكي النسـاء كل هذا البكاء عليه، هو ابنهن بالرضاعة وبالعطف.

لـم يتأخـر الأطبـاء كثيـرا فـي فحصهم، خرجـوا على اسـتحياء يهمسـون إلـى بعضهم حتى تقـدم كبيرهم ناحية الشـيخ زوزو ومن معه:

- فين أبوه؟

قفز الشيخ زوزو:

- أنا.

وقفز خلفه حسن ودرديري وعلي وحتى النساء، انتحى الأطباء جانبا بحسن والشيخ زوزو:

- حالته خطرة ولازم عملية جراحية، لكنها مكلفة..

سأل حسن:

- كم تكلفتها؟

- ثمانية آلاف!

صمت حسن، انكمش الشيخ زوزو على نفسه وتكور حول علامة استفهام كبيرة: من أين سيأتي بهذا المبلغ؟

فكر في أحوال الموجودين، حسن الخارج من السجن حديثا، المعلق على مشانق الحاجة وقلق المعاش، ودرديري الذي بالكاد يوفر لقمة العيش وسيجارة الحشيش، وعلي منولوج الخارج لتوه من اكتئاب ما بعد أفراحه التي تنتهي دائما بخناقة ومعركة وعلقة ساخنة.

هكذا تشابه حال الجميع هنا، رزقهم معلق بقوت يومهم، وجبة بوجبة أو إذا تيسر الأمر، يوم بيوم.

انتفض الشيخ زوزو موصيا حسن ودرديري بوحيد وغادر، لحقه حسن بعد أن رفض الكلام والرد..

بقي درديري مع أهل المكان واقفين في الممر الفاصل بين غرفة وحيد بكامل براءتها وغرفة رياض بكامل خطيئتها، الأماكن تتماهى مع كينونة ساكنيها، تكتسب منهم بياضهم أو سوادهم وفي كل الحالات تبوح ببعض سرها لمن لم ينجح في فك شفرات صمتها.

حياة حاولت كثيرا أن تفهم، أن تصل إلى تلك الشفرة الغامضة التي تجعل رجلا كرياض يفعل ما فعل، أو يحدث له ما حدث، لطالما راودها ذلك السؤال:

- مَن يكون ذلك الرجل؟

وحده القادر على الإجابة، ووحده المعلق الآن بين الموت والموت، بعد أن استبعد الأطباء في آخر زيارة له أن ينجو:

- كومة سكر وغيبوبة وارتفاع ضغط، الأمر صعب. حتى لو نجا لن يكون سليما.

هي تنتظر، تحدق في وجهه علها تصل إلى إجابة أو رمز يفك ما استعصى عليها، ثمة شيء خفي خلف ذلك الشحوب، شيء يزيد تعلقها به ولا يقدم إجابات، لم تستمر كثيرا في شرودها وتأملها الحي لرياض بعد أن وصل درديري وعلي منولوج.

تأملـه درديـري بتأثر، مسـح علـى جبهته، عـدل لحيتـه المبعثرة شعراتها، أخرج تنهيدة متقطعة وانزوى بجواره.

أمـا علي فجلس غير بعيدٍ، لم يعلـق لأول مرة، لم يلعن الغريب الذي منذ مجيئه ازدادت الأوضاع لخبطة وانشغلت به حياة، انكمش على نفسـه وهو الخارج لتوه من اكتئابه المعتاد، صدمته الموسـمية المرتبطة بمهنته.

كذبته التي صنعها لنفسـه ثم يستفيق على صدمة الإهانة المعتادة بأنه ليس مثقفا عضويا كما أشـاع، ليس «منولوجيسـت» كما اعتقد، ليس أي شيء، هو يساوي محصلة معادلة الشيخ زوزو، صفرا!

لا شيء، هو لا شيء!!

هي النتيجة التي يعرفها، يحاول أن يهرب منها فيفشـل، يكتشف أنـه عاد للدائـرة الأولى وليـس للمربع الأول، فالدائرة هي الشـكل الهندسـي الـذي لا يسـتطيع أحـد أن يحدد بدايتـه ونهايتـه، الدائرة كالدنيا مجهولة البداية وغامضة النهاية.

علـي منولوج الذي فهمـه المحيطون به والقريبـون منه، أدركوا أحواله، متى يدخل أزمته ومتى يخرج منها؟

متى يعود إلى تعليقاته ومزاحه؟

هؤلاء يدركون أن عليا يعيش حلاوة الروح، هو يدرك أنهم أيضا يعيشون حلاوة الروح.

تلـك الحالة التي تتشـابه مـع غريق يقاوم افتـراس البحر، يخرج رأسـه إلى أعلى ويسحب نفسـا طويلا، يدخره حين تسحبه الموجة وتُدخله إلى حصة الموت.

تلك الحالة، هي البين!

كان عليّ يتأمل رياض بحالته هذه وكأنه يتامل مرآة نقية واضحة، يرى نفسـه فيها مُستلقيا هكذا، في غيبوبة المـوت، تمنى للحظة أن يكـون مكانه، يستعير مبرره للموت بلا خجل، نعـم هو يبحث عن مبرر قوي يجعله يسـتلقي هكذا ويمـوت، مرض أو رصاصة وليس ضربـة عصـا أو «بوكـس» في فرح، هـو يكره الضربـات التي توجع ولا تميـت، ضربـات «بيـن» لا هـي أدت غرضهـا وسـببت الموت ولا هي أراحت من الألم.

وحدهـا حيـاة التي كانت تشـكل اختلافا وتغايرا عـن ثلاثتهـم.. ريـاض وعلـي منولوج ودرديـري، أولئـك الذين يتمنـون الخروج من حالـة «بينهم» بالموت، كانوا معلقيـن بالخلف، عيونهم لا ترى الأمام والمستقبل.

أمـا حياة كانـت تملك كامل النظـر إلى الأمام، بل تتسـع النظرة لتجعلها عارفة بكل الجهات.

هـي تحب الحياة وتحلـم كثيرا بامتلاكها، الـذي يقلقها أن ذلك الحلم يتكسر حين يحط على صخرة ذلك النائم.

***

غادرت جسـدك حيـن أدخلوك إلـى العناية المركـزة، وضعوك بهـدوء علـى ذلـك السـرير الغارق فـي البيـاض، صلبوك فـي غابة الخراطيم التي انتهت إلى رنين خافتٍ جدا لقلب يتأرجح بين موت وموت.

انفصلت عن ذلك الجسـد، حلقت إلى أعلى، إلى سقف الغرفة الضيقة، رحت من أعلى تتابع ذلك الجسد الذي كنته!

اسـتغربت كثيرا لهذا الكم من الشـحوب والوهـن البادي عليه، ظهر جسـدك خرقةً باليـة متهدلة ملقاة بلا راحة على مسـاحة ضيقة من الحياة.

عاودت النظر إلى ذاتك الجديدة، لم تَرَ منها شيئا، هُلاميا، كنت تشـف الأشـياء من خلفك كجسـد قنديـل البحر، هو و الماء شـيء واحد.

كنت مختلفا تماما، فقط الذي أزعجك كثيرا ذلك الخيط الرقيق الـذي ربـط الهلامية السـابحة في الفضاء بذلك الجسـد المسـتلقي على سرير، حاولت أن تقطعه مرارا لكنك فشلت، حلقت فجأة إلى أعلى متخذا كل الاحتياطات التي تقيك الاصطدام بسـقف الحجرة فنفـذت منها إلى أعلى مندهشـا ومسـتغربا من كينونتـك الجديدة، كانـت السـماء متسـعة لمخلوقـات غريبـة، الـكل يدور حـول ذاته لا يكترث بمن يجاوره.

لمحت أباك يأتي نحوك فاتحا ذراعيه، تفاديته بضيق.

كثيـرون من الذين تعرفهم من أموات قريتك أو مَنْ مَر صدفة في مراحل حياتك يلوحون إليك باعتبارك القادم الجديد.

تنتفـض مذعورا مـن هذا الكم الهائل مـن المخلوقات الهلامية التي طاردتك كثيرا حتى تمكنت من التشبث بالخيط الرفيع وسقطت إلى الأسفل.

بـلا أي ترتيـب نزلت أمام باب شـقتك في الزمالـك، بدا الباب عجـوزا غـادره طلاؤه، لـم يكن يختلـف كثيرا عن باب حوشـة قبر أبيك، كلاهما اشترك في الشحوب والاحتضار والهجر.

راودتك نفسـك عن الدخـول، تذكرت أنك بـلا مفتاح، اقتربت ببـطء فوجدت نفسـك في مواجهـة طاولة السـفرة وصالونك الذي كان أنيقـا، تحسسـت جسـدك، ماديتك، فلـم تجدهـا، تأكدت لك كينونتك الجديدة.

كل شيء ذابل، شاحب، مهترئ، وقديم.

كل شيء خرج وتمرد على ذاته، أصبح شيئا آخر غير ما كانه.

دلفـت إلـى غرفـة مكتبك بـلا عناء الفتـح السـابق، الكتب على الأرفـف، المقعـد الذي مـات خلـف مكتبـك، الفاظة المتكسـرة، كل شـيء كان ميتـا متغيرا، فقط شـهادات التقدير التي شـنقت على

الجدار كانت تئن، يتقاطر منها دم يميل إلى السواد وجماجم لما تزل متمسكة ببعض لحمها.

حلقت بعيدا، دخلت إلى غرفة نومك، توقفت فجأة حين رأيتها نائمة على ما كان سريرك، غير عابئة باهتراء الفراش أو تآكل الخشب، تصفق أحيانا، ترفع ساقيها الهلاميتين، تضربهما ببعضهما، تنتف شعرها الذي ظل على شكله المادي ولم يتخذ هلامية ما.

فُزعت كثيرا؟

ما الذي جاء بأمك إلى هنا وأنت الذي لم ترها منذ هجرتك طفلا؟

ومن أين جاءت بعنوان المكان؟

ابتعدت عنها:

- كيف عرفتي هذا المكان؟

أردت أن تهم بالسؤال وقبل أن تنطق أجابتك بغير لغة، بإشارات وإيماءات فهمتها، أنت إذن في عالم آخر يختلف عن ذلك العالم الذي يرقد فيه جسدك.

هللت في وجهك مرحبةً، زجرتها وفي حلقك مرارات عارها.

استدرت بعيدا عن سكرة الذكرى، اقتحمتك رائحة تأتيك من كل زوايا شقتك، لم تستطع تحملها، طرت بعيدا تاركا أمك وحدها.

مـرة أخرى إلى أعلى، وسـط هـذه المخلوقـات الهُلامية، غزاك خـوف حين كثـرت أمـام عينيـك المخلوقات غيـر المكتملـة التي ازدادت هلاميتهـا، تـارة بـلا رؤوس وتـارة غيـر واضحـة الملامح ولا لأي جنس تنتمي.

كثـرت الوجوه المرحبة بك، الآتية بطيف قريتك التي لـم تحبها، تكالبت عليك.

هبطـت فجأة متتبعا ذلـك الخيط الرفيع الـذي ربطك، ثبتك في جسـدك، مع تدرج السـقوط ظهرت ملامح تلك القرية، في النظرة الواسـعة تمـددت أطرافهـا وزحـف بنيانهـا علـى حسـاب خضـرة الحقـول، وحدها مئذنة المسـجد ظلت عالية، مغروسـة في الفضاء كمـا كانت سـابقا، حلقت في كامل المتسـع مسـتبعدا رؤية أسـطح بيوت القرية وكأنها دواب تحمل أكواما من القش والحطب.

اقتربت من مرتكز طفولتك، بيت أبيك الذي لـم يكن يوما بيتك، اختلط عليك الأمر كثيرا، كل شيء تغير ولولا تلك التوتة العجوز ما عرفتـه، هُدم البيت وحل مكانه آخر من طابقين، في الجانب المطل على الغيطـان دكان بقالة وفي الجانب المطـل على الطريق الرئيس مقهـى شـعبي امتلأ بكراسـي الخيـزران التي تجلـس عليها كروش وأفواه تنفخ دخان الشيشة.

ما عاد لك ولا لأبيك ولا لذكرياتك أثر، كل شيء تغير، تبدل.

هبطت ببطء متحاشيا خيطك الرفيع، مررت من بين الجالسين على المقهى متفاديا دخان الشيش، وكرش مَن كان يومًا إماما لمسجد البلدة، فقط ظل خطيب المسجد كما هو بنفس تكشيرته وعبوسه، يطلق رصاصات التحريم و كأنه نصب نفسه مكان الله.

اقتربت منه، حاولت أن تحدثه؛ لم يخرج لك صوت، ضربت عمامته المتحذلقة فلم تقع ولم يصلها تأثير الضربة.

قررت أن تصرخ فيهم بعجرفتك السابقة، صرخت ولم يسمعك أحد أو ينتبه إليك أحد، أنت ماء والآخرون زيت وبينكم برزخ الفصل.

أخذك فضولك إلى تلك الرائحة القديمة بكل نتنها، حيث غرفتك ذات النافذتين المتناقضتين، تلك التي كانت تطل على فضاء الحقول بنسائمه، والأخرى التي لطالما أغرقتك في رائحة روث المواشي.

حلقت ناحية التوتة الكبيرة التي بدت محنية على خشبها في شيخوخة متأخرة، حططت على فرعها العجوز الشاهد على صلبك وجلدك من قِبل أبيك.

كرهت ذلك الفرع وتلك الذكريات.

طرت ناحية المئذنة التي ارتشقت في السماء، هبطت، حلقت على مستوى منخفض، الطرقات تبدلت، رُصف بعضها، وبعضها الآخرازداد سوءا.

هبطت أكثر، حططت على السور الممتد أمام المسجد، رحت تمسح ذلك الفضاء، تسترجع ذكريات بعيدة، تستحضر أمامك ذلك الجسد الذي كنته يوما بلحية مبتورة ولقب لم تحبه «الشيخ رياض».

تذكرت حين ارتديت قناع عابد لتستجير من ألسنة أهل القرية وأنت الغارق في الكفر والإلحاد.

أفزعتك تلك الأصوات الآتية بضجيجها من بعيد، نفس أصوات العيال الذين احترفوا معايرتك حين كنت صغيرا، قفزت، ارتفعت إلى أعلى قليلا ثم عدت إلى حيث كنت، موجة العيال تقترب، تطارد مجذوبا من مجاذيب القرية، تقذفه بالحجارة والسباب فيستجير بالجدار، هبطت بالقرب منهم، استغربت كثيرا حين جاء ناحيتك كلب وظل ينبح.

كيف يراك كلب ولا يراك ولايسمعك رواد المقهى وسكان الأرض؟

غرائبية إذن تزداد، تتلبسك وتقربك من ذلك المجذوب.

رغم كثافة لحيته وتبعثرها، رغم قذارة أثماله، كان في العيون شيء يشـدك، يقربك، أو يعذبك، أحاسيس غريبة ومتداخلة، طرت ببطء متعرج فوق الرأس، اقتربت من عينيه الحائرتين، التائهتين، يااااااااه! إنـه عبد المولى حسـين صديـق الطفولة والدراسـة، ذلك الصحفي الـذي أراد يومـا أن يفضحـك فتجلت فيه صورتـك الإجرامية حين لفقـت لـه قضية مخدرات وأدخلتـه المعتقل، وها هـو الآن مجنون برتبة صحفي سابق، ضحية أخرى من ضحاياك.

كرهت نفسـك كثيرا، انتفضت ناحية المئذنه، اقتربت من الباب، كان موصدا، حاولت الدخول فلم تستطع، حال الباب بكامل ماديته بينك وبين الولوج إلى المسجد، استغربت أكثر!

كيـف لـكل الأبواب أن تـذوب أمامك، تتخللهـا بهلاميتك، إلا باب المسجد يظل هكذا مغلقا في وجهك؟

كيـف لعالميـن مختلفين أن يتشـاركا في المنـع والرفض وعدم القبول؟

حلقـت مرة أخرى، رأيت أباك يحـوم بالقرب منك، يُلوح إليك مـن بعيد، يصدر حركاتٍ غريبة فهمتها مباشـرة، كان يشـتكي إليك ممـا تفعله أمك التي ما لبثت أن مرت أمامك، تحلق بعصبية، تتقافز كعاصفيـر النار، تسـتدير بعيدا عنهمـا كرها، تلتحـف الجدار، تقرر الهرب.

تحلـق إلـى أعلـى، أعلـى، أعلـى مـن ذي قبل، تصطـدم بذلك الحائط من الرؤوس ومن الأجساد غير المكتملة، تغير خط تحليقك فيحيطـون بك، يحاصرونك، يرمونك بكسـف من نار، حجارة قيل في أذنك إنها من سجّيل.

تشـعر أنهـا تنغرس فـي كينونتك، فـي روحك المتجليـة، قالت الأصوات في صرخة معذبة:

- وجع الروح أقسى.

تجلـت الوشـوش أمامـك، اقتربت منهـا، كانوا ضحايـاك، هذا الـذي قتلتـه، وهذه أول مـن فضحتها، وهذه التي فقـدت عقلها من قهرك لها، وذلك... وذلك... كانوا كثيرين...

سـقطت، تلقفتـك أكف مبتـورة بأظافـر من حديد مزقتـك إربا، ألقت بك في الفراغ، تلقفتك مرة أخرى طيور بمناقير طويلة وأجساد لا تبين، نهشتك، مضغتك ثم ابتلعتك، أظلم الفضاء عليك، وضاقت النفس وتضاءلت، وقتها تشبثت بالخيط الرفيع، رحت تجذبه بعنف، تجدف بيديك في الظلمة الحالكة، تشهق علّك تنجو.

اقتربت من ماديتك، من ذلك الجسـد المُسـجّى، ورحت تلبسه جـزءا جزءا فتشـعر برائحـة لحمك والعطن المتسـرب من أسـفله، وكلما تمتلئ به تشعر بوميض نور يتسرب إليك عبر كُوة من نور في جدرانك المظلمة.

ثمة بؤر تأتيك بفيض من طاقة لا ينقطع، محرضات للبقاء في الجسد مرة أخرى، محرضات للالتصاق في ماديتك، جسدك بدأ يستجيب !

***

لم تكن حياة تعرف سر استفاقتك من غيبوبتك بهذه السرعة التي جعلت الأطباء يستغربون، وهم الذين أعلنوها صراحة:

- بعد 72 ساعة ممكن يفوق.

ربما السر في هذه الخراطيم المغروسة في ذراعيك أو تلك الكمامة التي تضخ في رئتيك الضامرتين مزيدا من الأكسجين، ربما وربما...

طرحت كل الأسرار ونسيت سرها هي، طاقتها هي، وهي رسولة الحياة ونبية تلك الطاقة الإيجابية، هي لم تزح كف يدها عنك منذ وصولها، مرة تمسح عروقك المتمددة في ذبول أسفل جلد ذراعك، ومرة أخرى تمسح ذلك الجبين الشاحب، وأخرى تضع خلسة قبلة سريعة على جبينك.

هذه المحرضات والمنشطات والمعجزات هي التي تعاملت مع مراكز الأمل في المخ ومع الرغبة في البقاء، أعطت لقلبك الذي قرر الانتحار غرقا قُبلةَ الحياة!

المـوت مُحبَطا يتشـابه مع المـوت على فضـاء الجليد / الموت مُجمدا، موتان لا يمكن أن يتمكنا من الشخص إلا إذا استسلم.

لـذا لا غرابـة فيمـا يقولـه الفلاسـفة والحكمـاء: «بـأن المـوت جبـان وضعيف لا يأتي إلا بعد أن يرسـل جنـوده يدغدغون صمود الجسـد، وإن جاء علانية فهـو يأتي بغتة، يأتي مـن الخلف، أو يأتي في الظلام!».

حيـن استـفقت رمقـت بإعياء شـديد وجـه حيـاة، قاومت حتى رسـمت بغير اكتمال ابتسـامة أو شـبه ابتسامة، ابتسـم الأطباء لحياة وراحوا يزيدون جرعات الأدوية في كيس المحلول المعلق.

عبـأت حيـاة صدرهـا هـواءً وأخرجته بهـدوء وتركت جسـدها يرتخـي فـي ارتيـاح على حافة السـرير، تغمـض عينيهـا كأنها تغلق صفحة كان عنوانها القلق والفقد منذ أن جيء بك شبه ميت إلى هذه الغرفـة التي حين تأملتها لم تجد اختلافا كبيرا بينها وبين حوشـتك، كل شيء باهت، ذابل، مخطوف من ذاته وأصله، ليس على حقيقته، بياض الأسـرة الذي غادر بياضه إلى صفار شـاحب يتشابه تماما مع لون بياض عيون أطفال المقابر، شـيخوخة خشب الأسرة، الحوائط اعترتها تشققات جفاف الموت.

الأبـواب ضاع دهانها، ملئت بالشـخبطات، عليهـا ألف خريطة وخريطة مثبتة بعبـارات وكلمات كلها لأناس مروا من هنا، توجعوا هنا، وفارقوا أحبتهم هنا.

لا فـرق بين مقبـرة لاذ بها الأحياء كمسـكن، يدخلونهـا فترة ثم لا يخرجـون! وبين غرفة في مستشـفى حكومي بأفقر حي من أحياء القاهرة يأتيه الأحياء مرضى وأيضا لا يخرجون.

هما إذن مكانان للدخول الأخير!

مكانـان الداخـل إليهمـا مفقـود والخـارج منهمـا لا يخـرج إلا بمعجزة!

حين ارتخى جسـدها سـربت حنينها لذلك المستلقي بجوارها، سربته لك لتحيا به.

تمددت بطول ذلك الجسد «البين» شبه الحي، تحاول أن تُسرب إليـه كامـل طاقتهـا ومخزونها للحيـاة علّه يشـفى، تعرضـه لصعقة كهربائية تُخرجه من «بينه»، تعيد إليه نصف الحياة الذي فيه.

رفعت رجليها بهدوء وحذر، حتى لا يئن عظم السرير فيزعجك، مدتهمـا بجـوارك، لأول مـرة تلامسـك بكامل جسـدها، لأول مرة تعيش تلك اللحظة الوهمية بأن تجاورك في سرير.

التصقـت بـك أكثـر، أزاحـت نصفها الأعلـى ناحيتـك، رفعت ذراعهـا، وضعتـه فـوق رأسـك، ضمت ذلـك الرأس فـي حضنها، قربتك من صدرها و بأصابعها مسـحت حبـات عرق فوق حاجبك الأيمن، ضمتك أكثر، أراحت بهدوء جبينها على جبينك، أغمضت

عينيهـا وتركت الجبينين والرأسـين يبدآن حـوارا تمنت أن تخوضه بلا أية محظورات.

- من أنت؟

ترى أي سر ذلك الذي يجعلك تريد الموت؟

هل تحبني كما أحبك؟

تراها كيف النهاية لأمثالنا المطحونين؟

..................؟

..................؟

بعـد أن أنهـت صفحـة الأسـئلة راحت تسـرب إليـك يقينها في الحياة والأمل. ثمة في الحياة شيء جميل يستحق أن نبقى من أجله حتى لو كان ذلك الشيء أن ننظر إلى وردة وبعدها نموت.

حيـن تقـول إن الحيـاة وصلـت محطتهـا الأخيـرة وعليـك أن تختار الموت هـذا تقديرك أنت لكنه ليس صحيحا؛ لأنك لا تعرف مسـبقا كم محطة سـيمر بها القطار، ولا تعرف شيئا عن ذلك القطار وغاياته.

إننـا ارتضينـا منـذ قدومنـا لهـذه الحيـاة أن نخوض مبـاراة وفق القواعـد التـي تحكمها وأولها أن صافـرة النهاية من سـلطة الحكم وأننا لسنا حكاما للمباراة بل لاعبين.

أصحـاب الابتلاءات الكبيـرة والمصائب المخيفـة لا يجب أن يخافوا من المستقبل؛ فلن يرمي عليهم بأصعب ولا أخطر مما رمى من قبل.

لـذا إن كنا قد جربنا جراب القسـوة والوجـع فلننتظر أن تفتح لنا تلك الحياة جرابها الأخير ربما يكون جميلا.

الصمـت الـذي لف المـكان كان غريبـا مغلفا بهالـة كتلك التي تشـعرها فـي المعابـد القديمـة، ثمـة أصـوات لا تسـتطيع أن تفك طلاسـمها، غامضة متداخلة، متسقة، متوافقة في «التون» والهمس، خليـط من همهمـات، وترانيم الكنائس، والحروف المتسـاقطة من بسملة واستغفار المتعبدين.

شيء ما يتوحد بينكما، يربط الجسدين بشرايين تعيد الحياة.

فـي الخفـاء ثمـة عمليـة معقدة تـدور بيـن الجسـدين، اتفاقات وتبـادلات ورسـل للحياة يصارعون رسـلا للموت، مشـهد كذلك الذي رأيناه في فيلم «أفاتار» أسـفل شـجرة الأرواح المقدسـة حين تستلقي الأجساد المجروحة أو تلك التي على وشك الموت، وبعد قـراءة تعاويذ الحياة تلتصـق العروق والشـرايين بتفرعاتها الصغيرة المضيئه، تلتحم مع ذلك الجسـد مرسـلة طاقة منيرة، ناقلة للجسـد المقبل على الموت محفزات الحياة.

لـم تصـدق حيـاة مـا شـعرت بـه حيـن تحـرك رأسـك، أزحت حواجبك فاتحا عينيك، كاشـفا عن نظرة أكثر إشـراقا، تحمل بعضا من بريق الحياة.

فركـت عينيها، تراجعت برأسـها إلى الوراء لتغيـر زاوية الرؤية، كنت تبتسم!

تحـرك مقلتيك بارتياح، تسـرب إليها نجاح سـرها، نجاح تلك العملية / البعث، التي أتمت خطواتها على جناحي طائر الفينيق.

حركت يدك اليسـرى بتثاقـل ناحيتها، اسـتقبلتها بفرحة، قبلتها، شعرت بأصابعك تضغط بحنو لذيذ على كف يدها، قبلت يدك مرة أخرى:

- حمد الله ع السلامة..

قالتها بفرح وشجن مشحون.

- شكرا..

قلتها.. وكأنك تؤكد لها تقديرك لما فعلته.

لاحظت أن ذراعك اليمنى لا تتحرك، اهتزت كأنها تلقت سهما فـي صدرهـا، ابتلعت بعضا من ريقها الذي جف، اسـتقبلت سـهما آخر حيـن رحت تتأتئ، تتحـدث ببطء، دققت أكثر، التوى لسـانك قليلا ناحية فمك الذي اعوج ناحية اليمين أيضا.

لـم تُـرد أن تنقـل لـك إحساسـها المشـحون بالخـوف والقلـق والصدمـة، بالغـت في ابتسـامتها، تحدثـت كثيرا حتـى لا تترك لك فرصـة المعانـاة فـي الـرد، اكتفـت بإيماءاتـك وتعبيراتـك المتعبه، حكـت لك عـن وحيد النائم في الغرفة التي تجاورك، سـربت إليك حالة «بينه» وفشـل الجميـع في توفير مصاريـف العملية الجراحية، نقلـت لك مـا قاله الأطبـاء عن ثقب القلب الذي اتسع بما يسـمح بدخول ملك الموت مرتاحا إلى حياة وحيد!

أدرت رأسـك عنهـا قليلا تاركا دمعة تسـيل ببـطء حزين نا حية خدك الأيمن، وكأنك لا تريد لها أن ترى تلك الدمعة العالقة.

– ع.ا... عاوز.. قلم.وورقة.

لـم تفهـم في البدايـة، كررت بتأتـأة أكثر حدة، أحضـرت لك ما أردت، رحـت تخطـط لهـا وتكتب بارتعاشـة: «في الحوشـة، فوق رأس القبـر، حفرة بها مبلغ مـن المال، أحضري منه ما يكفي لعملية وحيد، واتركي الباقي مكانه».

فتحت عينيها بكامل الاندهاش والحب، ضمتك كثيرا، وقبضت على تلك الورقه التي تحمل بصمات خيرك وانطلقت.

رفعـت يـدك اليسـرى وودعتهـا، وبقيـت تنظـر لتلك اليـد التي ارتكبـت بها آلاف الجرائم، رأيتها لأول مرة مختلفه، بيضاء، بلا أي دنس.

في قلبك ارتياح ورضا غريبان، سكينة لم تشعر بها في حياتك، رأيت ذلك القلب الذي كان دائما مثقلا بهموم وتساؤلات وقلق الدنيا، رأيته خفيفا كطائر صغير يحلق بحرية ونقاء، وكأن ذلك القلب كان مخزنا لكراكيب وقاذورات وعفن العالم وفجأة أُخلي وتم تنظيفه وترميمه وإغلاق جحوره وحفره، وتم طلاؤه، وإطلاق البخور فيه، وفعلا تأتيك الآن رائحة بخور غريبة لم تشمها من قبل.

ترى أركان غرفتك ليست باهتة كعادتها، غطى عينيك ذلك اللون من الخضار الصافي، لون الخضار الذي تكسى به قبور الأولياء، هو نفس اللون الذي رأيته على قبور: الحسين، والسيدة زينب والسيدة نفيسة، ما زالت تلك التراتيل الخفية والترانيم تملأ فضاء الغرفة، ثمة ملائكة بأجنحة مثنى وثلاث يحلقون من حولك، لم تكن تعرف تفسيرا لذلك، فقط ثمة شيء يؤكد لك أنك بدأت في مغادرة سوئك، بدأت تتطهر، تحتفي بأول إشعال لفانوس القرب في ظلمة روحك، تحتفل بأول شجرة زرعتها للتو في حديقة الخير..

***

حين وصلت حياة إلى حوشة رياض دلفت مسرعة، لم تعبأ كثيرا بصدأ ذلك المفتاح، ولا بتعثر الباب العجوز، ولا بعطن المكان وقتامته، فقط كانت عيناها مسلطتين على قبر أبيه، اتجهت ناحية

الـرأس، أزاحتـه بعناء، فتشـت حتى عثـرت على خبيئتـه، أخرجت لفافاته، تسربت إليها رائحة تختلف عن رائحته التي اعتادتها، تشعر أنها تقترب منه، ومن سره، تغوص إلى أعماقه.

قلبـت تلك اللفافة أمام عينيها، أخـذت منها نقودا تكفي لإجراء العمليـة الجراحيـة لوحيـد، راودهـا شـيطانها علـى أن تفتـش أكثر علها تقع على اكتشـاف يكمل صورتـه المنقوصة، كان هناك هاتف محمـول، من المـاركات الراقية، وأوراق بيضاء وقلـم أنيق ودفاتر، وبعـض المسـتندات مذيلة بنسـر تآكلت أطرافه، نسـر ما عـاد يليق بكونـه رمزا لدولة تترنح ورموزها يتسـاقطون أسـفل أقـدام ثورات شعوبها.

لـم تجد ما تريده، أعادت كل شيء إلى طبيعته، أعادت رأس أبيه إلى مكانه، غادرت سـعيدة إلى المستشـفى مرة أخرى، وهي تحمل فـي يدهـا راية نصرها، فخورة بـه وهي التي اعتبرتـه زرعتها الأولى متمنيةً أن تثمر وتجود بحصاد يعوضها عن كثيرمن حرمانها.

***

يذكر «حسـن أبو علي» أن الشـيخ زوزو ظل طوال سفرهما إلى طنطا صامتا، شـاردا معلقا عينيه في الفراغ، راسـما في مدى العمى والفقد ما قد تؤول إليه كامل السيناريوهات إذا ما رفض أخوه الشيخ عبد الحميد منحه مبلغ النجاة لوحيد.

الفجيعة التي يخافها أن يضطر لإكمال تلك الحياة بدون وحيد.

تمنى لو يملك تلك القوة التي تجعله يستطيع أن يحسم أمره بين عالميـن يحمـلان كل هذا التناقض حتى يخرج مـن منطقة الجنون، كأن يقتـل أخاه عبد الحميـد مثلا إذا رفض إقراضه المبلغ وتسـبب في موت وحيد.

لكنـه يـدرك بقليل من الرجوع إلى تلك الـذات القلقة أن تكوين من يشـبهونه، أولئك الواقفين في هـذه البؤرة الرمادية «بؤرة البين»، لا يملكـون مؤهلات الانتقام والثأر، ولو كانوا يملكونها كما حدث مع درديري ورياض فهي تضيع منهم قبل الوصول إلى هذه المنطقة «البَين»!

رجرجة السـيارة وحدها تعيده من حسـاباته التـي نتيجتها صفر، تعيده إلى حسن أبو علي الغاطس في صمته:

- نعمل إيه لو رفض أخويا عبد الحميد إعطاءنا المبلغ؟

طمأنه حسن:

- ها تتدبر.

لم يكن حسـن يعرف من أين سيدبر ما يبدو بعضا مما علق على ذلـك الوجـه المرهق. لأول مـرة يرى الشـيخ زوزو، أسـتاذ المرح والضحك في هذه الحالة.

حسن كان متأكدا أن أخا الشيخ زوزو لن يعطيه شيئا، هو لا يثق في صلة الدم وأبناء الرحم الواحد وهوالذي لُدغ من جحر ذلك الرحم حين سرقه أبناء عمومته:

- الرحم الواحد ينجب أنبياء وقتلة.

هكذا كان يقول للناس ولزملاء السجن الذين اكتشف أن أكثرهم جاء إلى السجن بسبب المرأة و بسبب تلك الرحم.

يذكر حسن الأخوين بدوي وسالم اللذين تجاورا في زنزانة واحدة لأنهما قتلا شقيقهما الثالث بسبب الميراث.

ما الذي أوصل الأخ لأن يقتل أخاه بهذا التعمد في الانتقام دون ذرة شفقة؟ ما الذي عطل أجهزة الرحمة عندهم عن العمل؟

إنها القسوة المصحوبة بالإهانة، ذلك الذي لا يستطيع عقل حسن البسيط أن يصل إليه:

«قصور الانتقام تُشيد من لبنات القسوة والإهانة!».

وقفت السيارة، لم تكن المسافة بعيدة عن بيت شقيق الشيخ زوزو، حين وصلا، استقبلهما حسين ابن أخيه بترحيب مبالغ فيه، حسين يشبه الشيخ زوزو في كل شيء حتى الشكل.

كان الاستقبال مبشرا، كرم «عيشة» وخديجة المغلف برحمة.

رحابة بيوت القرية ونقاء هوائها مسح قليلا من القلق العالق في روح حسن، أما الشيخ زوزو فظل محط قلق الجميع لدرجة أنه بكى على كتفي عيشة وخديجة فانفرط عقد دموعهما على كتفيه.

ظل هذا الموقف يتسربل في رحمته حتى دخل الحاج عبد الحميد بصوته الجهوري القاسي.

بلا أي مقدمات رمى الشيخ زوزو بطلبه، وبلا أي شفقة رفض أخوه.

تبدل المكان، صرخ الشيخ زوزو بعلو صوته معلنا نفاد ما بقي من مخزون صبره، مسترجعا دقائق أمور قسوة أخيه، فاردا جراب الذكريات الأليمة، مذكرا الجميع بما ضاع، بميراثه ونور عينيه وشهادته ومستقبله الذي تلاشى وحياته التي تحطمت.

اندفع ناحية الحاج عبد الحميد ربما يقوى على قتله، لكن حسين ابن أخيه حال دون ذلك، ربما خوفا على عمه أكثر من أبيه، أو هكذا شعر حسن.

انتهى الموقف وانتهى ذلك الأمل.

عاد الشيخ زوزو بعد أن أصر حسين على إعطائه ما يملكه.. ألفي جنيه و«إسورتين» واحدة لخديجة والأخرى لعائشة.

***

هكذا دائما رحلة الذهاب ليست كرحلة الإياب!

فرحلة الذهاب تتحرك على أجنحة الرغبة في اكتشاف ما هو مجهول، أما رحلة الإياب فتبقى رهينة بالنتيجة والمآل.

لكن الشيخ زوزو تشابهت رحلتاه في كل شيء، فلا طبع أخيه كان مجهولا له، ولا النتيجة ابتعدت عن الصفر.

هو كان يدرك ويوقن أن أخاه لن يلبي طلبه، لكنه راهن على عدم ثبات أحوال النفوس، ربما تتغير نفس أخيه إلى الأفضل، ربما يكون فعل الزمن قد حرك تروس شفقته التي صدأت، ربما أراد أن يجمع أكبر قدر من الحجج والبراهين والأدلة التي يحتاجها استعدادا ليوم الحساب.

ظل الشيخ زوزو متماسكا حتى وصل إلى باب المستشفى، دلف إلى ذلك الممر الذي يؤدي إلى غرفة وحيد، هرول بفوضى اللهفة وظلمة فاقدي البصر، كان يجري في خطوط متعرجة حتى لحق به حسن وأمسك بذراعه وهرولا معا صوب ذلك الباب الموارب، المفتوح قليلا على الأمل والمنغلق كثيرا على اليأس.

اندفع الشيخ زوزو ناحية وحيد، قبله في كل مكان، تحسس رأسه ويديه وجبينه وقدميه وكأنه يريد أن يتأكد أنه ما زال كما تركه كاملا.

هو يعرف جيدا أن أخذ الأيام يأتي خلسة، فهي تأخذ بالتدريج، تسرق بحرفية عالية، قطعة قطعة حتى تستحوذ على كل شيء.

يخبئ نفسه، يتوارى خجلا، محاولا إخفاء لافتة الخيبة المعلقة على صدره بإمضاء أخيه.

يتأكد له أنه استسلم وتنازل عن الثأر من أخيه لكنه الآن غير متقبل لتلك النتيجة، غير متقبل أن يكون وحيد ضحية جديدة لأخيه الشيخ عبد الحميد كما كان هو ضحية قديمة.

ثمة مرارة في حلقة وضيق في صدره وثورة تغلي في كل ذرة من جسده تهتف باسم الثأر والانتقام.

***

في المساء فتش حسن وصديقه عصام عن كل المخارج التي تمكنهما من توفير المبلغ المتبقي لإجراء العملية الجراحية لوحيد، كانت حسابات عصام مختلفة كثيرا عن حسابات حسن؛ إذ لم يكن متحمسا كثيرا، كان يردد دائما:

- لو له عمر باقي هيعيش ولو ملوش والله لو معانا مال الدنيا..

استغرب حسن من قسوة عصام، كان يراه وكأنه يرى شخصا آخر غير الذي عرفه، عصام حدق كثيرا في عيني حسن، أراد أن يوصل له تلك الرسالة:

- يا صديقي أنت أهم أولوياتي الآن، ما يمكن أن أوفره بالكاد يكفي لأن أدفع مقدم تلك الورشة التي تعيدك إلى حياتك السابقة، كيف لي أن أفرط في ذلك المبلغ بحجة الشفقة أو الصدقة أو أي شيء؟

انتفض حسن واقفا، طالبا من عصام أن يرافقه إلى بيت حنفي شقيق إيمان، كان في داخله شوق كبير لإيمان، وخوف من إحساس الفقد الذي يراه يقترب حين يتناقص الأمل في إنقاذ وحيد أو شفاء رياض.

لم يكن الطريق مزدحما إلى القلعة كما تعوده حسن في هذه الساعة من المساء.

حين وصل إلى بيت حنفي لم ينتظر أن ينهي عصام ركن سيارته، بل نزل وراح يحدق صوب البلكونة المعلقة بين السماء والأرض، التي تحمل بعضا من رائحة إيمان، بلوزة حمراء ارتدتها كثيرا حين كانت تزوره في السجن، وأخرى في لون أوراق الشجر كادت تتمزق حين نفضت يده بعيدا عنها ذات مداعبة.

طرق الباب باندفاع، فتح حنفي مترددا في السماح لهما بالدخول، ولما قرأ ذلك الإصرار والتحدي في عيني حسن سمح.

بعد فترة صمت قال حسن:

- أنت وعدت يا حنفي، كفاية عِند، إيمان لي يا حنفي.

لم يكن حنفي يبادله النظر أو الحديث، كان يحدق في مجهول.

- لازم أتكلم مع إيمان.

وقتها نطق حنفي:

- إما إنك أهبل وإما إنك قليل الأدب.

وقتها تدخل عصام بسرعة وكأنه يريد أن يوقف تطور موقف هو يعرف مسبقا إلى أين سينتهي:

- إحنا في بيتك، يعني ضيوفك.

صمت حنفي، ثم راح يدلق على حسن المزيد من اليأس والإحباط، يكرر شروطه السابقة ويزيد عليها.

ذكره حسن بوعده الذي قطعه على نفسه أمام الرجال حين عادت إيمان من هروبها، لم يعلق حنفي لكنه استند في رفضه على خوف الأخ على أخته خصوصا إذا كانت وحيدة مثل إيمان.

غادر حسن بيت حنفي بنفس الخيبة التي غادر بها الشيخ زوزو بيت أخيه الحاج عبد الحميد، وكأن الدنيا تضع الناس في خانتين فقط، خانة الذين خُلقوا ليرتدوا قمصان الخيبة، وخانة الذين خُلقوا ليصنعوا هذه القمصان وبإتقان الشر.

حسن والشيخ زوزو صنف واحد، يذهبون دائما محملين بالأمل ويعودون وهم يحملون سلالا مملوءة بأكياس «الصفر» اللا شيء.

حين أوصله عصام إلى حوشته طلب حسن منه ألا يتركه، أن يبقى معه، قال له:

- خليك معايا، لأول مرة أحس إني خايف من نفسي.

لم يذكر عصام أنه رفض طلبا لحسن، كما لم يذكر أيضا أن حسن رفض له طلبا، سارا يتحدثان وهما ينفخان دخان سيجارتيهما المحشوتين بالحشيش، يتسكعان بين أرصفة المقابر، يستنطقان النائمين في سلام وارتياح، قال حسن:

- يا بختهم ارتاحوا من هم وقرف الدنيا.

ابتسم عصام:

- ومن أخبرك أن الآخرة مافيهاش هم.

ثمة فرق كبير بين هذا المكان في النهار حين يكون مرتعا لأولئك المُتطفلين على خصوصية الموتى وبينه في الليل حين ينسحب سكانُه إلى حوشاتهم التي احتلوها على كُرهَين اثنين، كرهُهُم لها وهم الذين جاءوها مُجبرين مقهورين مطحونين أسفل عجلات الحاجة، وكرهُها لهم لأنهم احتلوها، نزعوا هويتها، شتتوها وهي المفطورة على احتواء الموتى، فوجدت نفسها تحوي الاثنين، موتى وأحياء!

رغـم أن حسـن واحد من هـؤلاء المُتطفليـن السـاكنين المكان والمعتادين عليه إلا أنه رأى شيئا غريبا هذه المرة، السكون والهدوء خانقيـن، ثمة خوف يُخيم عليـه وكأن المكان كله على حافة انفجار كبير، انفجار يعيد تشكيل الكون من جديد.

ربمـا ارتـدى المكان لباس الحـزن على وحيـد ورياض، فذلك المـكان الغـارق في التناقض الـكاره لقاطنيه يحـزن أيضا إذا مرض أحدهـم أو اقتـرب منـه الموت رغم أنهـم لو ماتوا سـيبقون فيه، لن يغـادروه، مكان يسـتوعب الناس في الحالين، سـواء كانوا أحياءً أو أمواتا.

بكسـل وصـلا إلـى المقهـى، كان حودة فنجـان قد بـدأ للتو في الانسـحاب المتدرج خلسـة من المقهى الواضح للعيان إلى الغرزة الخلفيـة حيث يـزداد الأمر خصوصية وضيقا و تبـدأ احتفالية النفخ المحرم، أو تبدأ مائدة الشيطان كما يحلو للشيخ زوزو أن يسميها.

لم يكن حسـن جاهزا للمشـاركة فـي هذه الاحتفاليـة، كان لديه شوق واحتياج كبيرين لأن يتحدث و يفضفض.

شـعر فجأة أنه خارج للتو من صيـام طويل عن الكلام، حاول أن يصمـت، أن «يفرمل لسـانه» لم يسـتطع، عادت إليه تلـك الصرخة المؤجلة التي خجل أن يطلقها حين ضاعت ورشته وبيته ومات أبوه ودخل السجن، أراد أن يسربها الآن بهدوء مُقنن.

كعادة عصام، كان مستمعا جيدا كما تعوده حسن دائما، لم يُظهر أي ملل من سماع حكايات حفظها، بل وشارك في أحداثها وربما ما زالت ذاكرته تختزل تفاصيل أكثر من تلك التي تختزلها ذاكرة حسن، لكنه يفهم صديقه جيدا، فليس القصد من السرد الأخبار بل التنفيث.

توقف حسن عن تلك الفضفضة حين جاء علي منولوج بهدوء غير معتاد وبهيئة تشي بقرفه، ألقى السلام وجلس يحدق في شيء غامض في البعيد كأنه يتابع مشهدا لا يراه إلا هو، يحدق وينفخ ما بقي من دخان سيجارته المتورمة، يرد باقتضاب على محاولات حسن وعصام في إخراجه من صمته، أو حتى استفزازه.

الأمر تبدل تماما حين وصل شطة الذي لم يتوقف عن الأسئلة:

كيف وحيد؟

أخبار العملية؟

ومصاريف العملية؟

وماذا لو لم تتوفر المصاريف؟

ممكن وحيد يموت؟

طيب لو مات.....؟

.....و..........

و؟...............

كان حسن رحيما بشطة أكثر من علي الذي كاد يضربه بسبب كثرة أسئلته، علي دائما تفوته التفاصيل ويجهل قراءة شفرة المشاعر، تفسير الكيمياء التي تربط بين المتشابهين مثل وحيد بكامل يتمه وشطة المبتور من شجرة لما تزل باقية، لكنها جاحدة!

المتشابهون يشعرون أكثر ببعضهم بعضا، هو خوف ورعب وفزع شطة من أن يخسر شبيهه في اليتم والألم، ويخسر من يشعر معه ببعض أُخوة مفقودة.

شرخ صمت المكان فجأة أصوات فرملة لأكثر من سيارة، ضجيج أخذ عيون وانتباه واندهاش الجميع، سرح حسن في لون هذه السيارات التي تشابهت في السواد وفي الفخامة، أربع سيارات وقفت في دائرة متقابلة تاركة حلبة غارقة في نور فوانيسها.

من كل سيارة نزل أربعة رجال برتبة بغال يرتدون قمصانا سوداء تضيق على عضلاتهم المنفوخة، انقسموا إلى فريقين متقابلين.

- يااااه والله زمان!

رمى حسن بهذه الجملة بعد أن دارت عجلة ذاكرته دورة كاملة، وتذكر الغرباء المجانين الذين كانوا يأتون إلى هذا المكان ليصفّوا حساباتهم القذرة، يخوضون معركة تنتهي بمجزرة بعد أن تمتلئ

تلـك الحلبـة بالجثث، بل وبالأعضاء البشـرية أحيانـا، ثم يغادر من بقي حيا وتجيء سـيارات أخرى لتحمل بقايا المتعاركين، يدخلون إلـى أقـرب حوشـة يفتحـون قبرهـا ويلقون مـا يحملون بلا غُسـل وبلا أية تراتيل، ويغادرون.

تذكـر حسـن نجوميته بسـبب هـؤلاء الغامضين حين قـاد حملة ضدهـم مـع درديـري وعلـي وحتـى الشـيخ زوزو وجميـع أهـل المكان.

حسـن اكتشـف سـرهم ذات ليلـة حيـن تتبعهـم بعـد أن جاءوا خلسـة متحابين، يُغلقون أحد الممرات، يحملون نعشـا إلى حوشة تسكن في آخر ممر، حوشة معزولة، يظلون حتى أول نور للفجر ثم يتسربون الواحد تلو الآخر ويغادرون.

ظل حسـن يراقبهم إلى أن تمكن من الصعود خلف سـقف هذه الحوشـة، وقتهـا عرف أن النعـش يخلو من ميت ويمتلـئ بصناديق الحشـيش والأفيون والهيروين، ولا ينسى تلك الليلة التى رأى فيها مـا لم يره أحد، فحين فتحوا النعش وكشـفوا عن رُزم من النقود فئة المئة جنيه مصرية، ليس رأسا واحدا للمال بل جثة متكاملة الأعضاء من المال.

أبلـغ حسـن الشـرطة في تلـك الليلـة بعد تـردد ولم تمر سـوى سـاعات إلا وامتـلأ المـكان بسـيارات الأمـن المركزي والعسـاكر والضباط، ظلوا لليلة يتصارعون حتى تم القبض عليهم.

بعد هذه الحادثة عاشـوا في أمـن بعيدين عن قلقهم ومخدراتهم حتـى عـادوا بعدهـا ليقتـل بعضُهـم بعضا، لكن حسـن وقـف لهم بالمرصـاد، حتى جاءته فكـرة ذات ليلة حين أشـعل النار في برميل السـولار الذي يضعه حودة فنجان خلف المقهى ليشـعل به الفحم، أشـعله بعد أن حشـا فم البرميل بالأقمشـة القديمـة وتركه يتدحرج ناحيتهم، وحين اسـتقر بينهم لم يولوه اهتماما؛ فجميعهم كان يبتلع من «البرشام» المخدر ما يُغيب حمارا عن الوعي، كانوا لا يشعرون بالدم الذي يسيل منهم.

ظل البرميل مشـتعلا بعض الوقت وفجأة انفجر كقنبلة مبعثرا ما بقي منهم ومُحولا المكان إلى جهنم.

وقتهـا عاش حسـن على نجومية بطولته وشـجاعته التي هزم بها ما فشـلت فيه وزارة الداخلية، كان اسم حسن بالنسبة لأهل المكان مرادفا للأمن وللنخوة والرجولة والشـجاعة؛ لذا حين دخل السجن عاشت أخته حياة عزيزة محمية من قبل الجميع إكراما لأخيها الذي كان الذراع والحماية لهم.

هتف علي بصوت مرتفع:

- رجعوا تاني، رجعوا تاني بشرهم!

صياح علـي منولوج أيقظ حسـن من سـرحانه، اسـتفاق عصام الذي لبس الصمت لدقائق وانعزل مغمضا عينيه تاركا علي وحسـن

وشطة يكملون نقاشا شعر أنه لا يهمه، تذكر عصام أنه كان حاضرا لكل المعارك التي كان حسن يخوضها مع هؤلاء سابقا.

أشار إلى حسن وذكره بالخطة السابقة، ببرميل السولار، بذلك الانفجار الذي يوقظ مصر كلها لترى أشرار الأحياء الذين يقضّون مضاجع الأموات، الذين عز عليهم أن ينام الأموات بغير رجسهم وإزعاجهم وخطيئتهم.

طلب حسن من شطة أن يذهب إلى حوشة درديري ليأتي به سريعا، أسرع علي إلى غرزة حودة فنجان وعاد ببعض ممن لم يفقدوا كامل عقلهم على خشبة السكر والحشيش.

وقف الجميع ينتظرون أوامر حسن بعد أن جاء درديري ببقايا نومه، أحضر حسن ذلك البرميل وراح يحشو فوهته بالملابس القديمة التي جمعها شطة من أكوام القمامة، لم يطل انتظارهم حتى بدأت المعركة، كانوا يتواجهون اثنين مقابل اثنين، المعركة بلا صياح أو سباب، كانت كما يردد المصريون في نُكَتهم: «كلها ضرب ضرب مافيش شتيمة».

حسن وجماعته يتابعون المعركة وكأنها إعادة لفيلم قديم يعرفونه جيدا، كل شيء يتم بنفس الترتيب، العراك، إزاحة القتلى.

حسن يُجيد معرفة توقيت تلك اللحظة التي يدحرج فيها برميله المشتعل، انتظر ثم دحرج ذلك البرميل لينفجر بصوت

أعلـى بكثير من ذي قبل، أيقن حسـن وجماعتـه أن القاهرة بكاملها ستصحو، ستسـتيقظ على ذلك الصوت وتستفيق من ثباتها وتأتيهم سـعيا وهرولة ليروا ماظلوا سـنين ودهـورا صامتين عنه متسـربلين فـي لامبالاتهـم بحجـة أن الشـر بعيـد عـن ديارهـم وبعيـد عنهم، لا يدركون أن ذلك الشـر يعشـش في بيوتهم، بل وفي نفوسهم وفي عمق ضمائرهم المثقوبة.

صعد حسن ومن معه فوق أسطح إحدى الحوشات التي تمكنهم مـن متابعة ما يحدث في المكان، تجعلهم أول من يرون أفواج أهل القاهرة حين يأتون فُرادى وجماعات، يحررون المكان من رجسـه بل وينهون «حالة البين» التي هو وكل سكان المكان عليها، يثورون ضـد الذيـن كانـوا السـبب في وجـود الشـيخ زوزو وحسـن وحياة ودرديـري وحتـى رياض ووحيـد وعلـي منولوج وكوكـو الرقاصة وجميع سكان المكان المهمشين، المطرودين من رحمة الآخرين.

يذكـر حسـن ومـن كان معه أنـه لم يـأت حتى عسـكري الدرك المتواجد في المكان، أدركوا وقتها أن الأموات ليسـوا أولئك الذين فـي داخل القبور، بل هناك أموات آخـرون، أموات بطريقة مختلفة، أموات كصورة سـيدنا سـليمان عندما مات وهـو متكئ على عصاه فبـدا للشـياطين حيـا حتى جاءت الأرضـة وأكلت منسـأته / عصاه فسقط على الأرض، هؤلاء هم الأحياء في القاهرة، منتصبين واقفين لكنهم أموات ينتظرون تلك الأَرَضة لتأكل عصيهم فيسقطون.

تلبس حسن إحباط ويأس وخيبة أمل لم يستطع أن يفسرها بدقة.

***

متلعبكا في قفطانه يهرول الشيخ زوزو خلف الترولي الذي يحمل وحيد إلى غرفة العمليات، تعثر مرارا، كاد يقع لولا المحيطون به خصوصا درديري الذي احتواه بكلتا ذراعيه، هدهده، طمأنه ومعه حسن وحياة وعلي وشطة وجميع أهل المكان، كلهم ارتسمت على محياهم خريطة واحدة للقلق والحزن.

لم يتوقف وحيد عن تكرار رغبته في رؤية رياض:

- نفسي أشوفه، أشكره..!

أصر الشيخ زوزو على أن يتجهوا ناحية غرفة رياض، ورغم اعتراض الممرضات والطبيب المشرف، إلا أن الجميع أصر.

استدار الجميع ناحية الغرفة، وقفوا أمام بابها؛ فقد كان من الصعوبة إدخال الترولي، اعتدل وحيد متوجها بكامل جسده وقلبه المريض ناحيته:

- ربنا يخليك يا عم رياض.

حاول أن يكمل لكن دموعه غلبته، أسكتته، فأكمل الشيخ زوزو الرسالة:

- سأظل أنا وابني مدينين لك بأعمارنا.

غلبته دموعه أيضا، فأسكتته، غرق الجميع في بكاء مكتوم ونحيب يتجاوز الموقف إلى تراكمات يعلمها أهلها.

لأول مرة يشعر رياض أن للبكاء متعة تفوق أي متعة أخرى، تذكر ما قرأه سابقا: «البكاء مطية العائدين».

لم يستطع أن يتحدث، فقط اكتفى بالنظر إلى وحيد، شجرته الأولى في حديقة الخير والعودة، الدموع تنهمر بغزارة غريبة، تغرقه، يشعر ببلل صدره ووجهه، لوح إليه بيده اليسرى، ولم يعبأ إطلاقا بيده اليمنى التي استكانت في عجز بجواره، تلك اليد التي اقترف بها جميع موبقاته فباتت ذاكرة لذنوبه:

- لازم تشفى، ستعود يا وحيد، أنا محتاجك.

قال رياض هذه الجملة بتعثر في النطق وبفيض في الدموع، أنهى تلك اللحظة المشحونة التي أذابت الجميع بسخونتها حتى أن الممرضات والأطباء استداروا بعيدا ليتفرغوا لدموعهم المسكوبة.

كان الموقف أكبر من الجميع.

استدار الموكب مرة أخرى ناحية غرفة العمليات، والشيخ زوزو معلق في يد وحيد يبكي أحيانا، ويطمئنه أحيانا أخرى.

يدعو الله، يردد آيات من القرآن تستدعي رحمة الله وعونه.

حين وصل الموكب إلى الباب ذي «الضلفتين» الكبيرتين، خرجت رائحة البنج والأدوية،، وقف الأطباء والممرضون أمام الجميع، طالبين منهم عدم الدخول.

- أرجوكو انتظروا هنا..

ارتعش الشيخ زوزو، وتذكر لحظات الفقد في حياته، تذكر أباه، وتذكر كثيرين، تذكر نظره ونور عينيه، لم يستطع أحد أن يفك يديه من وحيد، تشبث به، طلب ببكاء شديد أن يتركوه دقيقة واحدة، ارتمى فوق وحيد، قبله في كل مكان، رجاه ألا يتركه، حتى أن وحيد انهار.

لكن الطبيب المعالج، خرج بقوة من داخل غرفة العمليات، نهر الجميع، ودفع الترولي ومن عليه إلى الداخل، وأمرهم بالصمت والدعاء.

تسرب نظر الجميع إلى داخل الغرفة، كان ثمة غموض ورهبة.

الكل تذكر كم شخصٍ دخل وخرج سالما، وكم شخصٍ دخل ولم يخرج.

هي إذن نفس نظرتهم، الدخول، والخروج.

سقط الشيخ زووز، جلس على الأرض، استند إلى الحائط البارد، وراح يدعو على أخيه الشيخ عبد الحميد صاحب توكيل

المنع والعقاب في حياته، حين ضاق صدره وانغلق أحس أن السماء قد فتحت أبوابها فتوقف فجأة مكتفيا بما خرج من دعاء مظلوم على ظالمه.

لـم يدم بـكاء وقلق وحيد كثيرا، فقد أخـذه غموض هذه الغرفة، حدق في تلك الخراطيم المعلقة، الأجهزة التي تصدر رنينا ينتظم مع دقات القلب، السرير الأبيض الممتد، ثمة نظافة وأناقة، وتنظيم، كل شيء في مكانه، الكل ارتدى كمامة على فمه، ما عاد يميز الوشوش، الكل تشـابه، العيون يكسوها تحفز غريب، اقترب منه طبيب، عرى ظهره، حدق في عينيه، كان بهما برود غريب يشي باعتياد.

ارتعـب وحيد أكثـر. أحـس أن الجميع جـاءوا ليحتفلـوا بموته لا لينجزوا شفاءه.

شـعر بألـم في ظهـره، بعـده راح كل شـيء يهتز أمامـه، ويبتعد، ويصبح، ضبابيا. واختفى.

***

فـي صالة الانتظـار القريبـة من غرفـة العمليات جلـس الجميع ورموا مشـبك عيونهـم على الباب ذي الضلفتيـن الكبيرتين، راحوا يضاهون بين ما بداخلهم مع مَن بداخل تلك الغرفة.

درديـري غـزاه قلق وخوف من الموت وهـو الذي ما تمنى يوما سواه، هو الذي ينام على حلم بألا يطول انتظاره.

درديري لا يتمنى لذلك الموت أن يأتي الآن ليخطف وحيد على أجنحة قسوته، لا يريد أن يأتي ملك الموت بحاشيته لينتزعوا تلك الروح التي ببراءتها تكتسب الدنيا طيبتها المفقودة.

أما الشيخ زوزو فوقف بالقرب من ذلك الباب ذي الضلفتين الكبيرتين وكأنه أراد أن يكون درعا يفتدي بها وحيد حين يريد ملك الموت أن يرسل حربته إلى روحه.

لو كان لمجيئه من بد فليكن ذلك الجسد الذي امتلأ عن آخره بالثقوب هو الفداء، كرر الشيخ زوزو مرارا طلبه من الله:

- إن كان ولا بد فخذني أنا بدل وحيد!

وبالنسبة لحسن أبو علي كان المشهد بكامله استعادة لمشاهد سابقة عنوانها الرئيسي هو العجز، حسن بفطرته وبساطته غير المغرقة في التفاصيل والدلالات كان يعرف أن حركة النفوس تتقافز عبر مدارج ومحطات للعجز وقلة الحيلة.. إن نجت من واحدة عليها اجتياز الأخرى.

هو عجز عن استعادة حقه حين سلب وتواطأت عليه الدنيا بحجة القانون وتطبيق العدالة، دخل السجن وهو الضحية، عجز حين خرج من السجن عن أن يتزوج إيمان، عجز ومعه الجميع عن توفير ثمن العملية لوحيد لولا رياض.

هو يعرف أنـه حتى لو اجتاز كامل تلك الاختبارات والمحطات فسـيخرج له القدر باختبار أصعب كما حدث مع الشـيخ زوزو حين ضاع بصره وأصبح فجأة مطالبا بأن يسير على حبل معلق بين برجين عاليـين، والناس من تحته مبهورون يصفقون ويهتفون ويشـجعون، ولو سقط يبصقون عليه وعلى ضعفه وفشله وإهماله ويبحثون فورا عـن بديل آخر يصفقـون له أو يتسـلون به، قرود إذن، نصف البشـر قرود تؤدي حركاتها البهلوانية في حديقة مفتوحة لآخرين يعشـقون التسـلية، والنصـف الآخـر خُلقـوا فقـط ليضحكـوا ويسـخروا من حركات القرود، ثم حين تنتهي اللعبة يبصقون عليهم ويغادرون.

ازدادت ملوحة الحقد في حلقه نحو كل السـاكنين خارج مرمى زبالتهم، مقابر الغفير كما كان يردد دائما أيام السجن أو في جلسات مقاهيهم، مريض بالحقد على أي شخص خارج تلك المنطقة.

وحده كان يغبط أو يحسد وحيد على وضعيته:

- يا بخت من يجد لعلته علاجا.

هو عاش عمره مرهونا بالدواء، بالعلاج لعلل أصابت روحه في العمق، شوهتها لدرجة أنه حين يصفو مع نفسه ويراها أمامه يجدها كخرقة بالية بها آلاف الرقع!

تمنى كثيرا أن تكون علته ومرضه في جسـده مثل الشـيخ زوزو؛ فعلة الجسد بالنسبة له أهون بكثير من علل الروح والنفس.

تمنى منذ أول طعنة في روحه حين تيتم أن يجد من يسعفه، يطهر له الجرح حتى لا تتكاثر فيه الفيروسات وتكبر ويستحيل علاجها.

لكنـه ظل بعـد ذلـك مسـتباحا، عرضة لجـراح كثيـرة وطعنات شـوهت تلك الروح، ولما حاول علاجها بالتحايل دمر بقيتها، حين قاوم بالمكابرة والفهلوة والخربشة في جدران الحياة سُجن وضُرب وعُذب وطرد من الجامعة، كان مبنيا للمجهول دائما ومُحطما على معلوم تمنى أن يتحقق، وحين قرر أن يغادر ذاته تلك المشوهة وجاء إلى ذلك المكان «البين» المقابر ليعيش ما بقي أو يموت اكتشف أنه جاء بها وأنها لم تغادره، تماما كلعنة ظلت تطارده فالتصقت به.

ياااااااااه نحن أضعف من أن نقرأ رسائل الله!

وأضعف من أن نكفر!!

أي بينٍ ذلك الذي يجعلك أعجز من العجز ذاته!!

كان منكمشـا بين الجميع، واقفا بين ذاتـه وأمه غير قادر على أن يحسـم أمره، ضم ذراعيه على صـدره متوهما أنه يحضنها، يضمها، غرس أنفه في الفراغ وشـهق نفسـا علّـه يأتيه برائحتهـا فألقى به في اللا شيء.

اشتاق كثيرا إلى حضن أمه وفي نفس الوقت كرهها كثيرا.

كرهها بنفس كره لأم وحيد التي حملته خطيئة ووضعته قسوةً ورمته وسط المقابر جحودا ولم ترضعه بخلا وغادرت غير عابئة بذلك القلب الرقيق إن كان سيتحمل سهام الدنيا أو سيصاب بثقب يظل يتسع حتى يدخل منه ملك الموت بارتياح.

وحدها التي انشغلت بالفراق، انغلاق باب غرفة العمليات على وحيد كان بالنسبة لها فراق أصغر تماما كميتة صغرى وميتة كبرى، هي وحسب تجربتها تعلمت أن الفراق الهين، الرحيم، يجيء بالتدريج، يجيء صغيرا ممهدا للفراق الكبير، حين يختفي الشخص خلف باب لغرفة عمليات يبقى الأمر معلقا على أمل أن ينفتح الباب ويلقي على الجميع بعطيته، لكن حين يختفي الشخص خلف باب القبر ينقطع الأمل ويحسم «بين» الإنسان؛ لذا رأت أن حالة غرفة العمليات بالنسبة لوحيد هي حالة «بين» مليئة بالأمل.

هي لا تريد كثيرا أن تقلب في داخلها لأنها تعرف أن بضاعتها كلها من جنس ولون واحد هي الفقد والألم، حين غادرها حبيبها فجأة ولم يعد، وحين غادرت نفسها ولم تعد قادرة على الأمساك بها مرة أخرى حين خلعتها وارتدت بدلة رقصها، حين راحت تتقافز أمام العيون تساقطت منها نتف من ذاتها، من بقاياها الطيبة.

وحدها كانت تحتفي وتحتفل بعودة رياض إلى خيره، حين كانت تتابع ذلك الزغب الذي ينمو على جلده فيكسوه بريش من بياض، كانت تتابع حركة الدم تسري في العروق الذابلة من جديد وتبتسم، كانت ترى في أزمة وحيد مخرجا لها ولرياض حين فكت جزءا من شفرة غموضه و استقر قاربه ولو جزئيا على حافة الطيبة و البياض.

***

القُــــرب

لا شـيء يقلب حال هذا المكان رأسـا على عقب سـوى مجيء الشيخ خيشة!

مقابـر الغفيـر تغـادر موتها وترتمي فـي حضن الزحمـة والحياة والعمار والضجيج، لا مكان لقدم..!

في المدخل، وعلى الجانبين، اصطفت خيام المريدين ورُبطت في كل واحدة مجموعة من الخراف والماعز، والخيم التي نضحت بثراء أصحابها وقفت بجوارها العجول البقري والجاموسـي، الكل جاء ومعه نذره.

مقهـى «متصبرنيش» لا يتوقـف فيه صوت أم كلثـوم إلا في هذا الوقت من العام حين يظهر الشـيخ خيشـة حيث يشغل حودة فنجان صوتـا واحـدا لا غيـر، وهـو الأناشـيد الدينيـة والمديـح، وتنفض جلسـات الشياطين والحشيش، لتنتشـر حلقات الذكر حين تتجاور الأجسـاد فـي طوابيـر، وتبـدأ فـي الترنح المنسـجم مـع صرخات القلوب والحناجر:

- اللللله اللللله الللله حي.. الله الله مداد..

علي منولوج يغير نشاطه ومعه فرقته، حيث يختار الركن المواجه للمقهى القريب من فرشة حياة لتقف الفرقة بآلاتها وتعزف جميع الأغاني والتواشيح الدينية، ويبدو علي ومن خلفه جميع أعضاء الفرقة بجلابيبهم البيضاء وكأنهم رجعوا للتو من الحج، حتى كوكو تظهر من بعيد في وقفتها كأنها حمامة بيضاء.

درديري يغير نشاطه أيضا، «فرشته» التي طالما حملت على ظهرها جميع ألوان الورد يكسوها بأوراق الجرائد والمجلات ويرص عليها تشكيلة من علب السجائر بجميع أنواعها والكبريت وبعض أكياس الشيبسي والبسكويت وأقلام ومصاحف وكتيبات تحوي أدعية، ويخبئ في جيب جلبابه الأبيض الذي لا يرتديه إلا حين يجيء الشيخ خيشة خزينته من الحشيش والأفيون وفي حوشته لفائف البانجو وغيرها من بضاعته السرية.

أما حياة فتقف على عربتها القديمة ومعها أربعة عمال، وفي المقابل يقف شطة ومعه أيضا أربعة صبية ولا تكتفي بالفول والطعمية وإنما تظهر رصات البيض المسلوق وحبات البطاطس والكبدة وأصابع «السوسيس» وغيرها، تمنت كثيرا أن يساعدها حسن لكنه رفض، وقف بعيدا رافضا الانصهار في بوتقة البركة الاحتفالية، بل بقي الوحيد الذي لم يذهب إلى حوشة الشيخ خيشة ليحظى ببعض بركته.

ولـم يتخلف الشـيخ زوزو عن هذه الاحتفالية سـوى هذه المرة فقط؛ بسبب مجاورته لوحيد في المستشفى.

ذاكرة الشـيخ زوزو تجعله المسـتفيد الأكبر من هذه الاحتفالية؛ فهو ضيف كل الموائد، تجده من المترنحين في حلبات الذكر، ومع المنشـدين بصوت عذب يطـرب القلوب، وفي المسـاء تراه زعيما للجلسـات الخلفيـة التي تجيء مـع آخر الليل، حيـث يعلو الدخان الأزرق فوق رؤوس المترنحين «سَطلا» وليس ذكرا.

يظل الشـيخ خيشـة لغـزا بالنسـبة للجميـع، يذكره أقدم سـكان المـكان، يقـول إنه لـم يتخلف ولا مـرة واحدة عن مجيئه السـنوي حتى أن هؤلاء القدماء في المكان يذكرون أن آباءهم حكوا لهم عنه وعن بركاته، لدرجة أن بعضهم يؤكد أن عمره تخطى المئة بسهولة، ورغم كل هذه السنين لم يستطع أحد أن يتنبأ بمجيئه، أو قصة واحدة تحكي من أين يجيء؟ وكيف؟

والسؤال الأغرب: مَنْ ينظف ويرتب حوشته التي تظل مهجورة عامـا؟ تظـل مقلبـا للقمامة، وفـور ظهوره تصبـح في غايـة النظافة والترتيـب تفـوح منهـا روائح العطر اللا دنيوي الذي بسـببه كسـب الشيخ زوزو رهانات كثيرة لأنه تبنى الرأي الذي يقول إن هذا العطر ليـس موجـودا في أي مـكان في الدنيا، هـو عطر من عطـور الجنة، تحكي النسـاء أيضا أن العطر لا يفارق ملابس أزواجهن وأولادهن

حين تلمسهم يد الشيخ، حتى لو غسلن تلك الملابس أكثر من مرة.

ويُجمع سكان الحوشات التي جاورت حوشة الشيخ خيشة أنهم في الليلة التي تسبق ظهوره يظل بعضهم سهرانا أمام حوشته حتى خيوط الفجر الأولى ولا يشعرون بأي شيء أو يسمعون أي صوت، أو أن هناك مَنْ جاء لينظف المكان، وحين ينامون وتشرق الشمس يهيج المكان وينتفض على مجيء الشيخ، كيف؟ ومتى؟

يستغربون ولا يجدون مَنْ يقلل نبرة الاستغراب هذه سوى التبرير الكبير، كرامات الشيخ.

على جانب آخر، تنتشر روايات أخرى عن رجل شاهد بأم رأسه رجالا يرتدون البياض الكامل، يزفونه على حصان أبيض له أجنحة حتى يصل إلى باب حوشته.

ورجل آخر يقسم أنه رأى أطفالا صغارا في زي أبيض كأنهم نور، ينظفون حوشته، وامرأة تقسم أنها تشم دائما رائحة عطره قبل مجيئه بليلة.

ولكن السؤال الكبير الذي يشغل بال الجميع: كيف يتزامن وصول الشيخ مع مريديه؟ هي ساعات قليلة تفصل بين وصول الشيخ وتوافد مريديه، مَنْ يُخبرهم؟ وكيف يعرفون؟

وحين اقترب الشيخ زوزو من بعضهم ذات مرة وسألهم، سمع العجب العجاب، قال له رجل أصابه شلل نصفي أنه زار الكعبة وصلى هناك في حجر إسماعيل ودعا وبكى ثم أغمض عينيه لبرهة من التعب فجرا، فجاءه الشيخ خيشة في المنام، وطلب منه المجيء إلى هذا المكان في هذا الموعد بالضبط.

في كل خيمة حكاية وكرامة من كرامات الشيخ.

الشيخ زوزو حين يجلس مع بعض زملائه من خريجْي الأزهر الذين ظلوا على اتصال به يتحدثون عما يشبه المعجزات حين يؤكدون أن هذا الشيخ قد يكون سيدنا الخضر الذي أراد الله أن يظل حيا بأجنحة في الأرض.

سيدنا الخضر الذي اصطحبه موسى ليتعلم منه وعلى يديه، ولم يستطع صبرا على ما فعله، حين خرق السفينة وقتل الطفل وبنى الجدار.

ذلك العلم الذي تحدث عنه الشيخ الكبير محيي الدين بن عربي بأنه العلم اللادني، علم الولاية الذي يفوق بمراحل علم النبوة، فموسى نبي لكنه لم يصل إلى الدرجة التي كان عليها علم الولي، فعلم النبوة محدود ومشروط بتعاليم معينة والنبي يُرسل لقوم أو أمة بعينها، لكن الولي هو للجميع.

يذكر دائما الشيخ زوزو ما كتبه محيي الدين بن عربي عن لقائه بالخضر، حين جاء إليه على شكل شيخ كريم، وبلغه بأن يصدق كلام شيخه ومعلمه.

ويؤكد الذين التقوا الشيخ خيشة أن علمه علم لادني وليس علما دنيويا، خصوصا حين يؤكدون أنه رغم بقائه لم يلحظ أحدٌ عليه أنه شرب ماءً أو تناول طعاما أو أن هناك شيئًا من هذا القبيل في غرفته، فقط يرتدي نوعا من الخيش، نفس لون الأرض، بخيوطه الواسعة المتباعدة.

لذا أطلقوا عليه اسم الشيخ خيشة، رغم أنه يقول عن نفسه:

«أنا عبد من عباد الله.

فقير من فقرائه.

ومسكين من مساكينه».

أقدم مَنْ رآه يؤكد أن شكله لم يتغير، نفس الوجه النوراني الذي يأخذ من بعيد لون التراب في سمرة قليلة، ومن قريب ينضح نورا خفيا، ليس كنور الدنيا، بل شيء دفين يشدك إليه في رهبة غريبة، لحيته البيضاء المسترسلة في انسياب على صدره لا تطول ولا تقصر، هي كما هي.

العمامة البيضاء المفروشة على رأسه والمنسدلة على كتفيه بلا أي غبار يقلل من بياضها، عيناه لا تنظران إلى أحد، برغم ذلك

هـو يعـرف الجميـع ويناديهم بأسـمائهم، ويعـرف عنهـم أكثر مما يعرفون عن أنفسهم لدرجة أن كل مَنِ التقوه يؤكدون أنهم يصبحون كتابا مفتوحا أمامه لا شيء يخفى عليه!

الكل يحكي عن ذلك الكسيح الذي أُدخل إليه محمولا، وخرج ماشـيا مهـرولا، أو تلـك الكفيفة التـي خرجت تهـرول وهي تبكي بعـد أن ارتـد إليهـا بصرُها، وغيرها مـن حكايات تظل مـادةً خصبة لجلسـات أهـل المكان، ومع كل كرامة تذبح النذور وتسـيل الدماء ويكثر الخير والعطايا.

***

منذ مجيء درديري إلى هذا المكان ولقائه الأول بالشـيخ، يشعر أنـه الأقـرب إليه؛ لذا ارتضى أن يترك الدنيـا ليكون بالقرب من باب حوشته، يقوم بدور الحاجب الذي ينظم دخول المريدين عليه حتى لا يزعجوه رغم أنه لا يضجر ولا يضيق.

يذكـر درديري أنـه ذات عام ترك باب الحوشـة برهة من الوقت ليسـتطلع أمر فرشـته التي نصبها بالقـرب من حيـاة، فانتهز الفرصة المريـدون الذيـن طال بهـم الأمد للقائـه، تدافعوا عليه مـرة واحدة فسـقطوا دونـه وكأن حائطـا زجاجيـا حال بينـه وبينهـم. وقتها عاد درديري ليجد الهتافات والصياح:

- الله أكبر.. اللهم صلِّ على محمد..

درديري يشعر بإنسانيته التي فقدها حين أصبح قاتلا.

تعود إليه حين يعود الشيخ، عرف أنه من الذين أسرفوا على أنفسهم والذين لا يجب أن يقنطوا من رحمة الله، وأن المعذبين بذنوبهم أفضل من الذين يستمتعون بتلك الذنوب.

عرف أن الألم وسيلة لتطهير الأرواح المعذبة وأن عليهم الصبر، فقط الشيء الذي لم يستطع الشيخ إقناع درديري به هو رغبته وحبه وولعه وشغفه وشوقه للموت وكرهه للحياة وللدنيا، اقتنع بما يكفي بالموت وكره بما يكفي الحياة، لكنه وقف في منطقة البين، بين الحياة وبين الموت، لا هو قادر على أن يعيش الحياة، ولا هو قادر على أن يقتل نفسه أو ينتحر ليذهب بحب إلى الموت.

كرر كثيرا أنه لا يريد الموت حبا في الموت، بل يريده كرها في الدنيا.

***

لم تعرف المكان!

ظننت لوهلة أن حسن وحياة أخذاك إلى مكان آخر، أو أنك دخلت في غيبوبة كفتية الكهف الذين ناموا ثلاثمئة سنة أو أكثر، وحين عادوا اختلط عليهم الوضع والزمن.

أنت أيضا عائد من ثبات عميق، من غيبوبة جعلتك هذه المرة تشعر أن كل شيء تغير، إحساس يغمرك، يأتيك من الداخل حين تشعر أنك رياض آخر، مختلف!

تنحاز إلى سكينة لم تشعرها حين تبوأت أعلى المناصب، لم تحس بها وأنت تضع الملايين في بنوك سويسرا، لم تتذوقها وأنت بجوار أجمل الجميلات، وأنت تأكل أفخر أنواع الطعام، ولا حين سكنت في أفخم فنادق العالم، هي سكينة غريبة وغامضة، أنت غير قادر على فك غموضها.

تشعر أن ثمة حريرا يكسوك من الداخل، ماءً باردا يندلق عليك من قمة رأسك إلى إخمص قدميك، ماءً من ثلج وبرد، يغسلك من درن وأوساخ الدنيا.

حين سألت عن سر تغير المكان، أجابك حسن:

- الشيخ خيشة!

تذكرت ذلك الاسم الذي طالما سمعته من حكايات درديري، تلك الحكايات التي استغربتها، أنكرتها، الآن أنت مؤمن بها، بل تشتاق إلى لقائه أيضا:

- ممكن أشوفه واقابله يا حسن؟!

ضحك حسن كثيرا:

- عليك بدرديري حاجبه الأمين.

أضافت حياة:

- درديري يترك الدنيا وينذر نفسه من أجل الشيخ.

قررت أن تلتقيه فور استعادتك لجزء من صحتك.

حين اقترب التاكسي من حوشتك، ظهر الباب الذي كنت تراه دائما شاحبا، ظهر مختلفا هذه المرة، كان أكبر من ذي قبل، متسقا بلا خربشات، بدا مُرحبا وهو الذي رفضك في مجيئك الأول.

نزل حسن، فتحه، فانفتح مرحبا، لم يعاكس كما فعل أول مرة.

عاد حسن، سندك مع حياة ودخلت، الحوشة في غاية الترتيب والنظافة، كل شيء كما كان أو كما تمنيت، سريرك مرتب وأرضية الحوشة بلا أي أتربة، لم يفت حياة أن تسهر طوال الليلة التي سبقت خروجك من المستشفى وهي ترتب وتنظف وترش عطورها.

تمددت على سريرك، حملقت في سقف الحوشة، تجلى لك وجه أبيك على غير عادته، به مسحة من الرضا، حاولت أن ترى أمك فلم تستطع، قبضتَ على ذراعك التي قررت أن تعصاك وهي التي أطاعتك طوال سنواتك الماضية فارتكبتَ بها المزيد والمزيد من الجرائم، أما لسانك فقد وقف في حالة البين، حالة من التأتأة، لا هو يتحدث ولا هو أخرس.

وضعت حياة كيس أدويتك بجوارك وغادرت مع حسن.

وأنت رحت تعيد اكتشاف حوشتك مرة أخرى، تطابقها مع ما بقي منها في داخلك، تعيد مراجعة كل شيء على ذاتك الجديدة التي تُشعرك بأنك وُلدت من جديد..!

كل شيء مختلف.

كل شيء يُرضيك!

شعرت بإحساس يأتيك من خلف ثنايا الروح، يجعلك تحن إلى هذه الحوشة، لم تعد تشعر بانحطاط المكان كما وصلك حين أتيته، تأكد لك أن بذخك الداخلي ذبُل وتراجع، ما عادت تلك الذات المتعجرفة، الصفيقة، تتسربل في تعاليها.

ثمة قناعة تغمرك ورضا يسري ببطء في عروقك، ينزع عنك شوك قلقك، يُعيد عقارب سكينتك إلى دورتها الأولى وكأن كتيبة من رجال الأمن نزلت إلى الشارع لتفك تشابكات خيوطك المعقدة وتنظم حركة سير ومعيشة الجميع، كل المسارات تتوازى ولا تتقاطع.

سريرك بكل تواضعه أفضل بكثير من ذلك الذي احتواك في المستشفى، مُحيت من ذاكرتك أشكال الأسرة الفاخرة التي سكنتها عبر جاهليتك الأولى، هكذا ارتضيت أن تسمي تلك الفترة التي

سبقت مجيئك إلى هذا المكان، مرحلة «القَبْل» الجاهلية الأولى، متمنيا ألا تأتيك في حياتك جاهلية أخرى، تمنيت أن تعرف، أن تأتيك الحكمة التي هي ضالة المؤمن.

ثمة رسائل تأتي من الله تكون فوانيس للعابرين.

الآن فقط تشعر أنك تعلمت فك هذه الرسائل، لكل شيء معنى علني وآخر خفي، وآخر يغيب في البعيد لا يصل تأويله إلا لأصحاب العلم اللادني.

تذكرت ما قرأته عن قصة الخضر «الولي» حين أراد موسى «النبي» أن يصطحبه ليتعلم على يديه ولم يستطع معه صبرا، تذكرت المعنى الظاهر والخفي وراء كل حدث، فخرق السفينة وقتل الطفل وبناء الجدار لقوم عديمي الخير كلها أفعال شريرة، ولكن حين فسر الخضر السبب الخفي، الخير الساكن خلف الشر الظاهر، بأن السفينة كانت لمساكين وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا، فخرق السفينة فعل نجاة لأهلها من الملك الظالم.

وقتل الطفل فعل نجاة لأبوين صالحين عسى أن يبدلهما خيرا منه، وبناء الجدار تعارض مع سلوك القرية الجاحدة واتفق مع اليتامى الذين يملكون الكنز الساكن تحته!

وقتها بدأت تقرأ انكساراتك وهزائمك السابقة ومجيئك إلى هذا المكان بنفس التجلي الذي عرفه الخضر وعجز عن تفسيره موسى.

إذن هنـاك معـانٍ ورسـائل خفيـة مـن وراء مجيئك إلـى هنا، قد لا يكون ما أنت فيه الآن عزلة بل وصلا! وقد يكون وصلُك السابق عزلة!!

قاومت ضعفك ووهنك، سـندَت يدُك السـليمةُ يـدَك الأخرى، تحركت ببطء تجاه رأس قبر أبيك، كان وجهه باشـا مرحبا، جلست بجواره، وضعت يدك السـليمة على رأس الشاهد، أغمضت عينيك لتشـعر لأول مرة بذلك الإحسـاس الأبوي الذي لم تحسه من أبيك ولـم توصلـه إلى ابنتك، شـيء غريـب، ! عجينة من دفق مشـاعري دافئ، برج حمام من نور يطير في فضاءات الروح يزيل عنها غمامها ويكسبها صفاءً غريبا.

يااااااااااااااااااااااااه!

اتجهـت بنورك الداخلي إلى بقايا المرآة التي التصقت بالحائط، أزحـت وجهـك بعيدا عـن شـروخها، حملقتَ فيك، لـم تكن أنت الذي تعرفه، كل شـيء مختلـف، غادرتك تلك العيون الفاجرة التي لا تحمل على حوافها رموشا بل حرابا للقتل، عيون لا تبعثر نظرات بل رؤوسا نووية فتاكة، غادرتك تلك العيون وسكنت مكانها أخرى هادئـة، تتحرك مقلتاك في تؤدة وسـكينة، يُطل مـن بؤبئيها حمام من نور.

نزلت إلى بقيتـك، وجهك الذي انكمش، تضاءل، غطته تعاريج مـن طيبة ولـون يقترب مـن لون التـراب والطيـن، ليس فيـه مبالغة الدنيويين، ولا تعابير الصلف، كأنه لوحة كانت بها مشـكلات كثيرة فأخذها فنان محترف للتصليح، رممها وأصلح اعوجاجها فخرجت لا تمـت للوحة القديمة بشـيء سـوى باسـمها، وجهـك الآن وجه آخر.

أنت الآن شخص آخر ورياض آخر.

تذكرت عيون ذلك الشـيخ الذي التقيته ذات تحويمة روحية في صحـراء التأمـل، حين قال لـك إن العزلة أول خطـوة صوب معرفة الذات، أول خطوة صوبك.

وقتها رأيت ذلك المنزوي في ركن الهَجر من بعيد وعليه تراب وبقايا قمامة، ذلك المرمي في مقلب الزمن، اقتربت منه، تأملته، كان يحمل ملامحك الحالية، نفس العينين والوجه والقامة وحتى الذراع المعطلـة، ألقى عليك نظرة عتاب مضاعفة آلمتك حد الوجع، كنت كالـذي أنجب طفـلا وألقاه بعيدا، وفجأة يواجهـه عينا لعين وروحا لروح بعد أن أصبح الطفل شـيخا، الآن تجد ذاتك الضائعة ونفسك التي فتتّها، هرستها على مطحنة شرك.

***

برغم الخير الذي يعود على سكان المكان بقدوم الشيخ خيشة إلا أنهم يحنون جميعا إلى اعتيادية حياتهم السابقة، ذلك الهدوء وذلك الصمت الذي كرهوه كثيرا في حينه واشتاقوا إليه الآن.

الأرض تمتص كل شيء إلا الدماء وكأنها أرادت ألا تكون شريكة في أية جريمة منذ قابيل وهابيل، يقولون إنها امتصت دم القتيل فعاتبها الله فأقسمت باسمه أن تغلق مسامها أمام أية قطرة دم أخرى.

بقع دماء الذبائح ارتسمت في دائرية مستفزة، خصوصا لعلي منولوج، الذي إن رآها يدور رأسه ويسقط به أرضا.

هو لا يفرق بين بقعة دم لنذر أو أخرى لقتيل، الدم عنده دم ولا شيء آخر!

رغم أن الجميع يقولون: «لا رائحة للدم»، إلا أن علي يؤكد أن له رائحة نفاذة تزكم الأنوف وتخنق الصدور، رائحة الدم عنده تُعيده إلى ماضيه، طفولته المعبأة بآلام الوجع، تلك الطفولة التي كرهها، جعلته يخاف كثيرا من الارتكان إلى ذاته أو الجلوس وحده حتى لا يسترجع شريط ذكرياته التي يشعر دائما أنه شريط قطار مسعور يأتيه بشراسة فيفرمه، يقطعه إربا ويتركه لكلاب ذكرياته لتُكمل النهش.

الدم الفوبيا عند علي يرتبط بزنوبة جدته لأبيه الذي عاش عندها فتـرة طفولتـه الأولى حين ألقاه أبـوه إليها وغادر خلـف لقمة عيش تبتعد عنهم يوما بعد يوم.

زنوبة تلـك كانت محطة الرعب الأولى في حياته، محطة جعلته فـي أيـام كثيـرة يتأكـد أن هـذه الدنيـا مرتعـا لوحوش تتغـذى على الدماء.

هي «كودية زار»، امرأة تعالج من مسّ الجن، دجالة!

فـي بيتها كل خميس حفلة كبيرة لـزار ودفوف ودماء، كل علاج عندها بالدم، في كل مـرة تبدأ تلك الاحتفالية المخيفة بالدم، حيث تشـترط أن يُذبح شـيء، ولو حتـى أرنب، على عتبة الـدار، ثم يضع الحضـور أيديهـم فـي بقعة الدم هـذه قبـل الدخول فتظهـر أياديهم وكأنهـم خرجـوا من مذبحـة، ثم لا تلبـث أن تعلو الدفـوف ويدور الحضور منكوشـة شعورهم في دائرة تتوسطها المحتفى بها، وغالبا تكـون من النسـاء، وحين تعلـو أصوات الدفوف، تعلـو معها دقات قلب علي الذي احترف الاختباء في حينها أسفل كنبة قديمة، وكثيرا ما كان ينام مبللا برعبه أسفلها حتى الصباح.

علي لا ينسى أبدا تلك اللحظة المرعبة حين تصرخ امرأة وتسقط وسط الدائرة، بعدها تدخل جدته بشعرها المنكوش ممسكة بأرنب أو بدجاجة أو حمامة وأحيانا قطة؛ لتذبحها فوق رأسها، وتترك الدم

ينســال على شــعرها ورأســها، فتبدو وكأنها هي التي ذُبحت، وقتها تعلّـم أن للـدم رائحة، رائحـة تأتيه ببطء تُحيط رقبتـه أولا ثم تخرج إلـى أنفه فتغلقه، فيصرخ بصوت أعلى بكثير من صراخ دفوف الزار ولا مجيب، ينكمش على ذاته المنكسرة فينام.

ورغم أنه يحب تلك الأيام التي يجيء فيها الشيخ خيشة لأن بها بحبوحة رزق بلا سـفر ولا تعب إلا أنـه يخافها حين يضطر للمرور بيـن تلـك الخيم التي يذبـح أصحابها النذور كل يوم، يشـعر أن بقع الدم فم لوحش كبير يطارده ليفترسه.

دائما كان يغادر بمعية فرقته وبكامل ضجيجها في المسـاء، لكن كانت الرائحة تأتيه متسـللة لتسـكن أنفـه فتخنقه، وغالبـا، بل دائما كانوا يحملونه إلى حوشـته؛ لتكمل الكوابيس المرعبة برائحة زنوبة تقطيعه.

***

في آخر إحدى الليالي توسـط فرقته أمام حوشـته وراح يسـألهم عـن رأيهـم في الذهـاب لإحيـاء أحد الأعـراس في الصعيـد وترك موسمهم السنوي هذا وسط المقابر.

رفضـت كوكو فـي البدايـة مغادرة المـكان والذهـاب معهم بل صرخت في وجه علي:

- إزاي أسيب البركة دي، دا أنا أول مرة أحس اني نظيفه.

لـم يتـردد علي فـي تذكيرها بـأن النظافة لا تطعمهـا إن جاعت، وأكد للجميع أن صاحب الفرح مسئول كبير في الحكومة ولا يجرؤ أحد على أن يرفض له طلبا.

انقسـمت الفرقـة بين مَنْ يؤيـد كلام علي بضـرورة الرجوع إلى عمل البروفات استعدادا للذهاب إلى فرح الصعيد تحت مبررات:

- ليلة وتمر.. وصاحب الفرح مسئول كبير في الحكومة وغني!

وبيـن مَـنْ رفض ترك هـذه الأجـواء الصوفية المبروكـة، هؤلاء الذين تزعمتهم كوكو يؤكدون أنهم يغتسـلون من ذنوبهم ودنسـهم بمجيء الشيخ خيشـة بغنائهم تلك التواشيح الليلية وبترنحهم على كلمات الذكر بمددها:

- اللللله.... اللللللـــــله

صرخت كوكو في وجه علي ووجه الموافقين:

- إزاي أخلع حجابي وجلبابي الأبيض وألبس بدلة رقص؟ إزاي أتعرى وأترك جسدي للعيون الرصاص التي تصيبني في كلة مرة.

الجدل ارتفع واسـتعرت حدته، شـعر علي أن رأسه يدور، تمدد في مكانه، أغمض عينيه وارتخى مستعدا لبلطة الكوابيس التي ستأتي بعد قليل تحملها جدته، تقطعه فتأتيه هذه المرة رائحة دمه هو.

أمـا كوكـو فانتفضت تاركـة تلك الدائرة المنقسـمة علـى ذاتها، دخلت غرفتها، أحكمت إغلاق بابها، وقفت أمام مرآتها المغروسـة فـي الحائط، حدقت في عينيها، اقتربت أكثر وحدقت، فتحتهما عن آخرهما حتى ظهر بياضهما الفوقي والسفلي، كوكو أرادت أن تتأكد مما أحسته، أرادت أن تتأكد:

- أحقا هذه عيونها؟

لـم تكـن تلك عيونهـا التـي تعودتها، لـم تكن رموشـها منتصبة كحـراب غارقـة في سـواد «المَسـكرة» المُصطنع، لـم تكن حواف العين سوداء بكحلها الذي كرهته ولا جفونها مطلية بألوانها.

كل شيء مختلف!

في بياضهما سكون وهدوء وفي سوادهما ترانيم صلاة وملائكة يُسـبحون، في الركن القصي لعينيها نامـت دمعة لا هي تريد النزول ولا هـي تريـد الاختفـاء، دمعـة تحمل لونا بنفسـجيا، مـدت طرف إصبعها وأزالتها فنبتت واحدة غيرها تشـبهها في كل شـيء، أحست كوكـو بها، عرفت أنهـا تخرج من ذلك الجرح القديـم الذي يتعمق دائما مع الندم، ذلك الجرح الذي لم يهدأ أبدا إلا حين يجيء الشيخ خيشـة، حين ينحاز كل شـيء في المـكان إلى أبيضـه، حين تختفي سـحابة دخان الحشـيش ويصعد مكانها دخان البخور، كانت تقول دائما:

- الأيام دي أشعر أني نظيفة جدا، أخذت «شاور» طويـــل!

تتذكر كوكو دائما ما سـمعته يوما أن العيون شبابيك الروح، وأن الأرواح تطـل منها بيـن الحين والآخر لتسـتريح، وأن هذه الأرواح لا تطـل إلا إذا اسـتكانت؛ لذا أعادت التحديق مـرارا وتكرارا لترى كيف تكون تلك الروح التي ما هدأت يوما ولا كانت راضية؟

حدقت أكثر وغابت في تحديقها...

رأت نفسـها وهي طفلة صغيـرة منزوية في ركن مهجور وحولها قذارة من كل الأنواع ورائحة عطن تملأ المكان.

لكن كانت الطفلة نظيفة وجميلة، ابتسمت لها فابتسمت، اقتربت لتضمها، فصدمها الحائط المثبتة عليه المرآة.

نزلـت بعينيهـا إلـى رقبتهـا، أخذت واحـدة من بـدلات الرقص المعلقة، رمتها بقرف على سـريرها أو شـبه سـريرها، خلعت بتعب جلبابها الأبيض، وراحت تحدق فيما ظهر من جسدها، كان بياضها غريبا ومخيفا، سترت نفسها بسرعة وارتمت على سريرها لبرهة ثم ارتدت جلبابها الأبيض فعاد إليها سكونها المرتجى.

انكمشـت على نفسـها ونامت بها حتى الصباح وهي تطارد تلك الصبية الجميلة بزيها الأبيض علها تقف وتسمح لها بأن تضمها إلى صدرها الخرب، تجفف ظمأها لشـيء لا تدركه، لكنها كانت تبتعد أكثر.

***

مثقلا بتعطل ذراعك وبتلعثم وثقل لسانك تسير خلف درديري، تتحرك بعناء شديد، تتأمل ذلك الجسد، تتحسسه وكأنك تريد أن تتأكد أنه لك، أو تتأكد أنك فيه، فما تحسه روحك من خفة ورغبة في التحليق لا يتسق مع وهن ذلك الجسد.

أنت جربت الانفصال والتحليق، غادرت جسدك، تركته لشحوبه ووهنه وحلقت في سماوات القرب، وكنت في كل الأحوال نفسَك وذاتَك، فما الذي يُثبت الآن أنك لست في تحليقة أخرى؟؟

درديري الذي يختبئ في جلبابه منحنيا أكثر صوب الأرض كأنه يبغي تقبيلها أو البصق عليها، فقط هو برهانك بأنك لست في تحليقة أخرى.

أقنعته كثيرا كي يأخذك إلى الشيخ، تشعر أن ثمة رائحة كالتي شممتها في تحليقاتك تأتيك كلما اقتربت، يتلبسك شعور لا دنيوي يجعلك تذوب نحو مذاق لم يتحقق بعد.

الشوارع ممتلئة عن آخرها بالمريدين، خيام للذبح، وأخرى للمديح والابتهالات والصلاة، ضجيج لكل شيء والمشترك فيه هو لفظة «الله»..

تتردد في الفضاء ممطوطة وممدودة بفيضها.

وقف درديري أمام خلوة الشيخ يردد لك تعاليم اللقاء، لا لمس ولا اقتراب، لا تذكر أسماء الغائبين، لم تكن معنيا كثيرا بتعاليمه، أنت منذ رجوعك معني بما في داخلك، تتحرك وفق بوصلة روحك، وروحك الآن تقول: اقترب دون أي طقوس للقرب.

سكنتك روائحُ التحليق، أغلقَت ما بقي فيك من منافذ الانفتاح على خارج الدنيا، وأضاءت منافذ أخرى للانفتاح على براح روحك.

تقدم درديري خطوة، أزاح ستارة بيضاء تفصل مجلس الشيخ عن الخارج، أشار إليك بالاقتراب محددا نقطة للوقوف، محذرا من تجاوزها، تركك وخرج.

أخذت نفسا عميقا من عبق رائحة ممتدة في الأوصال فلم ينتهِ النفس، أحسست أن رئتيك تمددتا على اتساع صحراء وعمق بحار، كانت الرائحة تتسرب إلى خلاياك تُحيي أشياءَ وتميت أخرى، حالة من التطهر في كينونتك، وأنت شاهد على اكتمال تحليق روحك في القرب.

متربعا كان على سجادة للصلاة بحجم جلستة، خضراء كانت، وفي دائرية جلسته فراش أبيض مطوية حوافه وكأنه يحدد أو يفصل مكان جلسته عن محيطه.

ظهر بعمامة بيضاء مفرودة على رأسه ومتدلية على كتفيه، لم يتضح شكل وجهه، جلبابه يميل كثيرا إلى لونين معا، شحوب البني

وشحوب الأبيض، خيش واسع المسامات شديد النقاء والنظافة، عليه بريق وكأن ثمة إشعاع لنور يخرج من تحته.

قلت: السلام... بتلعثم المريض.

رفع في هدوء شديد رأسه، رحت تتابع بلهفة استدارته نحوك، وجهه في لون خيشه وجلبابه، بشرة تقترب من لون تراب الصحراء، صفرة تميل إلى لون الأرض والطين، لحية متدلية وجبين منير، عيون تميل إلى الانغلاق أكثر، تضيق بأريحية، وجه لم تُرسم عليه سوى تعبيرة واحدة وهي الرضا والسماحة والنور.

حدقت أكثر في بؤبؤ العينين فعرفت، واندهشت:

- أنت...

بادرك بابتسامة: «لا تتعجل، نصحتك كثيرا».

- أنا...

- أنت الآن أفضل. اقترب...

كانت قدماك تتحركان برعشة غريبة، خطوتان فقط تلك المساحة الفاصلة بينك وبين جلسته وسجادته، لكنهما كانتا بحجم كونين منفصلين، استحضرت تحليقك فاقتربت، أجلسك بجواره، وضع يده اليمنى على رأسك فالتصقت بكف يده، لم تذكر شيئا سوى أنك أحسست وكأنه يُجري لرأسك حجامة، يُخرج منه دمه الفاسد. أغمضت عينيك ولم تُفق سوى على كلمة مبتورة منه:

- حمد الله ع السلامة.

صمتّ.

اجتاحتك رغبة في البكاء، إحساس المتعبين حين يصلون، تشعر أن سحابات الغيوم تغزو رأسك، تمطر في عينيك الضيقتين، فتفتح نوافذ ليفيض المطر نحو الروح الظمأى.

- ابكِ...

قالها ولا تدري كيف عرف منولوجك الداخلي، قالها وهو مشغول بالتسابيح وبغير النظر إليك، كأنك لست هنا، أو كأنه يراقب روحك في مكان آخر.

بكيت كثيرا حتى انزاحت الغيوم وبرئ الصدرُ من كَمده، وانجلت سحابة العين المُغبشة، رأيته من جديد كأنك بت أقرب وبات أوضح.

دون أن ينظر إليك كان يخاطبك: «تهت كثيرا قبل الوصول! كابرت ورفضت الترويض، عاندت وحاولت أن تقطع الحبل مرتين، حبل العنق الذي قبض عليه من يريدك أن تبتعد عن محرمات الله، يريد أن يشدك بين الحين والآخر صوب قُربه ورحمته، فعاندت وعاندت حتى جرحت عنقك، وكادت في مرات أن تُقطع، تركناك على غيك، بل طولنا الحبل لك أكثر فغاليت، فشددناه مرة واحدة

وحشرناك بين قبر تعيش فيه وآخر تنجو إليه، فبدأت النجاة، وغالبك القرب، فاقترب أكثر».

صمت، غرق في تسابيحه بُرهة وكأنه ينتظر من يُملي عليه ما يقول، ثم أردف: «جربت التحليق فحلقت، كشفنا لك بعض عوالمنا فرأيت، مُتعب أنت تريد الفهم ففتحنا كُوات فهمك، أرسلنا إليك رسلَنا فانتميت، زرعت شجرتك الأولى للخير فنجا طفلُنا وحيد ونجوت».

تنهد تنهيدة طويلة مصحوبة برعشة، ثم أكمل: «حين تحليقك أردت أن تقطع حبلك الموصول بالجسد فأبينا أن يُقطع عنك حبلُ الحياة، وكتبنا لك البقاء لا الموت، بعد أن بدأت روحك في اليقظة والبعث؛ لأنك لو مت بهيئتك فلسنا لك نافعين في شيء، سيحظى بك الزبانية وقدرك المكتوب في اللوح أنك لست من نصيبهم، فبقيت.

جربت كل الميتات، موتك الأبيض والأخضر، جربت أن تُهان من بني جلدتك، أو يذل الجسد المادي الفاني، جربت أن تتركه بل وتراه ميتا، جربت أن تخرج منه، تغادره، وذقت لحظة ارتدائك له من جديد، فماذا تنتظر؟».

كنت كمن يُعرض أمامك فيلم طويل، و بجوارك مَنْ يُعيد تفهيمك إياه فتكتشف أنه حياتك، ألغازُك التي عجزتَ عن فك شفراتها، محطاتك المعقدة ونشأتُك المقصودة في كينونة دلالتها.

بادرته وبقايا دموع في صوتك:

- وماذا أنتظر..؟

- الارتقاء.! قالها وصمت فصمت أنت أيضا.

ثم أكمل: «سُـلمة جديدة إلى أعلـى، أصلحت اعوجاج الأرض ومهدتها وفرشـت فيها سـبخ الخصب وزرعت شـجرتك في فضاء روحـك فأينعـت برضـا اللـه وإرادة القـرب فاقتـرب إلـى الخطوة الثانية.

- دلني..! سألته بلهفة.

- تَذَكّر زيارةَ الصبي الذي كنته وتخبطه ذات ربيع؟

كنت تريد أن تجيبه منذ رأيته أنه هو.

هـو ذلك الشـيخ الـذي التقيته عبـر تحويمة من نافذتـك المطلة علـى الحقول، حين نصحك ودلّك على سـرك المكنون في عينيك وهداك.

قلت له:

- أنت هو.. نعم أنت الشيخ.

- يـا ولدي كلنـا دواب الله فـي الأرض، من أحبـه الله ربط في عنقـه حبل القـرب، ومن تمـرد وعصى مددنـا له الحبـل فتوهـم أنه

تحرر من الخير، فإن وصل الكفر والإلحاد قطعنا عنه حبلنا، فيضل، فتأكلـه سـباعُ الشـياطين ووحوشُـها. وإن صمـد وابتعد عـن الكفر شـددناه إلينا، فإن قاوم قسـونا في الشد فتُجرح عنقه أو تلوى، ومن أحببناه قربناه أكثر حتى يُربط في إحدى أرجل كرسـي العرش، فهل هنـاك من قرب أكثر؟ قرب تحت وأسـفل عرش الجبار؟ إنها درجة لا يصلها إلا المحظوظون.

- دلني أكثر.

- الخلوة! تذكر أين رأيتني لأول مرة؟

تجلّـت لـك صورتُـه وهـو جالـس فـي صحـراء شاسـعة بطعم الراحة.

- الصحراء بيتُك، الصحراء متسع لحرية الأرواح، الأماكن التي تزدحم بأجسـاد البشـر تُخيـف الأرواح الراغبةَ في التحـرر، زحمة الأجسـاد زحمة أيضا لـلأرواح حتى تظهر الأرواح النورانية وسـط الأخـرى كجوهرة صغيـرة بين أكـوام القش، فانـجُ بجوهرتك وقد أزحنـا عنهـا غبار العفن. سـماء الصحـراء تمتلئ كل مسـاء بأرواح تشـبه روحـك، كلهم جـاءوا وقد طلقـوا الدنيـا وزهوَهـا الكاذب، جاءوا طامعين في القرب. فاقترب.

غـادرت جسـدك وعدت سـابقا، فاذهب إلـى الصحـراء واقتله هنـاك، ولا تُلـقِ بـه فـي قبر، بل البسـه مـرة أخـرى؛ ليكـون خادما

لروحك، غير مسيطر عليها، قلم أظافر شهوته وسطوتها عليك وعد بجسدك مستأنسا، وخادما.

عد به هكذا، ستعود بك، وستصل إلى القرب، فاعتبر قبلها ووقتها، وذق، ولا تخف؛ فمن ذاق فلن يُقلقه الفَقد، لن يقلقه القرب.

مَد يده صوب قلبك وقرأ.

مد يده صوب فمك، وصفعه صفعات قليلة.

قلّب كف يدك اليمنى، قرص جلدك كأنه يُريد أن يقطعه، تألمت.

قال لك: «هو ليس منك فلا تتألم له. وابدأ رحلة القرب واعرف أن نجاحك مرهون بالصبر وباليقين».

خرجت لا ترى غير تلك المساحة من جغرافيا الله، صحراء بطعم الرضا، سألك درديري كثيرا، كرر أسئلته، لم تكن تسمع سوى صوت رنين الروح يأتيك من بعيد، فغضب وتركك.

دخلت حوشتك، لملمت ما يلزم رحلتك وغادرت، في مدخل المقابر تحاشيت الزفة التي أعدها أهل المكان احتفالا بخروج وحيد من المستشفى بعد اكتمال شفائه، تساءلت كثيرا عن تلك الدلالة؟ وأنت بتّ معنيا بحراك أقدار الله إليك، ماذا تعني تلك اللحظة؟ لحظة خروجك في نفس لحظة نجاة ودخول وحيد؟

تركتهم لفرحهم وانشغلت بتقلبات الروح الظمأى للتحرر من سجن زحام الأجساد والأرواح الأخرى التي لا تشبهك..

أشرت بيدك لتاكسي؛ فلست جاهزا لزحام الأجساد في عُلبة الميكروباص الضيقة، تريد أن تحتفظ ببعض تجليات الشيخ فيك.

رميت نفسك بجوار السائق، جاء في خاطرك فجأة أن تذهب إلى مجلس الوزراء حيث كان سلطانك، التفت إلى السائق:

- شارع القصر العيني، مجلس الوزراء.

انتفض معترضا:

- مقفول، كل مداخل التحرير مقفولة..

أغريته بمزيد من المال دون الدخول في أية تفاصيل تتعلق بسبب غلق هذه الشوارع.

انطلق السائق متحاشيا تجمعات من الجماهير تطلق هتافها، عصافير تخطف شيئا من وهج روحك حتى أنك رددت بعضها، وأحسست لوهلة بطنين بعض الهتافات التي فيها اسم مصر.

....

رأيت الأعلام تظلل حامليها، تصورتها أجنحة تحتضنهم، الشوارع تضخ مسيراتها، ولكل مسيرة أعلام، ولكل مسيرة عشاق ومخطوفون بحب مصر، وجميع المسيرات تردد هتافا واحدا.

كان شارع قصر العيني خاليا مغلقا من ناحية الميدان، وقف السائق الذي لم يكن نَزِقا وثرثارا، نزلت لتقطع تلك المسافة المؤدية إلى مجلس الوزراء، تسير وسط كل هذا الضجيج ولا شيء يعنيك سواك، سوى ما بداخلك، بانخطافك إلى روح الله الساكنة فيك، طلّقت الدنيا ملايين المرات فكيف تنشغل بها الآن؟

الدنيا كلها كومة قش بالية، والناس مخلوقات غريبة ترتع في نفاياتها.

وصلت إلى مبنى مجلس الوزراء، كان محاطا بقطع أسمنتية وأسلاك شائكة، رأيته مسجونا، منبوذا، و الجماهير التي تمتد حتى مبنى مجلس الشعب، تردد نفس الهتافات.

جاءت في مخيلتك صورتك بكامل سلطتك، ملفوفا بالدنيا والزيف، متخفيا خلف بدلة أنيقة مطبوعة بماركة عالمية، محتميا بحراسك الشخصيين، وسكرتيرتك الأنيقة، حين مرت تلك الصورة على قلبك الآخذ في البياض لفظها، ألقاها في مرمى قمامته وانشرح.

تساءلت كثيرا عن مغزى تلك الرؤية في توقيت ما قبل الهجر والابتعاد؟

ما الذي جاء بك؟

الإجابة في تلك البصقة التي أطلقتها صوب هذا البناء الذي رأيته بيتا كبيرا لعنكبوت ضخمة تخطف ضحاياها تحت وهم المناصب، ثم لا تتركهم إلا وقد مصت ما فيهم من إنسانية وحياة، تتركهم أشباه بشر بنصف عقل وبلا قلب. بصقت بصقاتٍ كثيرة حتى غرق المبنى واختفى من أمامك.

عدت إلى سائقك القلق، جلست بجواره، كانت أسراب الناس تتدافع صوب الميدان، الكل يردد تراتيله في البعث وأنت تردد تراتيلك في القرب.

***

لم تخلع كوكو جلبابها الأبيض، كان بالنسبة لها جلدا بشريا نظيفا وطاهرا، جلبابها الأبيض هذا يتسق مع روحها، تحتمي به من ماضٍ وذكريات ممرغة في وحل العَوَز.

ركبت في آخر مقعد، انزوت، تلفعت بشالها الأسود الذي ما فارقها يوما منذ أن اشتراه لها حبيبها المفقود من مولد السيدة، حين يعتريها خوف تقربه من صدرها، من أنفها، تسحب ما بقي فيه من روحه ورائحته حتى تطمئن.

انطلقت الميكروباص في البعيد وفوق سطحها «عدة الشغل»، الآلات الموسيقية وأجهزة الصوت، وفي داخلها يجلس علي في المقدمة بجوار السائق والبقية توزعوا صامتين وكأنهم غرباء، أو كأنهم أصدقاء تخاصموا.

ثمـة وجوم غريب عجز الـكل عن فهمه وهم الذيـن اعتادوا في مثـل هذه الرحلات ألا يصمتوا، اعتـادوا أن تكون رحلات الذهاب والإياب محطة الضحك والنكات.

تذكرت كوكو رحلتها إلى فرح طنطا حين جاورها الشـيخ زوزو وفتح صنبور نكاته فأغرق الجميع.

مع انطلاقة السيارة أغمضت كوكو عينيها، وأراحت رأسها على المقعد، وفشلت في تذكر أي شيء مفرح.

***

هكذا بعد تكالب الآراء عليها وافقت كوكو وها هي ترقص الآن بغيـظ القهـر في زفة لا تمـت للفرح بشـيء، الوجوه غطتها مسـحة التجهم، فاختلط الفهم: أهي جدية أم تعاسة؟

فقط تمسكت بأن ترقص بجلباب طويل وعلى كتفها ذلك الشال الأسـود الذي تمنـت أن يكون في حجم بطانية تتلفـع بها؛ لتحجبها عن تلك العيون الرصاص.

دفعـات طلقـات الرصـاص الاحتفاليـة تلسـع قلبهـا بكربـاج الخوف، يهرول كثيرا، يزداد خفقانا، تنزوي في شـالها وتقترب أكثر من علي.

هكـذا أفـراح الصعيد، وهكـذا رجاله ينظـرون إلـى «الغوازي» القادمـات من البنـدر وكأنهن من كوكب آخـر، يحدقون في الظاهر

من ساقيها، في مؤخرتها، وكأنهم سيكتشفون شيئا مختلفا عما تمتلكه نساؤهم.

مالت على أحد القريبين من فرقتها:

- مقبوضة ومخنوقة مش عارفة ليه ! ربنا يستر !!

اقتربت الزفة من نهايتها ومعها تعالت طلقات الرصاص والزغاريد والصيحات، هرول العروسان صوب مدخل الدار الفخمة، انتحت كوكو ومعها جميع أفراد الفرقة جانبا، اختفى العروسان وتفرق الحضور يهمسون، يتغامزون، والرجال ظلوا ملتفين حول كوكو.

أخذها علي ودخل مسرعا إلى البيت الكبير لينتهوا من العشاء ثم يناموا بعدها الساعات القليلة المتبقية؛ ليغادروا مع الفجر إلى القاهرة.

إحساس غارق في الخوف والقلق يتلبسها، يبعثرها على كل سلمة من تلك السلالم المنتشرة في كل زاوية من هذا البيت المرعب، حجرات ممتدة في كل دور من الأدوار الخمسة وطرقات مستديرة، كأنها مدرسة ابتدائية أو كأنها ثكنة عسكرية، نساء تطل برؤوسهن من خلف الأبواب الموارية ثم يختفين.

- إحنا رايحين فين يا علي؟

سألته وهي تقترب، تلتصق به، من صوت إجابته اتضح أنه أكثر خوفا وقلقا منها:

- ربنا يعديها على خير.

كان هنـاك خفيـر ببندقيـة وبالطـو كأنـه خـارج لتـوه من شاشـة السينما.

سأله علي كثيرا، لم يجبه، بل لـم يلتفت إليه.

إلـى طاولة ممتدة سـلمهما ذلك الخفير، وبعـد دقائق كان هناك خفير آخر يسـلم بقية الفرقة، الكل جلس سـاكنا حزينا مترقبا متعبا، عرفوا أنهم ينتظرون وصول «البيه الكبير» ليتناول العشاء معهم.

لـم يمر وقـت طويـل حتـى دخـل بحاشـيته، رجـال منفوخون صامتـون بأسـلحة وغمـوض، أما هو ففي السـتين من عمـره بلحية كلحيـة الفقهاء محددة من الجوانب ومتروكة من الأمام، رحب بهم ومال أحد حراسة على كوكو يطلب منها أن تغادر.

رفضـت بعنـف واقتربت من علـي، طلب أن تبقـى معهم فليس هناك غريب. رفض البيه:

- تتعشى مع الحريم أفضل.

أخذهـا الحـارس وغـادر، وراح الجميـع يتابعونها وثمـة قلقل جعلهـم لا يكملون طعامهم، ولا يبادلون «البيـه» بأي حوار، اعتذر وتركهم دون اكتراث، انكمشـوا على أنفسـهم ينظرون في سـاعات

أيديهـم في حركة واحـدة وكأنهم يعدون الدقائـق للهروب من هذا المكان المقبض، المخيف.

***

فكـرت كوكو كثيرا في الهـروب، أو في الصراخ والعويل، أو أن ترجـع إلى فرقتهـا مرة أخرى. سـارت كثيرا خلف ذلـك الحارس، حتى دخل بها إلى إحدى الغرف.

- انتظري حريم الحاج جايين.

تركها وانصرف، جلست تتابع قلبها وهو يريد أن يقفز بعيدا عنها، يغادرها، كل الأفكار التي تأتيها مخيفة، حاولت أن تفتح الباب، كان مغلقـا، لـم يمر وقت طويل حتـى تحرك مقبض البـاب، وانزاح، لم تكن حريم البيه بل كان البيه نفسه.

- آسف هم الحريم ماجوش؟!

قالها بنبرة اختلط فهمها، هل كان يسأل؟ أم كان يسخر؟

جلـس علـى أحد المقاعـد المقابلة لسـرير مرتـب، وطلب منها الجلوس.

رفضـت، بـل أرادت أن تغـادر، فتحت البـاب، لكـن كان هناك حارس منعها.

عادت، وقتها تأكد لها أن في الأمر شيئًا مريبا.

- لو ما خرجتش هاصرخ وألم الدنيا عليكو!

ضحك، تحرك صوب ركن عليه كاسيت، ضغط على أحد أزراره، فانطلقت أغنية صاخبة أو صارخة، ظل ينظر إليها وهو يرفع الصوت، يرفع، وكلما علا صوت الأغنية، علت دقات قلبها، انفجرت صارخة تنادي:

- يا علي، يا.... يا.

اختلط صراخها بصوت الأغنية وتاه، ظلت تصرخ حتى سقطت باكية.

في ركن الغرفة البعيد، تنظر لهيئته التي لم تتغير، أزاح من على رأسه عمامة، واقترب منها:

- فيه شيء بالذوق ناخده وفيه بالعافية.

صرخت أكثر:

- حسبي الله فيك يا علي، حسبي الله فيك يا علي.

اقترب منها، جذبها ناحية السرير، وتحول ذلك الشيخ إلى وحش مفترس انهال عليها ضربا وتمزيقا حتى أصبحت أمامه عارية، انقض عليها، نهشا و...

***

مـع بواكيـر الفجـر لملمـت بقاياهـا ولملمـت الفرقـةُ أجهزتها وآلاتها وفتـات رجولتهم وشـظايا نخوة انفجرت، ركبوا سيارتهم الميكروبـاص وهـم ينظـرون لحـرس «البيـه» المتنمر لهـم بعد أن حذروهم:

- لـو فتحتوا فمكم بكلمـة هانضربكو بالرصـاص ونرميكم في الترعة.

انطلق السـائق، ولم يتحـدث علي ولو بكلمـة واحدة، بل ظلت دموعه تتساقط بفيض غريب، ينظر إلى أصابعه وكأنه يكتشفها لأول مرة، يُحـدّثُ كل إصبع من أصابعه بحكايـات وجعه المتعدد، وهو الـذي أراد أن يخربـش فـي الحياة علّـه ينجو، فقُصفـت أظافره، لم ييـأس، بل أعاد بَريها من جديد وأعـاد الكَرّةَ مرات عديدة، وفي كل مرة كان يكتشف في خاتمة المطاف أنه فقد إصبعا، وكان يصبر، بل ويغير معركته.

تـرك الصعيد وجاء إلـى القاهرة يعمل فـي المقهى ويدرس في الجامعـة إلى أن طُـرد، ترك إصبعه المقطوعة هنـاك ولجأ إلى مقابر الغفيـر ليُكمـل صراعـه مع الدنيـا، حتى اكتشـف فجـأة أن أصابعه جميعها قُطعت حتى ذراعيه، بل وجميع جسده.

هو الآن يكتشف أن ما كان يفعله حلاوة روح وليس صلابة، يُقر بأنه ضعيف، منخور، خاوٍ من كل شيء إلا من ضعفه.

الآن بلا ذراعين، وبلا رأس وبلا علي الذي لعب على جميع حبال الدنيا علها ترضى، فرمته من على ظهر حبالها ليسقط مهشما.

الآن يعترف، ينكمش، ينزوي، يتقهقر، ويُقر بانهزامه بلا أي مكابرة أو محاولة لفلسفة انهزامه، وقف فجأة دون أي مقدمات، قالها وجلس:

- أنا آسف، أنا السبب.

وكأن هذه الكلمة كانت الحاجز الذي يحول دون اندلاق دموعه، أو انهياره بهستيرية حتى هُيئ للسائق أن مصر كلها سمعت بكاءه.

لم يفتح أحد من أعضاء الفرقة فمه، بل راحوا يسربون بين الحين والآخر نهنهاتهم التي ظهرت أول الأمر مكتومة، ثم تدرجت في الارتفاع لتتحول الميكروباص إلى سيمفونية من البكاء الجماعي، أو الإقرار الجماعي بالهزيمة، لم يصمتوا إلا بعد أن وقف «شعبان» عازف العود ليدغدغ عوده على خشب المقعد وهو يصرخ:

- ملعون أبو الذل. ملعون أبو الذل.

صمتوا فجأة وكأن ثمة قرارا اتخذ من الجميع، قرارا سريا لا يعرفه سواهم.

طوال موجات الغضب والبكاء لم تشاركهم كوكو في شيء، كانت صامتة محملقة في البعيد، شيء ثابت لا يتحرك استحوذ

عليها، سرقها، كان وجهها بلا أي تعابير، صفحة بيضاء لم يُكتب فيها شيء سوى بعض خطوط للقهر والإنهاك، لم تتذكر كوكو شيئا سوى أنها لمحت لحظة دخول سيارتهم إلى المقابر قوافل المريدين تلملم أغراضها، تطوي خيمها، وتتسرب واحدة تلو الأخرى مغادرة؛ ليعود المكان إلى سيرته الأولى، متسربلا في صمته وبؤسه، ضغطت بغيظ على أنيابها كأنها تكسر شيئا وهميا.

غادر الشيخ ورواده ومحبوه، واستقر المكان على سكانه، الذين ازداد قهرهم وجرحهم وذلهم وانكسارهم.

***

لم يتردد الشيخ زوزو لحظة واحدة حين علم، بل هرول بلا جلباب خارج باب حوشته، لم يتذكر شيئا من كرهه وحقده وضيقه من أخيه، لم يستحضر شيئا سوى أنه أخوه، شقيقه، لحمه ودمه.

كان يبعثر جُملا مبتورة على حسين ابن أخيه، كيف؟ متى؟ لماذا؟ ومن كان معه؟ وجرحه عميق؟

استغرب حسين وهو يتابع لهفة عمه على مَنْ كان سببا في دماره، وضياعه، وفقدان نور عينيه، يستغرب وهو الذي جاء وفي ذهنه أن يرى الشماتة في عيونه أو يعجز عن إقناعه بالمجيء.

حين أخبره عن تفاصيل الحادث وحجم الإصابة وما قاله الأطباء عن خطورة حالته، قفز الشيخ زوزو كمن لسعته أفعى إلى حيث يرقد أخوه.

***

تجاور الشقيقان على سريرين في غرفة مستشفى، استلقى الشيخ زوزو على واحد فاردا ذراعه ومستسلما بكامل رضاه إلى تلك الحقنة التي راحت تمص دمه في كيس مفلطح.

كان محملقا في أخيه غير عابئ بمرور ذكريات قسوته، مخزون الشفقة أكبر، وركن التسامح ممتلئا يفيض حين يسمع تأوهات أخيه، صرخ بصوت أعلى من حنقه وحقده:

- أخويا!

الممرضات يأخذن الكيس الذي امتلأ ويضعن غيره ليمتلئ، يثبتن الكيس الممتلئ في علّاقة تنتهي بخرطوم يغوص في ذراع الحاج عبد الحميد يضخ فيه دم الشيخ زوزو، حركة الدم في الذراعين تحمل كثيرا من الدلالة وكثيرا من التأويل!!

دم يخرج من ذراع الشيخ زوزو تحت راية العطاء والتسامح، رافضا في قرارة نفسه المتألمة مسمى التبرع، لدرجة أن الأطباء قالوا له: «توقف! لن نأخذ منك دما آخر»، لكنه رفض مطالبا بأن يأخذوا المزيد، ولو احتاجوا ذراعا أو قطعة من جسده فليأخذوها عن طيب خاطر.

في المقابل دم يدخل إلى ذراع الحاج عبد الحميد، وهو الذي احترف الأخذ، بل تمادى وبالغ وظلم في الطمع، هو الذي جفف

كل قنوات العطاء والمدد تجاه الشيخ زوزو، وهو أيضا الذي داس علـى جرح أخيه، وعمق علته حين منعه قروشـا بالكاد تكفي لعلاج عينيه، كان يعرف أن المنع يعني ضياع البقية الباقية من نور شـحيح، ورغـم ذلك، فعل، ومنع، وسـرق آخر شـعاع نـور، دون أن يتألـم أو يُبدي ندما.

هو الآن بين فكي السـرير بغير ماله، وبلا قدرة على النطق، فقط كان ينظـر إلـى نقـاط الدم المتدفق من ذراع أخيه، يشـعر بسـكاكين تنغرس في جدران ذلك القلب التي بُنيت من أسـمنت القسوة، يرى تلك السـكاكين وهـي تفتـح ثقوبا صغيرة تطـل منها عيون الشـفقة فيبكي، ويخرج منها دم الحقد فيشعر ببعض النور.

أراد أن يشق السماء بصراخه مستجديا السماح من الشيخ زوزو، لكـن صوتـه خانه، بل عاقبـه وعصاه، أراد أن يهمـس أو حتى يتمتم فتأكد له أنه سُجن ولم يعد له ما كان سابقا، قبض على يد ابنه حسين وهـو يتنقـل في النظر بيـن وجه أخيه القلـق وبين عيون ابنه، مُسـربا رجـاءه في السـماح والعفو، نظر أيضا إلى أختيه، عائشـة وخديجة، اللتين سـجنهما في زنزانة العنوسـة تحت زيف النسـب والحسـب وتكبره على خلق الله.

جلس الشيخ زوزو في ركن الغرفة غير عابئ ببرودة علبة العصير التـي في يده، مأخوذا برائحة المستشـفيات التي سـكنت خياشـيمه

فوضعته في فم القلق والفقد، يتذكر نفس الإحساس وهو يسبح على دقات قلبه حين دخل وحيد غرفة العمليات، حين جاور رياض في مرضه، وهو الآن يقر ويعترف أن الأُخوة إحساس لا يعوض ولا يجرب إلا بين الأشقاء فقط!

قلبه ينعصر بطريقة مغايرة لألمه على وحيد أو رياض أو أي شخص آخر.

دخلت الممرضات يدفعن أمامهن «ترولي». تكاتف الجميع لحمل الحاج عبد الحميد المتسربل في دمائه، ساقان تهشمتا، ورأس لُملم في شاش أبيض مضرج بالدم، ووجه تورم من جميع الجهات فلم يترك سوى حفرتين صغيرتين لعينين وبقايا شارب مبعثر الشعر.

كانت تأوهاته أعلى بكثير من لهفة وبكاء عيشة وخديجة، هرول الشيخ زوزو ممسكا بذلك الترولي، متعثرا في قفطانه، نفس المشهد السابق وهو يتابع وحيد حين دخوله غرفة العمليات.

يشعر الآن أن ثمة إحساسا بالفقد أكبر، حين أوقفته الممرضات معلنات وصوله إلى غرفة العمليات صرخ الشيخ زوزو:

– سامحتك يا أخويا.

انغلق الباب وسكت الحاج عبد الحميد عن التأوه.

***

الخـــلاص

اقتـرب الخميس ومـا عاد تأثيره كما كان سـابقا علـى درديري، فالمدة التي يقضيها الشـيخ خيشـة في المكان تشغله وتنسيه ما كان عليـه سـابقا؛ إذ إنـه يتوقف عـن الذهـاب إلى صـالات الأفراح في طريق صلاح سـالم ليأتي فـي ختام ليلته بورده اليانـع من أجل بيعه في الصباح إلى الزائرين العجولين.

هـذا أول خميس يأتـي بعد مغادرة الشـيخ، وهكذا دائما يشـعر درديري بتثاقل وتكاسل تجاه الخروج إلى اعتيادية ما كان يفعله في السابق، ومنه الذهاب إلى صالات الأفراح.

خصوصا هـذه المرة؛ فحديث الشـيخ جعله يتراجـع ولو جزئيا عن فكرة الرغبة في الموت والسعي إليه.

حيـن اختلى بنفسـه أدرك أنه ما كان يريد من أحـد أن يعرفه «أن المـوت يختارنا ويحـدد مواقيت الاختيار في الأخـذ»، هو يعرف. ويعرف أن أي تدخل هو انتحار وكفر!

الـذي اختلـف هذه المـرة أن يقينه ازداد تجاه الرضـا بقدره، بأن يترك مصيره بين أصابع الله يفعل به ما يشاء.

خلع جلبابه الأبيض الذي ارتداه منذ مجيء الشيخ، لبس قميصه وبنطاله الباهتين المترهلين، نفض عنهما رائحة إهمال وتجاهل، لف عمامته الباهتة على رأسه، أخرج دلاءه، غسلها وملأها بالماء لتكون جاهزة لاستقبال ورد الفرحين.

حين اقترب من مكان الاحتفال انتابه إحساس مغاير بعض الشيء، انقبض قليلا وأراد أن يعود، وقف، سرح قليلا، أخرج سيجارة من علبته المهترئة، أشعلها وراح ينفخ دخانها بكسل في البعيد، ألقى طين جسده بجوار حوض كبير للزرع متمنيا أن يُعجن من جديد ويُنبت شيئا غير دوائر فراغ دخانه الأزرق.

سحب نفسا عميقا من أحشاء سيجارته، رفع وجهه إلى صفحة السماء، حدق في نجمة شاردة وتمنى لو أخذته إليها ليرى خلق الله من فوق؛ ليكتشف المخفي عن قدرة إبصاره، ويبحث وسط جموع خلق الله عن أصحاب حق الدم، يسلم نفسه إليهم ليقتلوه ويستريح.

طحن بقايا سيجارته أسفل حذائه، دخل من البوابة الكبيرة صوب الأنوار والضجيج.

اتجه إلى المطبخ الرئيس، تسامر كثيرا مع صديقه الشيف، سأله إن كان قد وصل إلى أي شخص من عائلة الرحايمة؟

أجابه باقتضاب:

- قاعدين في النجع إيه اللي هيجيبهم القاهرة؟

انكمش في نفسه وغادر مع بقية عمال المكان حاملين الكوشة بورودها ولمبات زينتها المترجرجة صوب الصالة التي بدأت في استقبال حضورها.

الكراسي تحتضن طاولاتها في دائرية دقيقة، المكان غارق في الفرح، الموسيقى ترن بين الحين والآخر، تقفز نغمات شاردة من أفواه الآلات التي يضبط نغمتها العازفون.

لاحظ درديري بعض الحضور بزي الصعايدة، جلباب واسع الأكمام، وعمامة ملفوفة على الرأس، اقترب من أحدهم.

- البلديات من فين؟

نهره بضيق مغادرا نحو الحضور الملتف على الطاولة القريبة، ربما مظهر درديري لا يشي بأهمية أو احترام.

كلما مر الوقت تمتلئ القاعة عن آخرها بالصعايدة، شيء غريب يشده صوب هذه «الوشوش»، يتحرك في حذر مخبئا فمه بطرف عمامته الملفوفة على مقدمة رأسه، مال على أحد الحضور:

- هو العريس من عيلة مين؟

- من الرحايمة.

خبطتـه الكلمة فـي قلبه فازداد دقا وتوترا، انـزوى في ركن يجتر ما سـمعه، ياااه! أخيرا سـيرتاح، سـيصل إلى أحدهم بعد كل هذه السنين، أخيرا سيتطهر من ذنبه العصي على التحمل.

فكـر فـي حيلة تجعلـه يحصـل علـى تفاصيل صاحـب العرس والمعازيم، اقترب من مدير الصالة:

- محتاج معلومات عن العريس.

- روح الحسابات.

ألقى الكلمة وعاد إلى انشغالاته، أسرع درديري صوب المكاتب يسـأل أحد المحاسـبين، دون أن ينظـر إليه، ناوله بطاقـة دعوى من المرصوصات علـى مكتبه، فتحها درديري بسـرعة، وجهها صوب عيني الجالس على المكتب:

- معلش يا ولدي مبعرفش أقرا.

بضجـر نظر إليـه متصدقا بقراءتـه العجلى: «نتشـرف بدعوتكم علـى كريمة الحسـب والنسـب... وعلى أحمد قنـاوي عبد التواب الرحيمي..».

لم يسـمع شيئا بعدها، كان يرى فم الرجل الضجر يتحرك فقط، سـأله مـرة أخيرة عن رقم موبايل العريس أو أحـد من عائلته، بضيق أكثر ناوله «كارت» صغيرا، صارخا في وجهه:

- خلاص عاوزين نشتغل...

غادر درديري إلى الصالة، في الطريق كان موكب العريس تحفه طوابير فرقة الزفة من الجانبين، وراقصة ليست مثل كوكو، أسرع ليتخذ زاوية تمكنه من إلقاء نظرة على العريس، اقترب:

- ياااه! نفس العينين، عيون أبيه وجبينه المفلطح، نفس عوده الفرع.

انعصر قلبه أكثر.

من لام نفسه، فهو الذي حرم الابن أن يفخر ويفرح بوجود أبيه في ليلة كهذه، وهو الذي حرم الأب من أن يتباهى بولده.

انتهت الزفة، دخل العريس إلى صالته ولم ينتظر درديري ليأخذ كوشة الورد، غادر سيرا على قدميه، يعيد فك حبات الزمن من عقدها، يبعثرها على الباصات وسيارات الأجرة وعلى الأرصفة، كانت تتطاير سوى من حزنها الذي كان يحط كغربان سوداء على رؤوس أعمدة الإضاءة.

ظل يسير حتى اكتشف أنه في مقابر الغفير، دلف إلى حوشته وراح يعد خطوط الأيام خطا خطا، وحزمة حزمة، ثم رسم خطا عريضا تمنى أن يكون خط النهاية، قبض على الكارت الذي يحمل الاسم والوظيفه ورقم الهاتف:

«نقيب أحمد قناوي عبد التواب الرحيمي، شئون الضباط محمول. أرضي...».

وضع ذلك الكارت في جيب جلبابه، ونام..

***

حاولت كوكو أن تنام ولو لدقيقة واحدة، كلما تغمض عينيها ينفتح خيالها على عيون ذلك الرجل الوحش، وهو يعريها، يمزق ملابسها، يصفعها ثم يتكوم فوقها.

تنتفض ناحية شباكها الضيق، تنظر إلى المساحة الممتلئة بالمقابر المغلقة بصمت مخيف: «مَنْ يعش هنا يشعر أن كل الأحياء ماتوا، ومَنْ يسر وسط ضجيج الشوارع وزحمتها يعتقد أن الأحياء لم يمت منهم أحد».

تنهدت رغبة في نفس نقي بلا غبار، شدت حزمة هواء إلى صدرها دفعة واحدة فغرقت في نوبة سعال كادت أن تودي بها، شربت ماءً واستراحت على حافة السرير، حين هدأ صدرها كانت في مواجهة مرآتها،حدقت فيها، الخربشات على وجهها أخذت لونا أسود ممتدا بطول الجبهة، العيون ما عادت هادئة مثلما كانت، بل ازداد تلفتها وقلقها، عادت إلى حوارها الداخلي: «الله لا يسامحك يا علي، فضلت تقول: بنرقص حوالين النار وما نقربش منها، أديها

قربـت وحرقتنـا، حرقتني أنـا، دمرتني أنـا، أعمل أيـه؟ أهرب، ولو هربت أروح على فين؟».

طرقات متباعدة تأتيها من باب غرفتها، تستمر في منولوج قلقها، تتكرر الطرقات أكثر، ببطء وتكاسل تتحرك نحو الباب:

- مين بيخبط؟

يأتيهـا الجـواب مرتعشـا، تفتح لـه، كان علي، يتمايـل في إعياء شـديد، يفتح عينيه بصعوبة، أسند ظهره إلى حائطها الشاحب وراح يدلق الكلام على أرضية غرفتها:

- أنـا شـارب أربع سـجاير حشـيش عشـان اقـدر اقـف قدامك واقولك الكلمتين ومش هتشوفيني تاني..

أنا غير إني عبيط واهبل ومتعوس، أنا خايب، كل حاجة في الدنيا دي بتحصـل دايمـا غصبا عني، أنا جيت الدنيـا غصبا عني، ورحت الجامعـة غصبـا عنـي، وطردونـي منها برضـو غصبا عنـي، وجيت المكان دا غصبا عني ولاقيتني با شـتغل الشـغلانة غصبا عني، وفي كل مرة كنت أحاول أفلسـف الأمور بطريقه تخليني وكأني أنا اللي رتبت ونفـذت واخترت اللي أنا فيه، يعني رجل قوي بيفرض رؤيته على الحياة، وحاولت اسـوّق نفسـي بين الناس على إني مثقف وأنا مش مثقف بل جاهل، حفظت شـوية عناوين لكتب وأسماء لكتاب ورحـت زي الببغـاء أرددهـا وأنا مش عـارف معانيهـا، تعرفي كنت

باحس لما أقول شكسبير أو أفلاطون كنت باحس اني باداري نفسي وراهم، كنت باتخبا فيهم، وانا عارف اني جاهل، طب تعرفي والله أنا عارف ان الناس عارفه اني جاهل.

ولما عرفتك والله حبيتك وما زلت بحبك أكتر من حياة، لكن لما كنت أخرج معاكي واشوف العيون هتاكلك مني والدراعات اللي فيها الساعات الغالية اللي بتفوح منها ريحة البارفان هتاخدك مني، ولاني باموت من الخوف والضعف وعارف اني مش ها اقدر احميكي قلت لنفسي خليها تروح برضاي، ساعتها أنا اللي اكون الراجل القوي اللي بيفرض على البت رأيه ويخليها ترقص للناس وتعري جسمها، لكن عمري ما فكرت أن حد يغتصبك قدام عيني وإني أنا اللي يوديكي له بأيدي اللي تتقطع دي، كنت بالعب معاكي زي ما كنت بالعب مع الدنيا لعبة الأهبل المُطيع، أنا لأول مرة ها اعمل حاجة بمزاجي. ها امشي من هنا، مش عارف هاروح فين لكن هامشي.

كان علي يفضفض غير ناظر إلى كوكو، وكأنه يكلم شخصا آخر غيرها، كأنه يكلم نفسه، وظلت كوكو تبكي بغزارة كلما تعمق هو في فضفضته، بكت كثيرا كثيرا، حتى تركها وغادر، شعرت للحظة أنها ستفتقده، أو أنها تريد أن تقول له لا تغادر، ابقَ هنا، هنا أشباهك كثر في الخيبة و الفقد وفي الضياع، تقول له لا تجرب الانكسار في مكان آخر ولا تجرب الانهزام أمام أشخاص آخرين، لا تصغر

فـي عيون أناس لا يعرفونـك، ابق في مكان واحد رهين وجع واحد أفضل بكثير.

***

لم تكن الطاولة التي تفصل بين درديري وحسـن أبو علي تتسـع لطبق الفول وكوبين الشاي والأذرع الأربع التي تستند عليها لتعطي للرأسـين فرصـة الاقتـراب بعـد أن تحـول الكلام إلى همس يشـي بأهمية ما يقوله درديري.

هكذا ظهر الأمر بالنسبة لمن يراهما من بعيد، انشغلا بحديثهما أكثـر، لـم يردا على أي تحايا صباحية أو أي مزاح من حودة فنجان وشطة أو من حياة.

باح لحسـن بسـره عن عثوره أخيـرا بعد بحث السـنين على ابن همام، طلب من حسن أن يبارك له اقتراب أمر تطهره والقصاص.

- عرفت العنوان: شئون الظباط في مصر الجديدة تعالَ معي.

شـعر حسـن أنه في دوامة غريبة بسـبب اختفاء رياض في نفس توقيت رحيل الشيخ خيشة!

ورحيـل علـي فالناس تحكـي أنهم رأوه يحمـل حقيبة ويغادر في الفجر صامتا لا يكلم أحدا ولا يرد على أحد، والشيخ زوزو منذ وفـاة أخيه وهـو دائما في البلد لا يأتي حتى يغـادر مرة أخرى ومعه وحيد، وما عاد يمزح مثلما كان، كل شيء تغير!

يرى حسن أن سكان المكان بدأوا في الانحياز إلى خارجه، كل ينهي وجوده في مقابر الغفير بطريقته الخاصة، كل يخرج من منطقة البين بتدابير أقدار الله، وها هو يرى درديري أمامه يتخذ قرار مغادرته من المكان أو موته.

عاد حسن إلى طلب درديري بعد تلك التحويمة الممهدة للفراق، نصحه كثيرا بأن يتأنى، بل توسل إليه أن يترك الأمر:

- دا انتحار.

أصر درديري على موقفه، بل انتفض واقفا تاركا حسن لقلق فراقه و غادر مهرولا صوب الشارع الرئيسي ملوحا لأول ميكروباص إلى مصر الجديدة، قال لحسن:

- لا أريد منك شيئا، كل ما أريده أن تكون قريبا مني لتأخذ جثتي إن قتلني؛ لتدفن هنا في الحوشة التي تحملتني 30 عاما ماضية. وإن سار الأمر كما أريد سأجعلة يأتي معي إلى حوشتي ويقتلني بمسدسي وساعتها الأمر بالنسبة لكم سيكون أسهل.

غادر معه حسن على مضض. ارتمى بجوار المقعد الذي احتوى درديري، يسترجع تلك السيناريوهات التي سعى إليها مفزوعا وهو يتصور أنه قد يعود بجثة درديري أو يعود به وبقاتله ليكون شاهدا على تلك اللحظة الفارقه، منتظرا خارج باب الحوشة حتى يتم قتل صديقه.

وقفـت الميكروبـاص فجأة، نـزلا عجولين، انتظر حسـن على ناصيـة الطريـق، غادر درديري إلى حيث يعمل ابن همام، اسـتفاق فجأة على أنه قد لا يراه مرة أخرى، ناداه، وارتمى في حضنه ليدخر بعضا من رائحته للأيام القادمة..

لم يشعر درديري للحظة أنه متردد، بل أحس بجسده خفيفا يريد أن يحلق في فضاء القصاص، سـأل واحدا من الجنود الواقفين على المدخـل، سـار به إلـى أحد المكاتب، طـرق ثم دخـل، كان مكتبه حديقة من باقات وورود المباركة على الزواج.

كان وجهه باشا سـعيدا، النجوم على الكتفين تتلألأ مع حماسة الأكمام المشـمرة حتى الكوعين، أنيقا ممشـوقا يشبه أباه في أشياء كثيرة، عيونه، جبهته، حتى في صوته.

تمنى أن يرتمي أسفل قدميه ويبكي ليسامحه، استحضر شجاعته ورغبته في الخلاص.

– يا ولدي محتاج منك دقيقتين فقط.

كان النقيب شـديد التهذيب والأدب، أشار إليه بالجلوس وراح يكمـل ما كان يفعله، ظل درديـري يراقب تحركاته، يقارنها بما كان لأبيه، ودقات قلبه تزداد حتى انتهى، استدار ناحيته بابتسامة رضا:

– أي خدمة؟

- يا ولدي ممكن نتكلم في مكان آخر.

استغرب كثيرا بل تحولت نبرته إلى حدة:

- إن لم تتحدث مباشرة اسمحلي أنا عندي شغل.

- بلاش نفتح دفاتر الماضي في مكان عملك!

انتفض النقيب كمن لسعته عقرب مهددا!

- أنا درديري..

أخرجها من فمه وجلس متعبا كمن نزع من قلبه سكينا.

صمت النقيب، دار حول مكتبه، ترنح ثم جلس على مقعده محملقا في البعيد ومرددا الاسم أكثر من مرة.

ثم فجأة انتفض ناحيته قابضا على رقبته وراح يصفعه بكل قوة حتى أصبح وجه درديري خيوطا من دماء.

تركه، أغلق باب مكتبه غير عابئ بأية طرقات أو نداء، جلس على مكتبه، صدره يعلو وينخفض، ودرديري أزاح الدماء بكم جلبابه وفمه يرتعش.

- يا ولدي أنا رتبت كل شيء. طبنجتي معايا، وهانروح مقابر الغفير، خد تارك يا ولدي وغادر واوعاك تجيب سيرة في النجع.. مش عاوزين همام يتقتل تاني، مش عاوزين درديري يهرب تاني، كفاية موت ودم.

انتفض النقيب مرة أخرى ينهره ويضربه:

- بتخطط لقتلي، بتجرجني للمقابر تقتلني هناك وتخلص مني، لا أنا ها قتلك هنا مش هاسيبك..

- خطر عليك ومستقبلك هيروح، تعالَ نطلع من هنا، دا عنواني والله يا ولدي بقالي عمر طويل ادور عليك، أنا تعبت عاوز اطهر.. عاوز اخلص ضميري يا ولدي، من يوم ما قتلت ابوك مانمتش، عاوز انام يا ولدي أرجوك، أحب على رجلك ريحني وتعالَ معي..

قفز النقيب ناحيته:

- لا إنت اللي هاتيجي معي.. هاموتك بطريقتي الخاصة، تعالَ ولو حاولت الهرب هاضربك بالرصاص.

قبض على ذراعه وخرج من مكتبه.

كان حسن يقف على ناصية الشارع المقابل حين رأى النقيب قابضا على ذراع درديري، تأكد أنه فقده إلى الأبد، أراد أن يبكي أو يصرخ، لكنه صمت وراح بحذر يقترب من درديري يلوح إليه، استأذن درديري النقيب بعد إلحاح حتى وافق محذرا إياه من الهرب.

اقترب من حسن، قال له إنه سيأخذه إلى مكان ليقتله فيه بمعرفته.

قال له الجملة ثم أراد أن يمر صوب الجهة التي يقف فيها النقيب، لكنه لاحظ ارتباك النقيب وهو يتكلم في الهاتف ويحمل باليد الأخرى غطاء رأسه الميري، يريد أن يعبر الشارع ويريد أن يتوقف، وزحمة السيارات تزداد وصراخها يعلو ويتداخل، ازداد ارتباكه أكثر، كانت في البعيد سيارة نقل كبيرة تأتي مندفعة ناحيته مطلقة «زمارتها»، لم يعرف درديري سوى أنه انطلق مسرعا، دافعا النقيب بيده بعيدا عن عجلات هذه السيارة؛ ليكون هو مكانه أسفلها، صرخ الجميع وجرى حسن ناحية درديري الذي لم يبقَ فيه شيء سوى عينين زائغتين تنظران إلى حسن:

- خليه يسامحني.

صرخ حسن في النقيب، بل جرجره وأجلسه بجوار درديري طالبا أن يسامحه، تردد النقيب برهة ثم قالها:

- سامحتك..

بعدها مباشرة أغمض درديري عينيه، واستراح.

استكمل حسن ومعه النقيب كامل الإجراءات،حملوه إلى ذلك القبر الذي جاوره لثلاثين عاما، إلى تلك الحوشة التي سكنها حيا ليجرب سكناها ميتا.

أنهوا مواراة الجسد، تعلقت عيون الجميع على حزم الخطوط التي رسمها درديري على الحائط، كل تسعة خطوط عرضية تُحزم

بخط طولي، بتوقيع العشرة أعوام، أسفل تلك الحزم من السنين خط طويل بدا من لون طباشيره أنه حديث.

تأمل الجميع بصمة يد درديري التي أغلقت صفحة الحياة، وأرخت للنهاية. على الحائط الذي رسم درديري خطوطه وحزم كل عشرة خطوط بمساحة السنين بخط معاكس.

بعد أن غادر الجميع، جلس النقيب مع حسن طويلا، وراح حسن يحكي له عن وجع ذلك الرجل الذي ظل يتألم ثلاثين عاما، نادما ومعاقبا تلك الذات المحرضة على القتل، وتلك اليد المجرمة، حكى له عن ذلك الضمير الذي قضى فترة صغيرة في الهرب والتخفي خوفا من أهل الموت، وقضى أطول منها في البحث عن قاتله، في البحث عن ماء التطهر ليغتسل به.

كان حسن يراقب عيون النقيب التي تتأرجح بين الشفقة على من راح تارة، ثم العودة إلى ضيقها وحقدها عليه تارة أخرى، ختم حسن كلامه بجملة عن تلك الليلة التي حضر فيها زفاف النقيب، تلك الليلة التي ظل فيها ينفخ دخان سجائره ويبكي وهو الذي حَرم أبا من الفرح بليلة زفاف ابنه.

***

في المساء بدا فضاء مقابر الغفير خاشعا مستكينا، أو ميتا!

أول ليلة بلا درديري، بلا دخان سجائره، وبلا صوت سعاله الشهير.

تجمع سكان المكان أمام حوشته، متدفئين بقربه، مصبرين أنفسهم العالقة برائحة أيام عشرته، غريبون في الحزن، وهم الغاطسون في كدره، حين يبكي أحدهم تنفلت دموع الآخرين، وحين يصمت يعودون للهدوء كأن لم تبكِ العيون، منخورون بالضعف يتكئُ بعضُهم على بعض، يتواسون وفي القلب وعي كامل بمرارة الفراق.

بكى الشيخ زوزو فتمادى وطال وقت البكاء، بكوا فتعالت نهنهاتهم، اكتشف الجميع في نهاية ليلة العزاء، وبعد أن انفض آخر المعزين، أدركوا أنهم كانوا يتقبلون العزاء في علي منولوج الذي اختفى وفارقهم، وفي الشيخ زوزو الذي يحضر أغراضه لمغادرة المكان، يبكون رياض الذي غادر. يبكون استكانة المكان التي نكشتها رياح الفراق.

***

ما عاد حسن يذهب كثيرا إلى ورشة عصام خجلا وحياءً بعد أن شحّت لقمة العيش وما عادت تنفتح أبواب الورشة على شيء سوى القليل.

يردد عصام دائما:

- الثورة خربت بيتنا..

الميادين لا تخلو من محتجين وثوار، والشوارع أغلقت، وانتشرت البلطجة، واقتصرت المهنة على تقطيع السيارات المسروقة وبيعها خردة وهذا ما رفضه عصام.

فكر حسن كثيرا في طرق أبواب جديدة للرزق، لكن دون جدوى.

ذات ليلة محبطة من أولها غادر حسن ورشة عصام صوب «بلكونة» إيمان متخفيا حتى لا يراه أخوها العنيد، ظل في الزاوية يسير إيابا وذهابا ربما تخدمه الصدفة في رؤيتها وهي حبيسة قسوة أخيها بلا موبايل أو هاتف منزل أو أي وسيلة للتواصل.

وحين انقسم الليل جرجر يأسه مستسلما لشارع محمد علي من ناحية القلعة صوب العَتبة، يقلب الأيام التي مرت بضيقها ومذاقها المر، يجمع ويطرح معادلاتها القادمة علها تفضي إلى ما يفرحه، لكن النتيجة دائما تنتهي بذلك الصفر التعيس.

انحدر شمالا قاطعا ميدان سليمان باشا، لفت نظره ذلك الصمت والتربص من قبل الحشود التي تتوارى خلف أكتاف العمارات القديمة، تأمل كثيرا سيارات الجيش المصفحة وعليها الجنود بزيهم

العسكري، كانت أعداد أفراد الشرطة قليلة جدا إذا ما قورنت بأعداد قـوات الجيش، رأى أكثر من دبابة في نهايات الشـوارع المؤدية إلى الميـدان، حين اقترب خلسـة، كانت تأتيه صيحـات جارفة كطوفان نوح الذي أغرق غير المؤمنين به.

أمام هذه الهتافات ثمة شـيء غريب يسـري فـي أوصاله، يلملم حبات دمه وقشعريرة من إخمص قدميه يدفعها في موجات صوب القلب فتزداد دقاته، ويعلن أنه سيعمل وقتا إضافيا تبرعا منه لخدمة ذلك الشعور الخفي!

حيـن انتهـت تلـك الدفقات إلى رأسـه جعلتـه يدور فـي موجة انفعال غريبة، شـيء يُسقط عنه إحساسـه القديم بأنه مطرود من هذا البلد الجاحد أهله.

يشـعر أن ذلـك الكوكب الـذي يمر بـه الآن كوكبـه، وهو الذي كان يحـس دائمـا أن مقابـر الغفيـر كوكب آخر، كـرة أرضية أخرى لهـا مخلوقاتها وطقوسـها، دائما تتلبسـه أحاسـيس الحقد على من يعيشـون خـارج كوكبه. الآن فقـط هو يعرض صدره وجسـده لهذه الهتافـات، يشـعر ببعض نتف هـذا الحقد تتطاير بعيدا عن جسـده، يفتح صدره أكثر، يعرض كامل جسـده لجهة هبوب تلك الهتافات، موجات من العلاج الكيماوي لسرطان مُعتَقده.

ثمـة تراتيل لا يعيها تناديه، تشـده ناحيتها، كتراتيل نداء الدلافين حين تهرول صوب مناديها، تجاه الشـاطئ، رغم علمها بأنها تهرول إلى حتفها ونهايتها لينتهي بها المطاف إلى حفل على شواء أجسادها بتوقيع القتلة البشر.

ترنيمـة سـحرية تجرجـره ناحيـة الميـدان متخفيـا في مسـالك ممـرات الأبنيـة العتيقـة حتـى اقترب، شـيء غريب جعله يستسـلم وبكامل إرادته ليكون عشاءً لهذه الحشود.

أول مرة يرى هذا الكم من البشـر، أول مرة يرى مغناطيسا يشده صوب دفئها رغم قسوة هذا البرد إلا أنه يقف عند حدوده، لا يجرؤ على أن يتقدم خطوة صوب حدود الميدان، تهادى بعد برهة صوت أغنية وطنية جاءته على استحياء تسعى من خلف تلك الحشود، كان صوت «شادية» برقته يردد اسم مصر، «يا حبيبتي يا مصر»!

أدرك وقتهـا سـر النداء الخفـي، أدرك تلك التعويـذة التي جلبته ناحيتها.

- مصر...

- مصر..

شعر ذات مرة بنشوة هذه الحشود ورنة هذا الاسم حين كان يتابع فيلما بالأبيض والأسود عن الثلاثية، وتذكر لحظة خروج المظاهرة

والطلبة والجميع يهتفون باسم مصر،وقتها دمعت عيناه ولم يستطع العثور على تفسير لهذه الدموع.

الآن نفس الدموع تنهمر فجأة دون معرفة سبب انهمارها، وتجف فجأة أيضا دون معرفة سبب جفافها.

اقترب أكثر، مر وسط الأجساد، الكل مشغول بنفسه، يحمل علم مصر، وهناك من يرفع بعض الشعارات الأخرى، حين وصل إلى قلب الميدان أمام إحدى المنصات كانت الذروة تتصاعد في مربع صدره، تهتف، تهتف، تدور الهتافات في ذلك المربع قبل الوصول إلى الحنجرة، تردد كثيرا في إخراجها، نظر حواليه حين شعر أن كل العيون تنظر إليه فقط، ولما تأكد له انشغال الجميع بنفسه وبما يقال على المنصة.

تهته، ثم تشجع فصرخ:

- مصـــ...ر مصر.. تحيا مصر..

شعر بطائر حبيس يخرج من قفص صدره، يحلق في سماء الميدان، يتحرك أكروباتيا، ينثر على الحشود أناشيد الطير في البعث والنشور، أحس أن ذلك الطائر هدهد سيأتيه بعرش تحرره قبل أن يرتد إليه طرفه، أو أنه ذلك الغراب الذي سيعلمه كيف سيداري سوءة أخيه إن أخطا واستسلم لحقده الطبقي وقتل أخاه.

أحس أيضا أن ذلك الطائر هو تلك الحمامة التي سكنت مدخل الغار وباضت لتحمي النبي وأبي بكر.

كان جسده يتحلل من مساميره، يتحرك بأريحية، هدأ النفس الخارج والداخل في صدره، ارتاحت حنجرته فألقى لها أول صيحاته:

- الثورة مستمرة!!

ظل يهتف بعدد الساعات التي قضاها في السجن، وبعدد خسارته، وبعدد إحساسه بالعجز والظلم والحرمان والحاجة وقهر الرجال.

كلما يهتف يشعر بطائره يقترب من رأسه، يحمله معه إلى السماء ليرى الصورة أوسع، بقعة من البشر المتجاورين المتشابهين في كل شيء، لا يرى الأجساد فقط، بل غاصت رؤياه إلى مكمن القلب، رأى كل القلوب في حجم واحد تردد نغمة واحدة، ومنعقدة على غاية واحدة، فأدرك شيئا من الأمل.

تجرد من مرضه، فابيضت خلجاته، فانكشف البصر، كانت الملائكة بأجنحتها تهفهف فوق الميدان، تدور صوب برج القاهرة، تضمه بين جناحيها، تحرك تلك الأجنحة أعلى وأسفل ثم تطير فينكشف بياض البرج ويتجلى بريقه، كانت تعيد إليه بهاءه، تنزع عنه تلوث حقد المدن وقسوتها، تطير أخرى صوب الهرم، تمسحه،

تنظفه، تعيد ترتيب حجارته المتآكلة، ثم تنزل إلى ارتفاع منخفض فوق صفحة ماء النيل، تهفهف بأجنحتها فترجرج عين النيل مرتعشة، وحين تصل إلى منتهاه يظهر النيل ماردا أزرق شامخا لعنان السماء، حارسا لقلوب المتوحدين في الميدان.

حين هدأ الليل نزلت تلك الملائكة، فرشت أجنحتها، أناخت ريشها للمتعبين، نفخت بمنقارها عليهم: أففففففففففففففف.. فترنحوا، وتجاورت الأجساد، وناموا.

***

في اليوم الخامس له في الميدان، استيقظ مبكرا، مر على رفاقه المتكومين أسفل خيامهم، تأكد من سلامتهم، هكذا كان يشعر بمسئوليته تجاه أولئك الذين أوصلوه إلى تلك الأحاسيس التي أعادته من غيه كيوم ولدته أمه، أعادته مغسولا من فهمه الخاطئ، ومن حقده تجاه الواقفين في الدرج الأعلى من المجتمع الذي لفظه وسكان مقابر الغفير، أعادته إلى يقين الحب والرضا بـ: «ورفعنا بعضكم فوق بعض درجات»، وقبول «فضلنا بعضكم على بعض في الرزق».

يذكر أنه تحدث مع الطبيب فلم يشعر أنه أقل منه، وتحدث مع رجل أعمال، تحدث مع الجميع، السيدات اللاتي تأتين يوم الجمعة

تفوح منهن عطور الأحياء الراقية، لم يشعر بفرق، أو أنهم جميعا لم يجعلوه يشعر بفرق.

كان يرى الميدان كيوم الحشر، كيوم عرفة، تشابه الجميع في كل شيء، توحد الجميع على شيء واحد وهدف واحد، تجاورت أجساد المتفقين على يقين واحد، أفرزت أثيرها وكيمياءها فخلقت معجزاتها في التطهر وفي كسر أسوار الطبقية والدونية.

ذات صباح، وأثناء جلوسه في الطرف المواجه لشارع طلعت حرب طلب منه أحد الداخلين إلى الميدان أن يساعده في ركن سيارته، وأعطاه خمسة جنيهات، لم يمر وقت طويل حتى كثرت السيارات وكثرت الخمسات من الجنيهات.

كان يعمل من الصباح حتى الخامسة بعد العصر حيث يبدأ الميدان في الازدحام، فيترك كل شيء، يشتري طعاما يكفيه ومن يجاوره، يضع كل شيء في أقرب خيمة وينخرط في تأمين مداخل الميدان مع اللجان الشعبية، والهتافات وتركيب المنصات، حتى بات حسن أبو علي تميمة ثوار الميدان، يذكر الجميع أنه صاحبُ الفضل في فك الاشتباك بين الباعة والثوار، وهو الصقر الذي كشف المندسين أكثر من مرة.

لم يكن حسن مشغولا بما هو خارج الميدان، أو بما يقال على المنصة من شعارات ومواقف، كان معنيا فقط بما داخله، من نقاء

ومن حب لهذا الوطن الذي تحرسه الملائكة، أما المواقف السياسية فتركها للثوار، يثق أكثر في أولئك الساكنين الميدان الذين يشبهونه في كل شيء، لا يثق في السياسيين الكبار، الذين كانوا يأتون كل مساء متأنقين يلقون خطبا لا يفهمها ويغادرون على عجل، تجربته في مقابر الغفير جعلته لايثق في الزوار المتعجلين، يربط بين الزائر العجول والجحود.

كيف يكون زوار الميدان من هؤلاء السياسيين الكبار العجولين إلا إذا كانوا جاحدين؟! ومن أين يأتيهم التوافق وهو لم يرهم على شاشة التلفزيون إلا وهم يتعاركون؟ مر ما مر على سقوط النظام والميادين ممتلئة بأبنائها، والكبار يتعاركون، مر ما مر وما زالت تلك الهتافات ترن في أذنه: «الحقوق لا تُمنح بل تُنتزع»!

جاءت في رأسه صورة حبيبته إيمان ورآها، كما رأى مصر، حبيسة، مسجونة، رثة الملابس تحتاج إلى من يحررها.

توجه إلى بيت إيمان، كان الوقت صباحا، انتظر على ناصية بيتهم حتى غادر أخوها المستبد، طرق الباب، حين فتحت دون أي كلام أخذها من يدها غير عابئ بنداء زوجة أخيها.

ألقى بنفسه في قلب «تاكسي» أسود، واتجه إلى أقرب مأذون ليحرر شهادة حريتها وشهادة انعتاقه.

خرج مسـرعا بنفس روح انتصاراته إلى حوشـته، حين رأته أخته حياة، انهالت عليه سـبابا، وهو الذي اختفى منذ أسبوعين دون خبر أو حتى رسالة.

قال لها:

- أنا تزوجت إيمان وسأدخل بها الآن.

تحدثـت حياة كثيرا، لوحـت بيديها، صرخت، لكنه لا يذكر ماذا كانت تقول، سـوى أنه دفعها خارج حوشـته ليكون وجها لوجه مع حبيبتـه، وراح يقيـم لها ناصية للماء، يجلسـها على كرسـي التطهر، يدلق عليها زخات الحرية فتنزل على مئذنة رأسها، تجرف صدأها، تهـرول فوق الصدر فتزيل عنه ضيقه وحرجه، ثم تنسـاب في عفوية العنفوان الكاشـف لغمة الأسـر، وحيـن تصل إلى منطقـة الخصر، وبين الفخذين، تتحول إلى دوائر، أختام للعفة.

نـزع عنهـا ملابسـها، وأزال عـن جسـدها زغـب القهـر والألـم والحرمان، غسـل شـعرها، أمسـك خصلـة خصلة يصففهـا بعناية شـديدة، كانت الملائكة تحوم في فضاء غرفته، اقتربت منهما، أخذ بعضـا مـن ريش أجنحتهـا وصنع لإيمان تاجـا، قبلها كثيـرا كثيرا، وارتمـى على صدرها بعـد أن أمطر جوفها العطـش، وتركها تلملم نتف ذلك المطر في رحمها، تضمد به شقوق عطش السنين.

***

الكشف

محملا إذن بفيض الشيخ، وبدرجات الارتقاء ومسالك العارفين، وكلمات جبال تستوجب تأملا، تشعر لأول مرة أنه يغزوك.

لـم يذكرك ذلك السـائق الذي أخـذك إلى مبتدأ تلـك الصحراء بذلك السـائق الذي أقلـك من الزمالك إلى مقابـر الغفير، فرق كبير بيـن الاثنين وإن تشـابهت مطية الركـوب والانتقال، بـون لا يتضح منتهـاه بيـن المسـافتين، الزمالـك إلى مقابـر الغفير رحلة الكشـف وكسر انعزال الروح.

ورحلـة مقابـر الغفير إلـى تلك الصحـراء التي تقـف على حافة صفرتهـا، أنـت وما كنته في الخلـف وغموض واتسـاع في الأمام، صفحـة الصحـراء تنتظـر أول تدوينة من فيض روحـك التي ارتقت سلمة واحدة في ملكوت الوصل مع الله.

أنزلك السـائق الذي لم يرمك بحرف طيلة رحلته، ولم يزعجك بظرف مفتعل وبهمجية المغالبين والفهلوية كما جربت في رحلتك إلى مقابر الغفير، حين غادرتك روحك بكاملها.

للصحراء لون الكل يعرفه وصوت لجنود الريح البعض يسمعه، لكن طعمها لا يفوز به سوى الموعودين.

خطت قدمك خطوتها الأولى فارتقت روحك درجة إلى الأعلى، فانكشف جزء قليل من المخفي، فخرجت من الوجود الذي تراه وتعلمه إلى الإيجاد، فانتقلت عبره من عدميتك إلى حالتك المُدركة!

ولو كان العالم دائرتك الكبيرة فأنت قلب هذه الدائرة، وإن كنت أنت دائرة صغرى فقلبك مركز هذه الدائرة، وإن كان قلبك دائرة أصغر فالله مركزها ومالئها، إذن أنت من الله، والله فيك.

ما في الجبة غير الله، كما قال أحد العارفين، إذن أنت تحمل الله فيك، فتقدم نحو المرحلة الأخرى.

في الطرف عند الحد الفاصل بين شريط الأسفلت وبداية متسع الصحراء كشك خشبي مهترئ مرقع بقطع صفيح وكارتون، مسنود ببقايا سيارة، خليط من بقايا وجود كان لأشياء ماتت.

ذلك الكشك والركام يشكل في المكان بينا، شيئا طارئا زائدا، ما زالت بقاياك المادية والأرضية تبخ فيك فضولا يدفعك نحوه، تقترب، تقترب أكثر فتبتعد عنك روحك بقدر اقترابك، غريبة، هي تأتيك حينما تكون لها فقط، منقطعا عن غيرها.

على مدخل الكشك المتهالك، كان يجلس رثا بأسمال قديمة، بقايا بنطال أسود وقميص لم يبقَ منه سوى أكمامه، شعر متدلٍ غطى وجهه، لحية اقتربت من ملامسة الأرض، كان صامتا!

- السلام عليكم.

رمقك بلا أي اكتراث وكأنك لست هنا، كأنك عدم.

- ممكن أقعد؟

- ...

- أي طريق يدخلني إلى هذه الصحراء؟

- ....

استدار ببطء إليك فاتحا عينيه، مثبتا بؤبؤهما فيك وكأنه يريد قتلك.

لم تتحمل الجلوس كثيرا لكنك عدت إلى أولئك غير القادرين على أن يحسموا أمرهم بين عالمين، وهو منهم، يقف في المنتصف، عند الحد الفاصل بين نقيضين، الأسفلت وعربدة السيارات عليه محملة بمن اختار لغة الانشغال بالحياة، وبين حد الصحراء المفتوحة على الغموض والغيب، المحتوية على أسرار المنذورين لله والباحثين عن المعاينة والكشف، برزخ بين عالمين متناقضين لا يلتقيان وأنت بينهما.

غريب صاحب الكشك المتهالك، حين سألته عن تجربته التي أوصلته إلى هذا المكان كان بؤبؤا عينيه ينعصران فينزان سائلا لزجا يدور في متسع السواد، ثم ينزل ببطء إلى متسع بياض العينين، لكنه لا يسقط، قرأته حينها على أنه سائل الحزن والفشل، وصلتك الإجابة المرتجاة أن ذلك الرجل عائد من رحلة الصحراء بصفر الوجد، عائد بفشل نكران الله له، بأنه خاض تجربة الانقطاع إلى الله ولم تكتمل، جرب التخلص من وزر ماديته ففشل، حاول الارتقاء إلى مراتب الموعودين فسقطت حبال الوصل فسقط.

هو إذن ذلك الشبح الذي تخافه، ذلك المصير الذي لا تتمناه لتلك الذات الحيرى.

أنت تعرف أن هذه الرحلة ليس فيها «بَيْنٌ» إما الفوز بالوصل والارتقاء إلى مراتب الرضا، وإما هكذا، كصاحب الكشك المتهالك الصامت أمامك، الواقف في المنتصف، ينتظر ميتة تريحه من هذا المصير المعلق.

كررت أسئلتك عله يجيبك أو يغششك سؤالا من أسئلة قلقك، يطلعك على واحدة من صعوبات التجربة، أو ينصحك، فقط كان سائل عينيه اللزج يزداد كثافة، يحوم في مآقيه، يتكاثف ولا يسقط.

استحضرت كلمات الشيخ خيشة فلم تكن سوى إشارات مفتوحة التأويل، تمنيتها عبارات دقيقة لا تحتمل تأويلات، لست جاهزا بعد لفك شفرتها الغائبة.

كل ما تستحضره الآن ذلك الصراع بين ذاتك وذاتك أيضا، بين مادية غمستها في كل شرور الدنيا حين كنت عبدا من عبيد السياسة وتخيلت أنك تحكم كل هؤلاء البشر وهذا الشعب، أنك سيدهم، فاكتشفت - أو إن شئت الدقة - تكتشف الآن أنك كنت عبدا لهم، كنت مسجونا في ذاتك المتضخمة، لا ترى الدنيا إلا من تلك النافذة الضيقة التي صنعتها لك حاشيتك القريبة، الآن تريد أن تدخل إلى ذلك المتسع للتحرر.

اقتربت من ذلك الرجل، مددت له يدك مرتعشا عله يصافحك، ببطء مد ذراعه ناحيتك دون أن يفتح كف يده للمصافحة، ترددت أنت ثم قبضت على كفه، شعرت لأول وهلة بأن ثمة تيارا كهربائيا يصعقك، وكأنها مصافحة بين عالمين متناقضين، أحدهما مادي والآخر لا تملك معيار وصفه.

خلصت يدك منه وغادرته صوب متسع الصحراء، الآن تبدأ في الانحياز إلى صفرة الذي أمامك، فلتتخير طريقك ولتبدأ في الدخول من أي باب شئت.

تنظر إلى تلك الصفحة الصفراء، إنها صحراء روحك التي يبست وضاع معيار حكمك عليها. أتراها قاسية هي أم حنونا كعيني عجوز الحكمة الذي يأتيك حين تضل وتدور في مسالك التوهة الوقتية.

فضاء الصحراء يشد إليه السماء من آخر المشهد فتصبح أنت بين لونين، زرقة صافية في الأعلى وصفرة باهتة في الأسفل، مرة أخرى أنت بين «بينين» أنت الآن في مركز بينٍ آخر، بين السماء مرتع الغيوم والمطر ومصدر الارتواء، وبين نقيضها الصحراء مرتع الجدب والعطش.

تحدق كثيرا في البعيد، في ذلك المشهد حين تلتحم السماء بالصحراء، تمنيت أن تكون في بؤرة الالتقاء، تلك البؤرة التي يضيق فيها «البين»، تقترب من تلك السماء التي لا يدعي أحد أنه سيطولها. سوى مجنون، وأنت بمفهوم الجنون منحاز أكثر إليه.

- فاعتبر.

رنت في روحك هذه الكلمة حين سألك شخيك:

- هل تعرف معنى الكلمة؟هل أحطت بكنهها في قول الله «إن في ذلك لعبرة»، وقال: «فاعتبروا».

قلت فورا:

- اتعظ....

ابتسم لك قائلا: «يا ولدي هذا تعريف الفقهاء السطحيين الذين يمرون على أسطح المعاني دون قدرة لهم على الغوص إلى باطن الدلالة»، وأكمل: «اعتبروا: أي جوزوا واعبروا مما ظهر لكم إلى

معنى الباطن، وتذكر أن قوالب الألفاظ والكلمات عند العارفين لا تتحمل معاني الحالات!».

نظرت بعمق مرة أخرى إلى متسع الصحراء، هزتك الآية الكريمة «اخلع نعليك»، فخلعت حذاء الدنيا، وشعرت لأول مرة بإحساس تراب الأرض، حررت القدمين من إرث فكرك المقيد، وشققت الصفحة الصفراء إلى العمق، كلما أوغلت في الدخول، أوغلت روحك وذاتك في الخروج إليك، كان الوقت ظهرا والشمس ترمقك بانتظار وكأنها متفرج على مسابقة اعتادت على متباعتها وفي رماح أشعتها سؤال:

- هل يستطيع الصمود؟ هل يستطيع الوصول؟

لم تلتفت إلى الوراء، ولم تستجر من رماحها، أكملت وفي ذاتك روح الله ومراتب القرب إليه، بدأت الجبال تستقبلك بصغارها، تمر بقمم صغيرة حتى وصلت إلى ذلك الجبل المهيب.

بجوار الجبال تصبح كل الأشياء قزمية، كنت نقطة ضئيلة بجوار الجبل وأنت وكل جبال الصحراء نقاط ضئيلة في ملكوت الله.

أخرجت ما في كيسك، «خُرقتك» من الخيش، خلعت قميص وبنطال الدنيا، لأول مرة تتعرى في الفضاء هكذا، كما ولدتك أمك، تفتح ذراعيك وتدور، تسقط دموعك وينعصر صدرك فتخرج صرختك المكتومة ممزوجة ببكاء يجرف صدأك:

- يا اللـلـلـلـلـلـلـلـلـلـلـه..

التقفها فم الصحراء وراحت جنود الملكوت ترددها.

«اللللله / لللــه»، هي صرخة المولود حين يشـم هـواء الدنيا، وصرختك هي صرخة العائد إليه حين يشم هواء القرب.

ارتديت خرقتك من الخيش، شـعرت لوهلة بخشـونة خيوطها، حفـرت في الأرض ما اسـتطعت ودفنت بقايـاك الدنيوية، قميصك وبنطالك وملابسك الداخلية، لملمت كومة تراب فوقها على شكل قبر وكتبت على نعومته متحديا رمح الريح:

- هذا ما كنته!

أكملـت السـير وفـي القلب حمـاس القـرب، وفي العـزم بداية الرحلـة، والوهـن بعيـد، في اليـد ما بقـي من مـاء تسـتنجد بقليله، والقرب والوصل والمعاينة غايتك.

كنت تشـعر فـي البداية بـأن الماضي والذاكـرة صافية وواضحة تذكرك برياض السياسي الكبير، فتنبني أمامك حوائط من ذنوبك.

تعيـد إليك تجربة مقابر الغفير، تجعلـك في مواجهة مع موتك الأخضر الذي مته الآن ودفنته حين خلعت عنك لباس الدنيا ولبست الخرقة، واقتصرت على ما يستر العورة وتصح به الصلاة.

أنت الآن على بداية مدارج الرقي، فلتجتهد إذن في إنارة هذه النفس لتكون كما قال الشافعي: «ثوبك ليل تحت ظلمته الشمس».

لتكن ذاتك التي تحت خرقتك شمسا بدلا من أن تكون ملابسك وأناقتها شمسا تحت نورها الدجى والظلام.

عليك أن تستحضر أكثر أيام مقابر الغفير بدلا من أيام السياسة والمناصب، حين جربت حياة الاحتقار والمهمشين وأذى الخلق، ارحل بقصد خارج عالمك المادي الفاني، وادخل إلى حضرة الحق، يتجلى الله على قلبك، ألم تسمع بحديث الله القدسي: «ما وسعتني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي المؤمن»!

***

أنت الآن أبعد، تحاول أن تمد وعيك الحالي بأولى محطاتك، بتلك الغرفة الضيقة ذات النافذتين المتناقضتين في البيت الضيق المتهالك في القرية النائية البعيدة، يااااه! ثمة ضباب يكسو عدسة وعيك المستعاد، تغمض عينيك بوهم التركيز والاستدعاء، فالضبابية أكثر، لأول مرة ليس في القلب غصة ألم التذكر، لأول مرة تشعر بحياد المشاعر، ثمة مكان في الذاكرة تم إخلاؤه من ضغينة ووجع، كأنه ليس لك، أو كأنك لست منه. الأماكن رهينة بما نبعثره عليها من مشاعرنا وأحاسيسنا، وحين نفرغها من تلك المشاعر أو نشد فتيلها تصبح مجرد حوائط وأركان خاوية.

تُصر على البعد أكثر، تواصل السـير عكس جهة المجيء،ترسم علـى الأرض خطوطـا وتثبـت فوقهـا أحجـارا تنتهي برأس سـهم لتهتـدي إليـه إن فقدت بوصلتك؛ فالفضاء أوسـع، والقلب لمّا يزل يهاب جلال الحال.

إن تهـت سـتعود إلى قبـر مَنْ كنتـه، القبر الذي يحوي أشـياءك، ملابس الدنيا، عندها ستعرف نقطة الرجوع.

مـا زال القصـد منقوصـا والنية في القـرب مؤقتة، ترسـم طريق الرجـوع قبل أن تبدأ رحلة القرب، تصادر على حق الله في قبولك، ترسم طريق الهروب قبل المواجهة.

مـن قال لك إنك لن تنتصر في معركة القرب، ماذا يضيرك لو لـم تفلـح في العودة وتتوه، إن قبلك الله فسـتكون قلبـه الذي يبصر به، ويـده التي يبطش بها، يااااه! تخجل كثيرا، تضرب برجلك الأحجار المرصوصة على شكل سهم، تصرخ:

- القرب، القرب، يا اااااللله!

تسير باكيا وأنت تتذوق مسحة ما بقي من قنوط، تكره ذلك الذي بقي فيك ممن كنته في الماضي، السياسي المتذاكي مع الله.

مـا زلت غير مؤهـل للقرب وأنـت تتعامل مع اللـه وكأنه رئيس دولة تطلب قربه، وتحتاط إن رفضك كيف سيكون الرجوع؟

مـا زال قلبك ضيقا خلعت مسـبحتك من عنقك ورحت تشـهد حباتهـا الألـف على ندمـك، تـاركا حبلها خلفك يرسـم خطا على الرمال يداري أثر قدميك.

كأنه يمحو الأثر بقصد.

كانـت أسـماء الله ترن فـي الفضاء حتى انقطعت عن سـماعها، ورحـت تسـمع صداها فـي داخلك، في صـدرك الذي شـعرت أنه أوسع من صحرائك هذه، ازداد الوهن، تعثرت الأقدام، ترنح البدن الفانـي، ألقيتـه غير مبـالٍ ولا مهتم، رميتـه على صفرة وبـرودة هذا التـراب في فجر صحراوي مندى، فرحـت كثيرا حين تخلصت من هذا الجسـد، رحت تردد بأصوات غريبة بقيـة أورادك التي حفظتها وأنت تواصل السير، تردد وتشعر أن ثمة «كورس» يردد خلفك.

الصحـراء كلها، بل الدنيـا كلها، جيوش تسـير خلفك، توقفت فجأة حين اقتربت من القمر، اكتشـفت أنك تسـير بشـكل عمودي صاعـد، تصعـد إلى أعلى فـي اتجاه القمـر، انتشـيت وانتابك ذلك الإحساس في الترقي والصعود.

حالـة الفـوق، تجعلك ترى الأشـياء كلها تحتـك، أول ما لفت نظـرك تلك الجيفـة المرميـة في الصحـراء، تحمل ما كان جسـدك بخرقتـه ومسـبحته، كنـت خفيفـا لا حـدود لـك، قريبـا مـن القمر

المستدير الذي كان يبتسم لك، يُحييك، كنت فوق الصحراء، فوق القاهرة ومقابر الغفير والزمالك ومصر والدنيا كلها.

في داخلك شيء يحضك على الصعود، وصدرك مشحون بالفيض والمدد تردد أورادك التي لم تكفِ فجاءك مَنْ فتح ثقبا صغيرا في صدرك وراح يدلق فيه بعضا من حروف وكلمات، رددتها، كانت خليطا من تسابيح ودعاء واستغفار، كلمات بحجم الملكوت والروح القدس وحفظة عرش الرحمن وقُدس الأقداس وأسرار الجنة وسكانها، عطشان أنت وجائع، ولكن ليس كالجوع والعطش الماديين.

أحاسيس غريبة تغزو تلك الروح المستجدة في القرب، كلما تعلو تمر أمامك أرواح كقناديل البحر، نورانية هلامية تحييك وتغادر، تنسيك عوزك لما تحسه من جوع وعطش، تشم رائحة تغزوك، تدخل إلى مسام روحك، توسع أركانها وتنثر فيها رذاذا أزرق كأنه تحضير ما لشيء قادم، هم يكنسونها، يطهرون أركانها، ويفرشون فيها زئبقا و قطيفة زرقاء وحمراء، ألوان ليست هادئة جميعها متطرف في السخونة وفي البرودة. منمنمات من المستحيل أن تصنعها ماكينة الغزل في أرقى دول العالم، منمنمات تتشكل مع كل نظرة، هي إذن روحك التي أخرجتها هذه القناديل من لعبكتها وراحوا يعيدون فردها أمام عينيك، أنت تراها تُصبغ من جديد، «ومن أحسن من الله صبغة».

بعدما فردت واكتسبت لونها الجديد الذي كان خليطا من الحمرة المزركشة والخضرة المتداخلة مع الأزرق في الحوافي المُنتهي إلى بنفسج يتماوج، يتداخل جميعه فيأخذ الأحمر مكان الأزرق والبنفسج يقتحم الوسط، كان لوحة غريبة تتشكل أمامك.

راحت تلك القناديل النورانية تدلق على روحك ماءً من قوارير متراصة، وكلما تشرب تلك الروح من قارورة تتجلى أسماء الله الحسنى فوق اللون، وهكذا سكبوا كل القوارير واحدة تقطر لبنا وأخرى عسلا مصفى، وثالثه سائلا أخضر، ورابعة أبيض كلون الثلج، وهكذا، شعرت في المنتهى أنه لم يعد لديك أي إحساس بشيء تشتهيه، ولم يعد يغزوك عطش أو جوع.

اكتفيت، ولم تمت، ذقت فعرفت، جربت فأغمضت عينيك على لهفة أخرى في اللقاء، مرت عليك رائحة خاطبت لونا معينا في ألوان روحك الجديدة، قالت لها هي من سيدنا إبراهيم، ثم مرت رائحة أخرى تحمل بصمة سيدنا موسى، وأخرى حملت أخبارا خاصة من سيدنا عيسى، كنت تمتلئ ومع الامتلاء تنتظر، بقية الأسماء، يا حبيبي يا محمد!

هددتك القناديل، دون حديث فسرته لك روحك، بأن الطريق طويل، وأنت في أول المنازل لم ترتقِ بعد لتلك الدرجة، التفّت سجادة روحك على نفسها وراحت تتنهد بأسماء الله الحسنى،

دون أن تتوقـف عنـد لفظـة الجلالة التاسـعة والتسـعين، بل راحت تردد آلاف الأسماء الحسنى.

***

ما عدت تعـرف الحالة التي بين اللونين، صفرة الصحراء وزرقة السـماء وبهـاء أجنحة تهفهف إلى أعلى، تبغـي الارتقاء إلى حضرة المراقبة، تتجلى وجوه تخطف إليها كامل إشراقات روحك، تنشغل بتلك الطلة عن تحقق مكانهم.

هل يفترشـون متسـع الصحراء فينحازون إلى أحوال ذلك اللون الأصفر، أم إنهم يحلقون مثلك في لألأة اللون الأزرق؟

مراتـب للنفـس وللوجود، هيام، ذوبان بين الاثنين، تندفع شـاقا شعاع اللونين نحو مصباح بهاء الوجه المتجلي.

لأول مرة تراه يبتسم، إنه شيخك!

قـال إن قيـودك تنصهر، وبصرك ينجذب صـوب مقام حديديته، «وبصرك اليوم حديد»، صدق الله العظيم.

رددت بلهفة من ذاق: «قطرات الإشراق تنز والروح ظمأى».

قـال ولسـانه صامـت، وفمه مبتسـم، ونورانيـة نـوره تخرج في موجـات صوب الوجـود، فيعكسـها للمـدى الممتد علـى اللونين الأصفر، حيث سلمة القرب الأولى، والأزرق بدايته.

وصلك من بوح خفي، علني و متشابك في ريش أجنحة المراقبة بأنك تصعد على أول «بسم الله» مجذوبا بحرارة سكرة الرب.

- اقترب...

ووهجه أيضا يقترب...

وأجنحة الصفا على مدارك قلبك تهفهف فتقترب...

تقترب..

لمس يدك، أمسك بطرف أناملك، انصهرت، فتكسرت مغاليق وصلك بالمرتبة الأعلى، فارتقيت سُلمة أخرى في القرب، غادرت اللونين، نسيت شعاعهما، غطست في لون آخر أو لونين لا تعرف شيئا عما أنت فيه، سوى أنك أصبحت أخف، أو أنك حلقت أعلى، أو أن قطرات الإشراق تزيد، تحوم حولك لمحات وشوش من نور.

تلتفت إلى شيخك، كان وجها فقط، محض وجه بلا كتفين ولا عنق، بلا تفاصيل للعينين وللأنف وللفم، هيام في إشراقة وجهه.

أنت في حضرة المراقبة، فاثبت وكن على مستوى حذر الله في القرب، أنت قريب من مكمن الأسرار، حولك إشراقات أو نتف من إشراقات العرش.

مذاق القرب يغني، يفضي إلى سكينة وعشق وسكرة التحليق صوب عتبته، مشغول بحلاوة ما أنت فيه.

يقول لك: «الارتقاء عبر مراتب الوجود يأتي عبر ترك المادي، كلما ارتقيت درجة زاد التجلي في باطنك، حتى تصل إلى حد الفناء، وفيه تنقشع الحجب، ويصبح البصر بصيرة».

تلفت بعيدا عن وجه شيخك المشع، تكثر وجوه مَنْ يبعثرون تحاياهم عليك، شارات، نغمات تقترب من تراتيل، تفهمها، هي إذن لغة المرتبة التي أنت فيها، تقول بعضها: «أنك تقترب من نار موسى، حيث دهشة القرب والمشاهدة والرؤية لكنك مخلوع من ماديتك، فلن تسقط مغشيا عليك».

تقول إشارة أخرى: «إنك تجاوزت قسوة نار إبراهيم، بل إنها مستأنسة لك كما استؤنست للنبي، هي حولك فقط لتحرق ما بقي فيك من أسمال بشريتك، تصهر حبالا تثبتك بالأسفل، تحول دون معراجك صوب مراتب الكمال».

يعيدك شيخك إليه من جديد: «وإذا وصلت إلى حالة الفناء تلك تكون قد استيقظت من الحياة التي يعيشها الإنسان العادي، هي يقظة من الحياة في عالم الصور، كالصور التي تتراءى للنائم في أحلامه فيظنها حقيقة ثم يستيقظ فيكتشف أنها أوهام، والناس نيام فإن ماتوا استيقظوا...».

غارق حد الوله بما أنت فيه من فيوضات القرب والكشف.

تـدور بـك دورات في الملكـوت، تأتيك إشـارة أخـرى: «إنك غادرت ظلمة يونس، ترى أعمدة، كل عمود يسـبح باسـم حرف من حروف لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين».

تحوم بك إشارة أخرى في تحويمات غير مكتملة: «خرجت من جُب يوسف وجلست على الكرسي».

وأخرى تحييك بروح نوح تقول: «نجوت، وطفت سفينتك فوق لُجج الغرق بالعطش».

أوقفك شـيخك وسقاك لبن الناقة، تشـعر به يسقط فوق حواف الروح الظمأى، وحياك بتحية صالح!

أوقفـك، قربك، قادك ومن حوله قناديل الرحمة تهفهف نحوك، وضـع يدا على ما قـد تتخيله فيك أنه قلبك، فـكك مغاليقه، صحح بصر البصيرة، وقال لك: «هذا مقام الأنبياء فأبشـر بالقرب»، دفعك بحنو إلى أعلى، سلمك إلى سلمة أخرى على مدارج القرب وقال: «اصعد فها هو سيد القرب محمد»، فأخذتك أجنحة من نور صوب الأعلى، فنظرت إلى كل مقاعدهم، بحجم كون الله كانت.

كلمـا تقتـرب، تصهـرك السـكرة، وتنجلـي سـرائر المشـاهدة، تهفهف رايات الإرشـاد، تضـاء مصابيح فتوحاتك، تنز من سـقفك

الأعلى نفحات عرشـية، تأتيك بحبوحة التعيين، تنصهر أكثر، فتحل فيك ومضاتُ الكشـف، وتسـكن في مرتبة المعاينة، تفنى، تتحقق، فتفنى، فـ...، فيتأكد فناؤك.

***

فـي صباحات الصحراء والفيافي، ندى القرب أحن، وماؤه أكثر إرواءً مـن الماء المـادي، تُهفهف فوق كهفك الـذي اختارك ليكون قبر المعايشـة الذي يحتويك، تُهفهف عصافيرُ الله وتسـبح، تبتسم لها وتُكمل تسـابيحها بجمل قاطعة للعشق في الله: «ذوبي وسلمي على ملائكة الأعلى!».

تتسـع خطوتُك فتضيق أمامك، مهما اتسعت، مساحاتُ الكون، فتخطـو نحـو العمق؛ لتسـمع تراتيـل مخلوقـات الله، فتفـرح وتنز دموعك.

تخطو نحو الأطراف، يخنقك أثير داكن من أرواح الناس الموتى في خـارج دنياك، المشـغولين بدنياهم، المهروليـن صوب الوهم، الراكضين أمام الدنيا تلسعهم بكرابيجها فيجرون جري الوحوش.

حفيـف أرواحهـم الآتـي من خـارج ملكوتك فـي الوصل يكتم مسـام صـدرك ويُعكـر مرآتـك، فتخـاف إن تعكـرت تلـك المرآة فلا ينعكس عليها الله حين القرب.

تعود وقد عرفت وهمهم بأنهم أحياء وهم موتى.

تعود وقد عرفت أنك بعد أن وصلت للفناء ستكون قد أصبحت عارفا، والعارف يعود من الفناء، ولكن إن عاد يظل في حالة اليقظة، أي لا يعود إلى الحالة التي يحياها غير العارفين، وبذلك يظل الحق معه.

تعود وقد عرفت: «أن الكلام يأتي من الذات، والقول من الصفات، فالله حين تكلم مع موسى كانت ذاتُ الله العليا هي التي تكلمت؛ لذلك خر الجبل صريعا، أما القول، قل كذا، وقل كذا فكانت صفاتُ الله وأسماؤه تتكلم».

تعود وقد عرفت: «أن الوجود ما هو موجود وتراه وتعلمه حتى لو لم تكن تراه.

والإيجاد هو الإظهار، أي نقل الشيء من حالته العدمية إلى حالة مُدركة، وهنا يتجلى قول الله: ﴿ إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾.

تعود إلى كهفك مشغولا بماء وجود الله فيك، فأنت قطعة ثلج ماؤها الله، فماذا تنتظر إن ذابت قطعة الثلج هذه؟ حتما ستعود إلى مكونها وأصلها، تعود إلى الماء، إلى الله، فحين اقتربت وصهرتك نارُ الوصل عدت إلى أصلك، عدت إلى روح الله التي تسكنك.

فرشت على صفحة صغيرة من صفحات رمال الصحراء ماضيك، حاولـت أن تتذكر ما كنته، كانـت خزينتُك فارغةً إلا من الله فقط، فتشـت في قلبـك، كان الله والله فقط. ذهبت إلـى جوارحك فكان اللـه والله فقط، دعوت، همسـت له، هل في ذكرى الماضي شـيء يُسعد غيرك؟

سـألت فقـط ووقفت بأدب عنـد حد السـؤال دون التجرؤ على الانتقال خطوة واحدة صوب الإجابة؟

***

- لو اقتربت مني وسّخت ملابسك وسيرتك.

رمتها كوكو في وجه الشـيخ زوزو وأزاحـت وجهها في الاتجاه الآخر، مغلقة عينيها بشـالها ونيس القهـر، أغلقت به فتحتي عينيها، وكأنهـا تغلـق فوهة بركان لتحمـي الأقربين لها مـن حممه ودفقات حرائقه.

أراد الشـيخ زوزو أن يؤسـس لضحكة فهدم الأساس وسقطت الضحكـة علـى أول عتبـة لها عنـد حنجرتـه، تحولت مباشـرة إلى تنهيـدة حزينة معجونة بحبل سـميك يلف أيامـه الخوالي، فلم يجد تلك الأيام أنظف من أيام حبال كوكو التي تكتفها.

- ملابسي وسمعتي يزدادان نظافة بالقرب منكِ!

أدار ناحيتهـا طبـق وجهه الذي كان موجها إلى صفحة السـماء، دارت مآقـي عينيـه دورة كاملـة فـي بياضهـا، ظهـرت حركة سـواد العينين في متسـع البياض كحصان هائج مربوط في حبل يجعله إن تمرد التف الحبل عليه، وكأن مآقي العينين تبحث عن شباك يقودها للنور، تمنى أن يرى وجهها في لحظة الاعتراف هذه.

- بلاش كوكو، نادني باسمي، كريمة.

- بلاش زوزو، نادني باسمي، زاهر.

حيـن طلبـت منـه ذلـك انتابهـا يقين بـأن على حروف وسـجع وشاعرية اسمها «كوكو» وسخا يكفي الإساءة لبياض العالم أجمع، رأت ذلك الاسـم عنوانا لسـجنها، هو بديل مكانها الذي دخلته منذ انجـرار اقدامها صوب وحله ووحل الطريقـة و وجع المنتهى على مقصلة الاغتصاب.

تمنـت كما يتمنى كل المحكومين بسـجن الحال واعتقال القدر ومروق المسـار، تمنت وأخذتها شـطحات الخيـال صوب التحرر والانعتاق البريء.

وأول خطـوات الانعتـاق أن تعـود إلـى ما كانتـه، إلـى كينونتها الأولى، اسمها، حقيقتها.. كريمة.

تعـود إليه بمعناه وجلاله، تهرول فوق سـجادة مرادفاته، عزيزة، طاهـرة، وحميـدة، تعود وفي طريق عودتها تمزق أوشـحة سـوداء،

تـارة للذل وأخرى للقهر والسبي والخطيئة، ونجاسـة المحرضين والموسوسين لها.

تغـادر بفـرح محطات اسـمها وسـجنها «كوكو»، تـردده بلحمة لسانها وكأنها تسمعه لأول مرة: «كو... كو».

لم تفهمه، لم تجد معاني تولد من نغمات الحرف، أربعة أحرف، كل حرفين شكلا عتبة للقهر، «كو» الأولى عتبة الدخول المستريب، عتبة الغواية والحَنجلة التي تنتهي برقص معيب.

أمـا «كـو» الثانية فكانت عتبة السـقوط حد الغرق فـي الخطيئة، لكنهـا تأكـدت أن واوهـا الأخيرة التـي كانت منحـدرا للاغتصاب ستلقي بها بعيدا عن عطنها!

التفافةُ واستدارةُ الـ«واو» في «كو» الأخيرة أعادتها إلى ما كانته، إلى اسمها وكينونتها الأولى، كريمة.

أمـا الشـيخ زوزو حيـن وقف علـى مصطبة الفصل بيـن «زاهر» الاسم الذي كانه وارتداه منذ ولادته، وبين «زوزو» الذي ارتداه منذ أن رُمي في مقابر الغفير يرى نفس ما رأته كريمة.

يتأمل الأحرف الأربعة «زو... زو»، فيجد نفس العتبتين، الأولى للفهلـوة حيث الدخول إلى سـيرك الدنيـا، ثم اللعب علـى حبالها متحاشـيا التفـاف تلـك الحبال حول رقبتـه، فيتوهم لفتـرة أنه نجح

حتى يكتشف أن أسنان الحبال قد غاصت واستقرت في كل جزء من لحم الرقبة.

أما العتبة الثانية فكانت للرضوخ والركوع والاستسلام أمام سطوة الدنيا، تلك المومس، العاهرة، التي تستخدم عشاقها قوادين لها بعد مص رجولتهم!

لكنه حين غادر صحراء وجدب تلك الرحلة، واقترب من الانعتاق، رأى سفينة اسمه الأول «زاهر»، رآها تتأرجح فوق طيات الزرقة الأبدية، تتلألأ في سحابات النور، كان «ز» الزال زوالا للمحنة و« أ» الألف انتصابا للظهر المكسور على خشبة قهر الأخ وأحجار اليتم، أما الهاء فكانت العودة إلى كينونته، واستقرارا في مقام العائدين؛ لتصل إلى راء الراحة والرضا.

هي إذن أسمال بالية خلعها الشيخ زاهر، وفتح فم القبر الذي جاوره طوال تلك السنين وألقى بها، دفنها، ودفن معها سر تلك الأيام مع إدراكه أن طعم مرارتها غير قابل للمحو.

حين أراد أن يلملم أشياءه ابتسم، فلم يجد شيئا واحدا يصلح لأن يأخذه معه إلى بيت أبيه، إلى مستقره الأخير بجوار شقيقتيه خديجة وعائشة، بجوار حسين ابن شقيقه الذي أراد أن يكون عكس أبيه، غير وارث للظلم ولا لقهر الأقربين، فمنذ وفاة أبيه الحاج عبد الحميد أعلنها صراحة لعمه الشيخ زاهر: «حقك موجود، وبيتك موجود».

لذا أراد الشيخ زاهر ألا يأخذ أي شيء معه، سواها هي، كريمة!

لـذا قالهـا بـلا أي مقدمـات، وبـلا أي مـزاح اعتـاده فـي محطة الفهلوة:

- تتجوزيني؟

وهـي أيضـا ردت بإقـرار المعتـرف بذنبـه، المنتظر وسـاطة مَنْ يحظى بغفران الرب وتوبته:

- تتجوزني وانت عارف اني رقاصة وخربشة أظافر من اغتصبني لم تجف بعد؟!

كرر طلبه وألح، بكى وحيد أمامها وأصر.

قال الشـيخ زاهر: «سـنغادر بعـد أن ندفن الماضي بـكل ما فيه، سـنُغادر إلى أرضنا الجديدة، أرض للميلاد وليسـت للموت، نغادر إلـى بيت وليـس إلى قبر، سـنترك كل مـا أحزننا هنا فـي قبرنا الذي أجبرنـا علـى القبول بـه بيتا، هناك يتأسـس بيت لشـيخ اسـمه زاهر وزوجة له اسـمها كريمة وابن لهما اسـمه وحيد، ومعا ندفع تروس الحياة للدوران بعد أن توقفت كل هذه السـنين، نزيل عنها صدأها، ونُجلي صدورنا من كفرها ونبدأ من جديد»..

***

حين حط خبر مغادرة زاهر وكريمة على مقدمة رأس حياة أخذتها رعشة المستريب والمأخوذ بمس الفرحة والغربة والخوف والحزن، مس المتناقضات حين تعجز عقول المبتلين عن تفسيرها.

- كريمة تتزوج زاهر؟!! كريمة وزاهر ووحيد يغادرون المكان؟!

نظرت محل جلوسها «كنبة» باهتة، فرش متآكل، قبر هامد، رائحة لا تتغير، رائحة العفن، لا شيء يتغير، وهي كما هي، وحيدة، يتيمة وحزينة.

لضمت آخر طرف لعقدة حبلها بأسماء مَنْ غادروها، درديري غادرهم جسدا ممصوصا يبخ دخانا أزرق معبقا بالحشيش، وبقي معهم جسدا متكوما في قبر.

علي منولوج اختفى بعد أن قبض على جرحه وولى وجهه شطر اغتراب جديد، وهرب دون أن يسمح بسلام أو دمعة للوداع.

حسن أبو علي، أخوها الذي تحول، تبدل وأصبح شخصا آخر بعد أن انصهر بين حشود الميادين، وحشر في قالب لا يؤمن بالفروق، ويعث على وقع نغمات ثلاث: «م، ص، ر».

من لحظتها كسر سجن عزلته، غادر مقابر الغفير إلى بلاد الله الواسعة، متخليا عن حقده صوب الخارج، لم يعد يحمل أحدا أزمة ما فيه سوى نفسه، واندمج.

تلك آية العائدين إلى جنينة صدرها الحنون.

أمـا رياض، الذي تمنت أن يكون سـفينتها للنجـاة، وخِضرها.. الخِضر الذي يُعلمها حتى لو لـم تطق معه صبرا، سـيكون مَنْ يخرق سـفينتها لتنجو، ومَنْ يبنـي جدارها ليحفظ كنزهـا المخبوء، ويقتل طفل نزقها ودلالها ومروقها، لكنه..

غادر على أجنحة الخِلـوة، وخيول العرفان وتبتلِ المُقر بما فيه، السـاعي صوب القُرب، من أراد أن يصل وينكشـف له ستر العرش ويذوق ليجرب ويعرف.

لم يبقَ في مفكرة أسـماء رحلتها سـوى شطة، بكل مذاق الاسم من لسـع في اللسـان، وحرقة في المعدة، وانتصاب في دم العروق، يتيم مثلها، يحتاج إلى أن يأخذ أكثر مما يعطي.

- يااااااااه!

أطلقتها صرخةً برية تزغرد في فضاء المكان المُوحش!

هنـاك من غادر المكان ليحيـا، هناك من بقي فـي المكان ليتأكد موتُـه، والجميع قرر أن يغـادر، أن يترك منطقة بينه، أن يخلع قميص رماديتـه، يقفـز مـن مربـع الاشـتباه والتداخـل بين المـوت الموت والحياة الحياة.

درديـري انحـاز للموت الذي تمنـاه، زاهر ومعـه كريمة ووحيد انحـازوا للحيـاة، وعلـي ورياض غـادروا المـكان تاركيـن الحكم مرهونا باستقرار الحال وثبات المآل.

أما حســن فهو الذي يوازي حالة رياض في الانحياز بعد التطهر بالغوص وسط المغايرين له، كاسرا سجن يقينه الخطأ.

لـم تُطق حياة الثبات على الحال المقلق، وقفت، نفضت ما علق بثوبها من يأس، استدارت صوب بابها الهش، أزاحته، خرجت صوب الباب المجاور، حُوشـة رياض، أدارت المفتاح في قلب «الكالون» الصـدئ عله يُخرج نغمة غائبـة للانفتاح على وهج المفاجأة وتجد رياض جالسا على سـريره، يهش بمنشته ذباب القنوط، وينفخ غبار الإصرار على الموت.

ربمـا تجـده وقـد شـفيت ذراعـه، وتحركـت أصابعـه الخمس بتسـابيح جديدة للذكر، أو تجد قلبه قد أنبت شجرة جديدة، قطوفها دانية، كتلك الشـجرة التي زرعها حين ضخ ببعض ماله دماءً جديدة في قلب وحيد.

لكنـه الفـراغ المركون علـى ناصيـة الإهمـال، أدارت عصافير عيونها في كل ركن، كل شيء كما هو، السرير والمقاعد البلاستيكية البيضـاء، بقايا المرآة المشـروخة المغروسـة في لحـم الحائط فوق

صنبور الماء الصدئ والحوض المكسور، كل شيء كما هو، هامد، صامت، لم يتغير سوى أن صاحب المكان قد اختفى وغادر.

استرجعت كل محطات العِرفان والقُرب منذ وصوله الأول وحتى نجاته من إصراره على قتل نفسه وتطهره بالمرض وبالانصهار في ديمومة الغلابة والمطحونين، كل شيء يمر بكامل بهائه، بلا أي تغير أو التباس، الصورة واضحة، «إريال» الزمن مضبوط على الانكشاف.

تتشابه الأحاسيس حين تستحضر روح أبيها الذي فارقها موتا، وروح رياض الذي فارقها اختفاءً وزُلفى صوب الرب.

مرارة في الحلق تزيد، انعصار في عظمة الحنجرة، وإغلاق لشبابيك الصدر على عصافيرها المسجونة منذ سنين، تبكي...

تبكي...

لأول مرة تشعر أن الدموع لا تتساقط من عينيها، بل تنز مباشرة من بؤبؤ قلبها، تخر من منافذ جدران القلب، إسفنجة كان، تعتصره المواجع، وتمصه مرارة الحال، كان خرير القلب مريحا لها، ارتمت بكامل نزقها على سريره، تاركة مثلثات مفرش السرير على الحواف، ومتمددة داخل البرواز الأزرق في المنتصف، تذكر أنها ذات صباح وفي غمرة اشتهاء المرأة للرجل، ضمت إلى صدرها وسادته، شمت رائحة عرقه، وراحت تداعب حالها لتهدئ سخونة ما بين فخذيها،

وقتهـا أغمضت عينيها، جمعـت حزم خيالها صوبـه، ضاغطة على وسادته، متخيلة رخام جسده فانهمر ماؤها واستراحت.

من وقتها لم تدخل حوشـته يوما ولـم تختلِ بنفسـها على سريره إلا وتحركت سـحبها وسـقط مطرها وابتلت عروق نشوتها مصبرة نفسها لحين مجيء الغيث الأكبر يوم الجمع.

أغمضـت عينيهـا علـى قلـق، وفقـد، وانزيـاح الجميـع صوب محطات الخروج وبقائها وحيدةً على محطة اليتم الأبدي.

تساءلت عن شكل مخرجها، تراه كيف سيكون؟

على أي حصان؟

في أي عربة لقطار مجنون؟

***

ما عـاد وحيد يخاف ويتأنـى حين يفترش الأرض أمـام «طبلية» الفـول كما كان سـابقا قبل إجـراء العمليـة الجراحية وغلـق الثقب المتمرد في القلب.

طلب من شـطة هـذه الليلـة أن يضع مزيـدا من الشـطة، وحزمة كاملة من البصل الأخضر: «نفسي مفتوحة النهارده».

قالهـا وحيد وفمـه مملوء بلقمة مغمسـة بالفـول ورائحة البصل وبهجـة الخـلاص، قـد لا تسـعفه الملكـة والفطنـة والقامـوس في

شـرح وتبرير حالة فرحتة وسروره، لكنه الإحساس في أنه سيغادر، سيتحرك، سيبدأ حياة جديدة حتى لو كانت أصعـب مما كان عليه وعاشـه، وكأنه أراد أن يؤرخ لحال بين الحالين، الموت أو الحياة، بـدلا من الوقوف في الوسـط بين الحياة وبين الموت، جلس شـطة حزينا: «يعني هتمشي، هتسيبني لوحدي؟».

شـطة ينظر إلى وحيد علـى أنه رفيق اليتـم، والحرمان، وجحود الوالدين.

وحيـد لقيـط المـكان الـذي آواه، لُقية زاهـر حين رمتـه أمه بين القبـور، وحملـت عارها ووزرهـا وغادرت، وشـطة لقيط الظروف حيـن لم يجد سـوى حنين ورحمة حياة بعـد أن تركته أمه واختارت زوجها.

- خدوني معاكوا!

قالها وهو يعي كل حرف بها، وكل حال عليها قلقه، بل أضاف أن يأخـذوه حتى لو عمل خادما لهم في بيتهم الجديد، هو يريد القرب دون السقوط في شكلانية ما سيكون عليه ذلك القرب.

انتبه وحيد لوجع رفيقه في اليتم، تعثرت اللقمة في الحلق، وهدأ اللسان وراحت الأسنان تدور عكسا إلى البطء، ظل يمضغ في تلك اللقمة حتى دفعها عنوة صوب الداخل، وهدهد شطة.

تراجـع عن مائدة الفول والبصل، تناول العود رفيقه في التنفيث، ولسـان حاله إن عصيه اللسـان، ضمه إلى صدره، سـحب الريشـة، أدار وجهـه، قرب أذنـه من تجويفه الخشـبي، وراح يكمـل ترنيمته التي سقط مغشيا عليه وهو يحاول ركوب نغمتها:

- إن تجودي فصليني...

وقتهـا حين كان يجمع دفقاته صوب جدران قلبه، كان ثقبه يتآمر فتهـرب، لكن هـذه المرة كانـت الدفقات محاصرة، لا تجد سـوى جدران القرب ملاذا، ودروب الحنجرة مخرجا:

- صليني.... صليني....

ورغـم تجلي وحيد وانخطافه وهيامه في دوامات اللحن والنغم إلا أن شـطة التصق بأرض الخيبة تعيسـا، باكيا وحدتـه ويتمه بدون رفيقه.

كانـت دوائـر اللحـن تلفلـف نفسـها، تحلـق صـوب مقهـى «متصبرنيـش» تداعب أذن حودة فنجان ومَـنْ معه، لكن وقْر آذانهم حال دون الاستجابة أو المشاركة.

مـا عـاد المقهى فوضـى الفـرح، ولا حفلة الشـيطان كمـا كانوا يحبـون أن يطلقوا علـى صحبة «الغُرزة»، الكل سـارح في بعيد ما، ينظر إلى شيء قد يجيء، أو أشياء قد تغادر.

لمـا انتهى وحيـد، كعادته حيـن يعود من على أجنحـة لحنٍ ما، يكـون خدرا، متأرجحا بين عالمين متناقضين، واقع وخيال، سـكن بُرهة ثم استدار، كان مدخل مقابر الغفير حزينا أكثر، متشحا بتربص للفتك والانفجـار، وكأن الجميع ينتظرون صرخة ممطوطة تشـرخ صمت المكان.

***

كالمجنون يهرول حسن صوب من تبقى في فرقة علي منولوج، ينادي بعلو صوته:

- الكل معزوم على فرحي الليلة.... مفيش تأخير...

ومَنْ يجرؤ على التأخر عن حسـن أبـو علي الذي أغرق الجميع في كرمه ومواقفه، هو ابن الجميع وعوضَهم عن قهر وذل الزمن.

قفزت الزغاريد من الحوشات كفراشات لكل لونها، وحجمها، وسرها أيضا.

كان صوت حسـن عاليا مبحوحا، يأخذ نفـس «تُون» هتافاته في الميدان، يريد أن يعلن للجميع أنه أسـقط ديكتاتورية حنفي شـقيق إيمان.

يريد أن يعلن للجميع:

- يسقط يسقط كل الخنوع والجبن.

لـم يقبـل أن يكـون زواجـا صامتا سـريا وهـو الذي ظـل رهين تحققـه، فكيـف إن جاء لا يحتفـي ويحتفل به؟ كيـف لا يملأ الدنيا صخبا وضجيجا وغناءً؟

هو الآن، وعلى قدر الحاجة، يرتب فرحا وزفافا لتكتمل الصورة أمـام النـاس، بعد أن اكتملـت بينه وبينها، بعد أن غرس شـجرته في أرضها ورواها بمائه.

لم تتسـع حوشـته لمحبيـه فامتلأ الشـارع الممتد، عـازف العود والطبال، الكل يصفق، بين الحين والآخر تخرج بحة لصوت متردد في الغناء لتلقي بأغنية وتعجز عن إكمالها.

ظهر حسـن بقميصه المتسخ وشعثه ممسكا بذراع إيمان بتنورتها السـوداء الطويلة، وقميصها الأحمـر الباهت، وحياة تتعثر وهي تنظر إلـى حلـم منقـوص، فرح بـلا فـرح، وزفة بـلا عريـس ولا عروس، بلا فسـتان زفاف وبلا بدلة سـوداء، بلا بهجة ولا شيء سوى القناعة بأن يتحقق جزء من الحلم أفضل من ألا يتحقق شيء على الإطلاق.

تـرددت، قاومـت دموعهـا، ثم صفقـت، رددت بعـض كلمات أغنيـة، ثم اندفعت تجـاه كريمة ليرقصا معا معلنيـن اقتراب وصول العروسـين إلى مخدعهما، ربطت كريمة وسطها متخلية عن قسمها بأنهـا لن تهـزه مرة أخـرى، أرادت أن يكون حسـن اسـتثناءً في كل شيء.

ظهر الشـيخ زاهر مختلفـا، منحازا إلى جديـة ورزانة لـم يعهدها القريبـون منه، لم يصفق، لم يطلق النـكات ولا الكلمات الخارجة، بل تقدم بثبات ممسكا بذراع وحيد مباركا لحسن وإيمان.

يومها فشل الجميع في التفريق بين إحساس دخول العروسين أو دخول جثتين إلى مثواهما الأخير.

قبل الدخول وقف حسن صارخا في شريط الزمن:

- اشهدوا جميعا.. إيمان زوجتي على سنة الله ورسوله.

لاحظ الجميع سحب الدموع تنهمر من عينيه ومن عيني إيمان.

حين انغلق الباب ظل فتات ما كان غناءً يتسـرب من بين شـروخ السـاحة العجـوز، لـم تكـن كلمات أي مـن الأغاني تتفـق مع وجد الحـال، وحضـرة منتهـى حلـم أرادوه فرحا فجـاء بتوقيـع: «هذا ما جادت به الأيام والأيام جاحدة وبخيلة»!!

مُواربا وجهه صوب قبر الحوشة قال لها:

- آسف كان نفسي اعملك فرح، كان نفسي تلبسي طرحة بيضاء وفستان!

موجهة فوهة عينيها صوبه، ماسحة بقايا كوكتيل دموع من حواف عينيها قالت له:

- أنت تاجي وفستاني الأبيض وأنت العوض.

ضمها إلى صدره وراح يتسلم من جنوده تقارير معركة خاضها منذ رأى إيمان مع أخيها، وقع على دفاتر تدوينه أن المعركة انتهت بعد أن تسلم مفاتيح أبواب حبيبته، واستسلم آخر جنود الأعداء، وقصفت أعناق ظالميهم على دفاتر المأذون.

إيمان زوجته، إيمان بين ذراعيه بعد أن تحررت، نفس الإحساس الذي اغتسل به حين رأى مصر في ميدان التحرير محمولة على أعناق ثوارها.

قالت له: «هيت لك، أرضي الآن خصبة، هذا أوان غرس البذور».

تشعر إيمان أنه ليس هناك ضمان أكبر من أن تمتلئ أحشاؤها بلحمة منه، هذا حذر الخائفين من سطوة جنرالات أخيها لو أجبروا حسن على تطليقها، وقتها لن يجبروها على إسقاط حسن الساكن كهف أحشائها.

ضرب حسن فأسه في خصوبة أرضها، غرس بذرته، ونام.

***

صباحا، وفي مركز الشرطة القريب، لم يعبأ حسن بهياج وصياح حنفي شقيق إيمان، قدم وثيقة زواجه إلى الضابط بثقة المنتصر، ملقيا نظرة شماتة عليه.

نظر الضابط بعد أن تأمل حروفها، وأختامها.

- كل شيء رسمي وعلى سنة الله ورسوله وما يريده القانون.

ازداد هياج حنفي مؤكدا للضابط بأن حسن اقتحم بيته في غيابه وخطف أخته ومعها مبلغ من المال.

انبرت إيمان دون أن تنظر إلى أخيها، حاكمها المستبد، المعزول:

- حسن لم يخطفني ولم يدخل بيت أخي.. أنا ذهبت إليه لنتزوج بمحض إرادتنا.

صمت حنفي وصاح الضابط محذرا إن تعرض لأخته وزوجها بسوء، وأخذ إصبعه ليبصم على تعهد بذلك.

حين استقر مذاق الهزيمة في صدر حنفي، صاح مهددا:

- ورحمة أمي لأقتلك يا حسن.

طلب حسن من الضابط أن يضم هذا التهديد إلى المحضر.

غادر الجميع كل في طريق، وحنفي ظل أسيرا لحقده الأسود.

***

تحسس الشيخ زاهر، زوزو سابقا، حقائبه القليلة التي سكنت مؤخرة السيارة نصف النقل، ثم مسح ببصيرته استدارة المكان

متمنيـا لو اسـتطاع أن يلملم أيام عمره المنقضـي، المبعثرة على كل شبر في مقابر الغفير.

أي شـاحنة تلك التي تتسـع لحمـل أحزانه حين فقـد بصره، أو لحمـل انكسـاراته حيـن داسـه قطـار عدم الحصـول على شـهادته الأزهرية.

مَنْ يتبـرع بجمع دموعه؟ ومَنْ يتبرع بجمـع ضحكاته؟ من يعيد دقيق عمره المبعثر هنا؟

يمسك بذراع حسين ابن أخيه الذي جاء خصيصا بسيارته ليحمله إلى بيته الجديد، هو يعرف أنه سيغادر، ويعرف أنه سيعود بين الحين والآخر ليسـقي أيامه وسـنينه الماضية حتى لا تجف وتموت، يزور رفاقه في الوحدة والانكسار.

لكنـه رغم إدراكه لعزيمته بأنها لن تثنيه يوما عن المجيء وزيارة المـكان وناسـه، إلا أن ثمـة في القلب غصة، وثمة فـي القلب وجع الفقد، وإحساس المودعين يسيطر على القلب وفي العين دمعة.

خرجـت كريمـة مـن داخـل الحوشـة، مختلفـة كانـت، ترتدي ثوبـا أسـود طويلا بطرحة ملفوفـة بإحكام على الـرأس، تغطي الفم مـن الذقـن والرقبـة، تشـبه نسـاء الصعيد فـي خروجهن وسـفرهن محتشمات حد الغرق في الثوب.

سلمت على حسين، وقفت بجوار الشيخ زاهر تطمئنه أن كل الحقائب تم تحميلها.

تنظر إلى متسع المقابر وتتذكر المجيء الأول لزيارة حبيبها المفقود، تحن إلى الجلسات الطويلة فوق قبره، تستغرب آفة النسيان التي سكنتها، أنستها ذلك الحبيب الذي بموته ماتت معه أشياء كثيرة، تمر أيامها وسنينها الماضية كقطار زجاجي ترى عبر عرباته مشاهد متتالية لما مر من عمرها.

استغربت حين لم تجد في تلك العربات المتعددة مكانا لفرحة أو انتصار، أخذت نفسا عميقا وأخرجته صوب الأمام، صوب قلق القادم، تتساءل عن عربات قطار المستقبل الذي ستركبه بصحبة زاهر ووحيد، وتتساءل عن المكان المقصود، تلك القرية التي ستسكنها والبيت الذي سيحتويها، وعن أناس قال عنهم الشيخ زاهر إنهم طيبون.

نفس القلق ظهر على وجه وحيد، الذي اختلف فقط أنه لم تكن لديه حياة تسبق مرحلة المقابر، وُلد وتربى وعاش هنا؛ لذا أحس أن أي فراق لهذا المكان هو فراق للروح الساكنة في أدق تفاصيله ونواصيه، لا يشعر كثيرا بفرق؛ فالصحبة واحدة مطروح منها صديق يتمه شطة.

اختبأ الشيخ زاهر خلف نظارته السوداء يلملم تلك الروح من البعثرة على لهفة مودعيه الذين اصطفوا في طابور ممتد يدثرونه بالأحضان والبكاء، تجاورت الصدور فسمعت دقات القلوب على نغم الفراق، وشخشخة الصدور المتعبة من الفقد، وتشنج العروق من ضيق الحال.

جاء حسن ومعه زوجته إيمان مهرولين، لم يرد الشيخ زاهر على مزاح حسن، بل انشغل بإزاحة حبات دموعه من السقوط.

وحين علا صوت بكاء حياة، قابلها زاهر بكاءً ببكاء بدا خافتا ثم تدرج في الارتفاع، فبكى الجميع.

اقتربت كريمة، ضمت حياة نحو صدرها، وعلت الجوقة الخلفية لبكاء الجميع، حتى دفع حسن الشيخ زاهر إلى كابينة السيارة، ثم دخلت بجواره كريمة ووحيد، وانطلقوا مسرعين، تاركين سحابة العفرة نهاية لذلك المشهد الذي يختصر حقبة من تاريخ ثلاثة أرادت الأقدار أن تلتقي مصائرهم في وجع هذا المكان.

***

- هل في ذكرى الماضي شيء يسعد غيرك؟

صدى السؤال حين أطلقته على أجنحة عصافير القرب ظل يرن في البعيد، لكن يقينك من الإجابة كان يُحفزك للحظة انتظارها.

رأيت الصفحة التي فردتها أمامك على نعومة تراب الصحراء الأصفر تأخذ تشكيلات لأشخاص وأماكن، تنعصر الذاكرة المملوءة بالله نحو الماضي، لا شيء سوى التسبيح والذكر وعدد من الأوراد التي لا تنتهي.

حدقت أكثر في تلك التشكيلات التي تتحرك أمامك على صفحة هذا التراب، كان وجه حياة باكيا، وحسن يقاوم غرقا ما، ينتظر من ينقذه.

أحسست برأسك قد ثقل، وتدلى، وعيونك غالبها النعاس، تخرج جوهرة منك، تقف بالقرب منك وأنت بينها وبين ذلك الجسد الغارق في النوم، تحتار إلى من تنحاز؟

لم تفكر كثيرا بعد أن رأيت جوهرتك ينبت لها ريش فضفاض فتهفهف نحو الأعلى، اندفعت نحوها، لبستك وعلوت وعدت إلى تحليقك القديم.

ألقيت نظرة أخيرة على جسدك الناعس، وتعمقت أكثر نحو الأعلى.

كانت ملائكة الله في منزلة القرب من الأرض فظننت أنك وقت الفجر، حيث يرسل الله ملائكته ينادون في خلقه: «هل من تائب؟ هل من مستغفر؟».

حدقت أكثر في بوصلة الزمن اليومي فتأكد لك أنه نهار يميل إلى الغـروب، هبطت إلى أسـفل قليلا، متتبعا بركات اللـه التي تهفهف على خلقه، لم تكن تتخيل يوما أن ترى ما رأيت!!

الشوارع امتلأت عن آخرها بالبشر، الميادين تعج بناسها وتطفح ما فاض منهم صوب الشـوارع المتفرعة، اقتربت من الملائكة التي تظلل تلك الحشـود، استقبلت شـفرات بهائها، اتضحت لك ستارة الرحمة ومن خلفها القلوب تجمعت بين أصابع الرحمن، الدعوات الصاعدة إلى أعلى واحدة، والإرادة واحدة، والقلوب خالية من أي ضغائن، قلوب لا تريد سوى مطلب واحد.

الشـعاع النازل من عند الله يتشابه مع ذلك الذي يرسله الله على خلقـه يوم عرفة، أدركت وقتهـا أن إرادة الله لن تخذل تلك القلوب إن تجمعت على هدف واحد.

أعطتك ذاكرتك بعضا من ذكريات مشابهة حين كنت في السلطة ورحـت تتابع بضيـق وكره هذه الحشـود وهي تهتف بسـقوط نظام سياسـي انتميت إليه، اسـتحضرت يومها حقدك علـى هؤلاء الذين نخروا في جدار سـلطانك فسـقط، تمنيت وقتها لو انكشف لك ما تـراه الآن، حين تتوحد إرادة الله مع خلقـه المغلوبين على أمرهم، أنـت الآن تطلع على ما غاب عنك وقتها، تطّلع على سـر الله الذي لا يكشفه إلا للقريبين والذين رضي عنهم.

تمنيت أن تعود إلى ذلك الجسد الناعس، إلى خرقتك البالية، تلبسها وتهبط وسط هؤلاء الذين تحفهم بركات الله، تسير وسطهم، تهتف بما يهتفون، وتعيش سكرة القرب حين يحرك الله قلبك بين أصابعه، تمنيت أن تفوز بلذة ملامسة أصابع الله لقلبك حتى يصعد سُلمةً أخرى نحو القرب وأنت القريب. هفهفت بأجنحتك فوقهم علها ترسل نسائمها التي تخفف عنهم وطأة عناء المسير والهتاف والتمني، اقتربت أكثر من حسن، رأيته معلقا على أكتاف موجة من تلك الحشود، يهتف كثيرا وعروق رقبته منفوخة حد الانفجار، والقلب ينعم بالقرب من أصابع الله، يهتف:

- يسقط.. يسقط.. حكم المرشد....

لم تكن معنيا كثيرا بتفسير دلالة وغاية الهتاف، كنت معنيا أكثر بنظرة الله ورضا الله عن هؤلاء، تتابع تلك العطايا الإلهية وهي تهبط نحوهم، تتابع ملائكة الله وهي تترجم أمره بحقيقة غاية هذه الحشود، تتابع على جانب آخر ملائكة غلاظا بحراب من سواد كالليل، تحيط بكرسي ذلك الحاكم، تزحزح أركانه، وتهدم من عليه، تتابع أصابع ملائكة الله الغلاظ وهي تغرق قلبه في رجفة الخوف والفزع، وتنفر حاشيته فيقفزون من سفينته الواحد تلو الآخر.

صرخت في حسن:

- أبشر بفرج الله.

صرخت أكثر لكي يسمعك، كان غارقا في صدقه وهتافه.

ارتفعت أكثر قليلا، أطلقت صيحاتك بالبشرى علها تصل إلى أكبر قدر من رقعة الحشود، لم يسمعك أحد.

ظللت تهفهف بأجنحتك فوقهم، تخفف عنهم، تدلق فوقهم رسائل البشرى حتى فك الليل ستائره فسقطت على شبابيك الكون مؤذنة باستكانة وارتياح.

انفضت الحشود تاركة بعضها تحتل النواصي والميادين إيذانا بغد لا يقل في الحماسة والعزم، أدركت أن أمر الله الذي قرره في الدرجات العلا لن يأتي موعد نزوله إليهم الآن.

اطمأننت على حسن وقد تمدد بجوار بعض رفاقه وغادرت صوب مقابر الغفير، شذا رضا الله يغمر المكان والملائكة يحومون فوقه، مصر كلها بين أصابع الله، أسفل ريش أجنحة الملائكة التي تنثر عليهم بين الحين والآخر ما يأمرها به من رحمة وبركة وصبر.

لمحت في الأسفل روحا تشبه روح درديري، ناديت أن تأتي إليك، قالت لك:

- حدودي هنا في الأسفل، لست من الموعودين بالأعلى فاهبط أنت.

هبطتَ مسرعا، كانت روحا مرهقة، غارقة في الضيق، هدهدتها بحنوك، قال لك إنه غادرها، طلق تلك العجوز القبيحة، وقفز من فوق أسوارها، لم يعد منتسبا إليها، إنها الدنيا.

- وجسدك؟

قال لك: «تركته في نفس المكان الذي احتواه حيا».

سألك:

- كيف فزت بالأعلى وما زال حبل دنياك موصولا؟

ابتسمت له:

- إنه القرب؟

كان فضاء روح درديري قاتما في المنتصف، لكن في الحواف بعضا من رضا ونور، قلت له:

- اصبر فأنت في مرحلة سداد ديونك وتقصيرك، وانتظر القادم فهو أحلى.

انكمشت تلك الروح على نفسها مودعة وغادرت، تطوف فوق رؤوس النائمين، تفتش في أحلامهم فتبتسم حين ترى الأحلام واحدة، الكل يحلم بمصر فقط وقد تخلصت من حبل حاكمها الجهول.

اقتربت من بقايا روحك التي تشع من بين حيطان تلك الحوشة التي احتوتك، رأيت أباك نائما، مستكينا، هادئا، لم يعبأ بوجودك، تركته واقتربت من سريرك، ما زال يحتفظ برائحتك قبل أن تتطهر، يحتفظ ببعض شرك، وقتامتك. نفضت ما عليه، ونفخت فيه من روحك الجديدة، بعضا من فيض الله عليك، فانتشى، اشتاق إلى احتوائك، تركته وابتسمت.

طرت إلى تلك النائمة في الحوشة المجاورة، إلى حياة،كانت محض اسم فقط بلا أية علاقة تثبت المعنى، روح ذابلة، تقترب من الجفاف، تلفظ أنفاسا أخيرة نحو الموت،والضيق، قانطة كانت، يائسة في عمقها، حولها طبقة من صدأ سميك، مددت بعض ريشك تنظفه، عجزت، دخلت إلى باب تلك الروح، في غرفة الرؤيا والمنام، هدهدتها، وبخخت فيها كثيرا من يقين، اشتكت لك من غيابك، ومن أملها المطحون أسفل عجلات يأسها في عودتك، طمأنتها كثيرا.

حكت لك عن مغادرة الشيخ زوزو ومعها كوكو ووحيد وغياب علي منولوج، وموت درديري، حكت لك عن حسن وزواجه، وعن خوفها عليه، بانقباض قلبها حين يهرب إلى المحتشدين في الميادين.

طمأنتها كثيرا وغادرت لأن وقت عودتك إلى جسدك قد حان، فانطلقت صوبه، كان ذابلا، قليل النبض، خاليا من بصمات أي شهوات بعد أن طهرته، ارتديته، فاستراح بمجيئك، فسجدت معه سجودا طويلا انتهى ببكاء بعدد ما انكشف لك من أحوال قلوب لطالما دفأتك بحنينها.

***

رغم مشاركته في كل المسيرات والتظاهرات الماضية إلا أن حسن أدرك شيئا غريبا هذه المرة، ففي كل مرة كانت الحشود تبغي التعبير عن رأيها، لكن هذه المرة شيء يصل إلى حد الانفجار والطفح والفيضان يسيطر عليهم، رغم تلك الأعداد التي ما شهدها التاريخ الحديث يوما إلا أن حسن رآها جسدا واحدا، تنبض في وقت واحد، تهتف هتافا واحدا.

رأى مصر طائرا تاريخيا بملايين الأجنحة تحتضن أبناءها وتحنو عليهم، تأكد له وقتها أن غاية تلك الجحافل ليست تحرير مصر من قبضة مختطفيها، بل تحرير ذلك الشعب وكسر قيود زنازينه.

غادر حسن مع كثرة من المشاركين إلى ميدان التحرير يؤمّنون مداخله كي لا يحتلها الطرف الآخر، كان الميدان في استدارته يشبه الحرم المكي، تخيل أن في الوسط كعبةً للحرية تبغي من يطوف حولها سبعا.

سمع من البعض أن المتربصين بهم الليلة كثر، وأن عمليات الكر والفر مستمرة، اختار حسن أن يكون مع الفريق الذي سيتولى تأمين مدخل الميدان من ناحية عبد المنعم رياض لأنه الأخطر.

كانت الأغاني وتراتيل البعث تتهادى من بين الخيم النائمة، صوت الشيخ إمام يدندن باسم مصر البهية «أم طرحة وجلابية».

يعبئ صدره هواءً نقيا، ويحمل ما توفر للدفاع، بعض حجارة، وزجاجات فارغة، أحس بشوق غريب يجتاحه نحو زوجته إيمان، مد يده إلى محموله الذي أوشك على انقضاء شحنه، ضغط على الرقم، جاءه صوت إيمان محملا بكثير من العتاب والقلق:

- قلقانة عليك..

قطعت صوت إيمان صرخة لحياة التي كانت تجلس بجوارها.

انهالت عليه سبابا لأنه لم يطمئنهم بكلمة واحدة طوال اليوم، أراد أن يقول لها: في قلب المعركة يصبح من الرفاهية أن يسعى للحديث في هاتف محمول مع شخص يحبه.

انتهت جرعة القلق ولفظ هاتفه آخر نفس له على وقع جملته وهو يوصيهم على حسن الساكن في أحشاء إيمان، أول مرة يعلن فيها ذات فيض رغبته بأن يسمي من في بطنها باسم حسن.

جلس بجوار حائط المتحف محملقا في البعيد، مستحضرا صورة وليده المرتجى، رآه طفلا يسعى، وشابا يافعا، رآه على

شـاكلة أفضل منه، ففرح واستأذن زملاءه في النوم؛ ليرتاح قليلا من تعب نهار طويل.

حيـن أغمض عينيه، انفتحت روحه على سـاحة مـن نور ممتلئة بكل من أحبهم ملتفين حول أبيه الذي ظهر منتشيا مفاخرا، يصافحه الجميع، يباركون له، اقترب حسن، جلس على تلك الأريكة البيضاء المتصدرة المجلس، اقترب من أذن أبيه:

- هو فيه أيه؟

ضحك أبوه بصوت سمعه كثيرون:

- دا فرحك يا حسن!

***

لم يسـتطع الجسـد الهزيل أن يجـاري صمود روحـك في تلك السـجدة الطويلـة، راح بخجل يئن، عادت روحـك من هيام القرب لتترك مساحة لراحة عبدها الجسد.

أجمل ما في الكون تلك السكينة التي ارتدتها الصحراء المهيأة باتسـاعها لبراح الـروح الجاهـزة للانطلاق، تلك الـروح المتصلة بملائكة العرش.

تـرى الصحـراء وقد انكشـفت لـك الحجب، ملائكـة يروحون ويجيئـون، ونفـوس معذبـة منتظـرة أمام بـاب الرحمن، وشـياطين يحيكون مؤامراتهم للبشر.

انزعجت كثيرا وأنت تتابع تلك الروح الهائمة على وجهها، تبحث عن قِبلة فتتوه، صعدت إليها مُسرعا، فضاء الصحراء كان حيزك الذي خبرته، وعرفت تفاصيله، كلما اقتربت منها هربت، ابتعدت، حاصرتها فأمسكت بها، كانت روح حسن أبو علي، تائهة، مرعوبة، موتورة، وخائفةً من كل شيء، حين رأتك قفزت لتفر فأمسكت بها، حبستها بين جناحيك، سألتها كثيرا علها تفسر لك سبب دخولها عالم الأرواح، هل جاءت عبر شطحة حلم طويل حين نجحت الروح في مغادرة محبسها وسجنها الجسد؟ أم هو الموت حين تخرج ولا تعود؟

أدركت بعد أن راح ذعرها واستقر الحال أنه خروج النهاية، هو الموت.

رحت تُلقن تلك الروح تراتيل القبول، وتعاليم الحال اللا دنيوي حتى هجعت واستقرت.

قلت لها:

- أنا المعلق في حبال القرب مرتديا ثوب الحياة، أنا المُنتَظر.

قالت لك:

- إيمان في عنقك، وحسن الذي في أحشائها أمانة لديك، وحياة أيضا.

وأنت تستمع إلى وصية الروح امتلأت السماء بملائكة لم ترهم منذ وصولك، وصعودك إلى أعلى درجات القرب، كانوا يحملون أباريق ونمارق وورود، الأنوار تلألأت من بين أيديهم ومن خلفهم.

وصلت طوابير الملائكة إلى السماء السابعة، دهشت لتلك المنزلة التي وصلها حسن وأنت الذي عرفته جيدا، انزويت بعيدا تتابع مراسم البهجة والاستقبال، حين رأيت شيخك انتفضت مسرعا نحوه، سألته عما وصله حسن.

قال لك:

- إنها منزلة الشهيد.

***

صوت نحيب حياة جاء مبحوحا، مقسوما على فجيعة مقتل حسن، بكاء إيمان خرج مكتوما، يتلوى على مرارات تبدأ من يتمها وتنتهي بيتم طفل لم يأتِ بعد، قال زملاؤه لحياة: «عليكِ أن تفتخري بأنك أخت لهذا البطل الذي ظل يقاوم المتربصين وحيدا بعد أن سقط كل زملائه أسفل رشات الخرطوش الطائش».

ردت في عدودة ممطوطة:

- افتخرت بأبي فلم يعوضني افتخاري عن ليل يتم طويل.

تركتها صرخة ترن في فضاء المكان.

استراح جثمان حسن في نفس الحوشة التي احتوته حيا، غادر المشيعون المتلفحين بحزن الفراق، تمددت حياة بجوار القبر من اليمين وإيمان من اليسار، احتضنتا طينة الدنيا وقد امتلأ الصدر برماد قاتم، أما القلب فقد احترق عن آخره.

***

لم تكن بعيدا أو غائبا عن جنازة حسن، عدت من احتفالية الاستقبال لروح شهيد في السماء إلى جنازة وبكائية الوداع على جسد فقيد في الأرض، وبين الحالتين ملكوت من الغيب، تعجبت كثيرا من فهم أهل الدنيا الذي منذ أن صعدت إلى درجات القُرب العُليا وجدت ذلك الفهم متعارضا مع إدراك ووعي أهل السماء، ابتسمت متسائلا:

- لو أدرك أهل الأرض المنزلة التي وصل إليها حسن؟ لو أدركوا مراسم الاستقبال الملائكية التي أقيمت له؟

تركت تساؤلاتك لبرزخ الفصل بين كونين وبين عالمين متناقضين ومحجوبين عن بعضهما وجلست فوق رأس قبر حسن تفكر في الكينونة التي تريد أن تكون عليها وأن تنفذ وصيته تجاه حياة وإيمان، ترى أرواحهما تهفهف فوق الجسدين، غير قادرتين

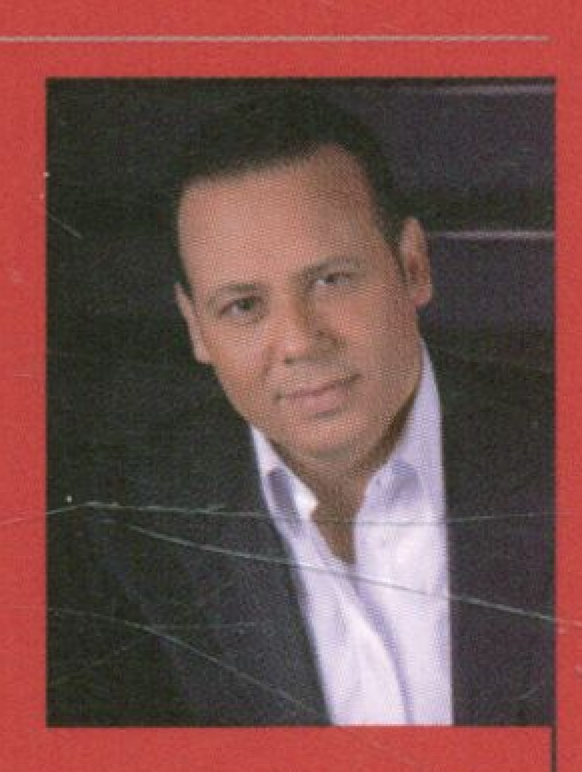
علـى مغـادرة الحدود التي رسـمت لـروح النائم، هـل تكتفي فقط بالقـرب مـن روحيهما، تلتقي بهمـا لقاء الرؤى العابـرة كالتي يراها النائم؟ أم تعود إلى جسدك ترتديه وتأتي لتنفذ وصية حسن لك، أي تعود رياض كامل جديدا، مغسولا بتسنيم القرب وماء الطهر، تعود وليـا للـه حتى لو جاءت تلـك العودة في إطـار تضحيتك حين تقبل بارتداء طين الجسد، حين تحيا بين البشر وأنت الذي جربت القرب من ملائكة الأعلى.

تضحيـة كبيـرة أن تغـادر النوراني فيك وتنحاز إلـى الطيني، مرة أخـرى تعود إلـى ذلك البيـن الذي كرهتـه كثيرا، لكن عـزاءك أنك بين الحُسـنيين، لو لبست جسـدك وعدت إلى الأرض ستكون فيها نـورا اللـه يضيء قلوب المتعبيـن، تعود لتأخذ بيمينـك حياة، وباليد الأخـرى إيمان، وتغادر صوب أي مكان ليـس كمقابر الغفير، تعود لتعطي لحسن عمرا جديدا في جنينه الساكن في رحم إيمان.

تمت في أكتوبر 2013 م.
بدأت في كتابتها منذ 2010م.

"أنا ضميرك الذي خلعته "بقرف" وكأنك تخلع فردة حذاء قديم، كنت تنوي وقتها قتلي حين ألقيتني بعمد وحقد في سلة القمامة لتخنقني ببقاياك القذرة، لكنك كعادتك تركز على الفرعي وتنسى الأساس، نسيت وقتها الفطرة والسليقة، نسيت أنني غير قابل للموت وأن غيابي وإقصائي لا يعني بالضرورة موتي".

بين الحياة الملوثة بالشرور والمطامع، وبين الموت النقي بالكشف والتجلي، تدور أحداث هذه الرواية، التي وقفت في منطقة "البين" منذ تنفُّس حروفها الأولى، وحتى تعلُّق روح بطلها بين السماء، حيث الملائكة وأفراح الشهداء.. وبين الأرض، حيث الطين والشجن، وذلك من خلال رحلة إلى أعلى، أبدع الكاتب في وصفها؛ ليمنحنا القدرة على النظر إلى أنفسنا بتجرُّد، والتطهر من أدراننا، ونحن نقف بين ثورتين أضاءتا معارج الروح.



محمود الورواري.. إعلامي، روائي، مسرحي.. ص
تنوعت بين الرواية والقصة القصيرة والمسرح،
سقوط" التي وصلت إلى القائمة الطويلة لجائزة
عمل كمذيع ومقدم برامج في عدد من القنوات
منذ ثورة 25 يناير 2011 عاد ليستقر في مص
"الحدث المصري" على قناة العربية.





الدار المصرية اللبنانية